رواية

سيرة الحب

محمد القماري

القاهرة ...

يرتفع صوت آذان الفجر في أرقى تجمع سكني في وسط القاهرة، وأستيقظ كي أتم الصلاة، أمارس الرياضة، أغسل أسناني، وأفتح خزانة الملابس: مجموعة من البذات مختلفة الألوان، كل مجموعة بلون مختلف؛ قميص رباط عنق، إفطار سريع في حال ذهاب زوجتي عند عائلتها، موعد الذهاب للعمل قد حان. ارتسمت علامات الزهو والفرح على وجهي وأنا أفتح باب سيارتي (الأودي) الجديدة، ومشاعر الراحة بداخلها تجعلني كلما ركبت سيارة جديدة أعود طفلا صغيرا يعطي له والده حلواه المفضلة، كما كان يفعل والدي دوما –رحمة الله عليه– الراديو مبرمج على إذاعة القرآن الكريم، كما كانت سيارة والدي، وكيفما كان يسير أسير حتى الآن إلا في الحب؛ فقد كنت أجد أن الحب ضعف كما في عين والدي كلما رأى أمي منزعجة أو متوعكة قليلا؛ فقد كانت مشاعري تجاه الحب قاسية، ليس فيها رحمة لأن الحب ضعف، كثيرا ما راودتني أفكار تجاه الجنس الأخر، إنما الحقيقة ثابتة، أنا لست إنسانا ضعيفا، وأكره أن أكون ذلك، فما يجعلني دوما في ارتقاء هو بعدي عنهم جميعا. بعد وفاة والدي استلمت

سلسلة مطاعمه في القاهرة، متحديا الكثير من المنافقين حولي، ولم أكترث للنساء ولا لإغراءاتهم المستمرة بسبب انشغالي بالعمل، وكنت في قمة السعادة لا أكل ولا أمل، حتى ظهرت إشاعة بين عائلتي بمثليتي جنسيا، تمنيت أن أعرف ذلك الأحمق ألذي أذاع ذلك الخبر حتى أجعل منه زوجتي، لكنني لا أهتم بتلك الخزعبلات الاستفزازية، من عقول فارغة، لا تفكر سوى بالجنس والملذات في ظل أموال عائلاتهم، وعدم القدرة على تحمل المسئولية وحب حياة قذرة تملؤها الرذيلة، إلا من هم أصحاب الحِرف والدخل البسيط الذين أدعمهم كما وصاني أبي -رحمة الله عليه-

في سن التاسعة والعشرين، أصرت أمي كامل الإصرار على زواجي من (أحلام) ابنة خالي، الذي فقد أمواله إثر عملية نصب كبيرة تعرض لها، واضطروا للبقاء في شقتنا المتواضعة في حي الزمالك، وفي تلك السن لا ضرر من الزواج، مادامت (أحلام) متفهمة لحقوقها وواجباتها الزوجية، وليست مجرد فتاة طائشة؛ أحلام ابنة خالي، إنسانة متعلمة وجميلة وذات طابع أنثوي فريد، من يقابلها يجب أن يقع في غرامها، فهي تشبه جمال والدتها في

الصغر كما كانت تتباهى منذ زمن بعيد بأنها من أصول تركية، وكأن جمالها ليس له مثيل، كان يتهافت عليها شباب العائلة إلا أنا، كانت بالنسبة لي مجرد زيجة تقليدية، فكما قلت الحب ضعف، وأنا إنسان قوي.

البرازيل ساو باولو...

ترجلت (ليلى) بابنها في السوق القريب للمنزل لتشتري لوازمَ لعمل كعكة عيد ميلاد زوجها، حيث إن شراءها باهظ الثمن والميزانية لا تسمح، يهتف ابنها الصغير (بترو) ويقول:

– لقد تعبت قدماي يا أمي، هلا انتهينا؟

– انتهينا، هذا أخر متجر، وسوف نذهب لنحضر لندا من المدرسة، ونذهب للمنزل.

لم تنقض ساعة حتى عادوا جميعا إلى لمنزل، وبدأت (ليلى) في تجهيز الكعكة، يرن جرس الباب وتنادي (ليلى) (بترو) أن افتح الباب؛ قد يكون والدك. فتح (بترو) الباب ووجد رجلا رث المظهر أمامه، يقول له بصوت أجش مرعب:

– أين أمك أيها الصغير؟

أجابه (بترو) في خوف:

– في المطبخ تعد الطعام.

قبل أن ينادي أمي أطبق ذلك الرجل على فمه، ودخل أخر وجذب (لندا) وأطبق على فمها، خرجت (ليلى) من المطبخ لترى ما تلك الجلبة، تفاجأت بشخص يطبق على أنفها بمنديل وتغيب عن الوعي. تفيق على شخصين يتناوبان عليها الاغتصاب، تفقد القدرة على الحركة والمقاومة، ثم تغيب عن الوعي مرة أخرى. تستفيق لتجد المنزل يعج بالجيران، وهي عارية، تجد على الطاولة زجاجات جعة، وزجاجة مشروب محلي الصناعة، وبعض لفافات التبغ، تحاول أن تفهم ماذا حدث، وتتذكر القليل وتجحظ عيناها، لتجد زوجها في نهاية الغرفة، يبالغ في التمثيل ويبكي قائلا:

- أخذت الأولاد من الصباح الباكر عند أمي، لتخلي المكان لتلك القذارة، تلك العاهرة كيف تؤتمن على أطفالي!

صرخت في فزع بالغ من هول ما ترى أمامها:

- أين أبنائي؟ لقد كانوا هنا (بيتر) و(لندا).

وتصرخ وتستمر بالصراخ، الفراش غير مرتب، وترتدي قميص نوم شفاف، دون ملابس داخلية، وعلى أنفها الكثير من مسحوق

أبيض، لا تعلم من أين أتى؟ يأخذها زوجها من شعرها، وهي تتدلى من يده على الأرض وتصرخ من شدة الألم، وتحاول الحفاظ على غطاء الفراش حول جسدها، ويطردها زوجها من المنزل أمام الجيران، وهي تلتحف غطاء الفراش، قائلا لها:

- لا تدخلي هذا المنزل مرة أخرى، وإلا قطعت يديك ورجليك، هل فهمت؟

وأغلق الباب في وجهها.

انتظرت (ليلى) جارة لها على باب المنزل تحضر لها ملابس، وهي ترتدي الملابس قالت لها جارتها بصوت خافت:

- لقد رأيت كل شيء.

- ماذا رأيت؟

- زوجك كاذب، لقد رأيت شخصين يأخذان الأولاد خارج المنزل، وكان (باتريك) صديق زوجك ينتظرهم في السيارة، ثم صرخت أنت ودخل أربعة رجال، حاولت الاتصال بالشرطة، لكن زوجك قد حضر، ودخل المنزل في هدوء ثم بدأ بالصياح وتمثيل المشاجرة، حتى ينتبه الجيران لذلك، عندما اجتمع الجيران

همَّ الشباب بالخروج من المنزل، على مرأى ومسمع من الجميع، وقد عقد لساني؛ أنت تعرفين زوجك وسطوته، إنه جبار ولا أحد يقف أمامه، لست أدري ما كان سوف يحدث لي ولأبنائي إن تحدثت أو قلت أي شيء وأنا قلت لك بما شاهدت، لتعلمي ماذا تواجهين، نصرك الله، لا تقولي إنني قلت شيئا.

وتركتها ورحلت، ظلّت تتسكع (ليلى) بلا مأوى حتى ضاق بها الجوع والعطش، تمسك بيدها ذلك الصليب المتدلي من عنقها، وتطبع قبلة بائسة عليه، الثياب ليست على مقاسها، وشعرها غير مرتب، وقفت لها سيارة فارهة، بها رجل في الخمسين من عمره، قال لها بصوت ناعم:

– اركبي أيتها الفاتنة.

– لماذا؟

– لدي بيت صغير أريد أن أريك إياه.

قالت وقد اعتصر الجوع معدتها:

– منزلك به طعام؟

– طعام وملابس جديدة، وكل ما تفضلين ...

ركبت السيارة بلهفة؛ عسى أن تجد مأوى لساعات قليلة، وطعاما وبالتأكيد مبلغا ماليا.

بعد مرور "عام ونصف" اعتادت (ليلى) السكارى ورواد الحانات، وقفت خلف لافتة تحمل الرقم (١١٧) لملهى ليلي تقوم بالرقص وممارسة أعمال الدعارة به.

تتحدث للمحامي، وتقول له بعصبية:

– ألن أتمكن من رؤية أولادي مرة أخرى؟

– يا (ليلى) أنت لا عمل لك، ولا محل إقامة لائق بأطفال، ولا أي شيء، أنت تضيعين وقتي وأغلق الخط ...

أخذت تبكي بحرقة أكثر فأكثر، فناداها أحد السكارى: (نتاشا) ألن تتحفينا برقصك الليلة؟ ها هي خمسون ريالا مني مقدما. تمسح عينيها بيدها، وتأخذ منه الخمسين ريال، تضع نصفها داخل الصدرية والنصف الآخر متدل، وتستقل المسرح وحدها، والمسرح عبارة عن دائرة خشبية، تعلو بسنتيمترات المسرح المتواضع، بمنتصفه عمود حديدي قوي لعرض الراقصات مهاراتهم عليه

بعض الأحيان عراة وبعضها بملابس بسيطة. تنطفئ الأضواء وترحل جميع الفتيات، عندما تبدأ (نتاشا) رقصتها... وتنهمر دموعها أثناء الرقص، بمزيج من الأضواء الخافتة، وألوانها الداكنة لا يظهر خلفها شيء، وهي تتوارى خلف تلك الرقصات، تتذكر أنها امرأة في قمة السعادة ولا تبالي بشيء، ولا تكترث لشيء، فقط حياتها، ولا شيء أخر سوى المتعة المحرمة، ولا تعلم كم من دموع ذرفت في تلك الليالي الباردة.

إيطاليا – صقلية

دون (جبرائيل) يتحدث في الهاتف، وهو لاصق ظهر مقعده على حافه المكتب، وأرجله معلقة على الحائط خلف المكتب

ويقول في حزم شديد:

– نعم لقد خرج مجددا ولم أعرف أين هو؟ ترتفع الأرض وتنطبق السماء، الآن أريده خلال ساعة لا أكثر، أفهمت أيها الغبي؟ ماذا أقول مجموعة من الحمقى أنا رئيسهم؛ سُرِقَت المخازن ليلة أمس، والجميع نيام أيها الأغبياء، ولا أحد يدري وهو يهرب كعادته، وكأنه نحلة، لا يراها أحد؟ أخبرني بأخر التطورات سريعا. يغلق الهاتف ويقول في نفسه: ألا يكفيني السرطان، يريد أن ينهي حياتي أيضا بذبحة صدرية؟

في أحد المخازن المترامية على أطراف باليرمو، يقف ذلك الشاب على سطح إحدى البنايات المجاورة، وبيده نظارة معظمة صغيرة الحجم، يغطي ملامحه بغطاء رأس وإحدى النظارات الريبان تغطي عينيه، يقول شاب خلفه:

– دون (جوفاني) متأكد من أنك من سيقوم بفتح تلك المداهمة؟

– لا عليك يا (تينو)، لا تقلق؛ لقد حسبت المسافة جيدا وإن فعلها غيرى، يمكن أن أخسر أحد رجالي وأنا لا أخسر رجالي بخطوة غير مدربين عليها جيدا.

– لقد وصلت البندقية يا دون (جوفاني).

فتح (جوفاني) الشنطة وأخرج بندقية حبل الانحدار منها، وأخذ يركب كل قطعة فيها بنفسه وبسرعة وثقة تستحق إعجاب من حوله، ثبّت خلفية البندقية، وبقي أن يرمي الهدف، نظر للحائط الأخر من الجهة المقابلة للمبنى وإذ بها كنيسة، قال بصوت خافت: فليسامحني الرب، وأشار على جسده برمز الصليب، وأطلق حيث وصلت الطلقة لمكانها المقصود دون خطأ. ثبّت في قدميه طرف المزلاق ودون أن يشعر أحد انطلق كطلقة مباغتة، فرآه حراس المخزن، واندهشوا وهو ينزلق على ذلك السلك الحديدي، رأسا على عقب، أخرج من سترته زوجا من الرشاشات الصغيرة، وأخذ يحصد الرؤوس، أخذ رجاله يطلقون النار عشوائيا على البناية، ومن يقف حولها، حتى إن من بالمخزن خرجوا لينضموا لمكافحة المداهمة. ظل (جوفاني) يطلق الرصاص ويحصد رؤوس الحراس، حول سطح المخزن،

ثم أفلت قدميه من قابس المزلاج، ودار دورة في الهواء ثم ركز على قدم وركبة، وأكمل إطلاق النار بعشوائية منتظمة، نظر رجاله من أعلى البناية، وقال أحدهم على جهاز الراديو:

- مهدوا له الطريق والإمدادات تبدأ واقتحموا المخزن ...

في حين دوي الرصاص يوقظ الموتى في الخارج دخل (جوفاني) المخزن ووجد الشاحنة المطلوبة، أخرج من جيبه قرصين من المتفجرات، بعد بدء تشغيلهم ألقى بهم في زوايا مختلفة من المخزن،

(تينو) يهتف في جهاز الراديو اللاسلكي، ويقول:

- لم يدخل أحدكم بعد أيها الاغبياء؟ الزعيم بمفرده في الداخل.

لم يكمل تلك اللحظة حتى خرج (جوفاني) بمقطورة محطما باب المخزن الأمامي، ودهس بعض حراس المخزن، في طريقه، وهو يردد: (تينو) انسحاب - انسحاب - انسحاب. خرج الثعلب من الكهف، ثم تم تفجير المخزن خلف السيارة المسرعة، وتحول المخزن إلى أشلاء.

يعاود دون (جبرائيل) الرد على الهاتف ويقول:

– ماذا حدث؟ هل وجدته؟ ماذا؟ قل مرة أخرى: ماذا فعل؟ لا أستطيع سماعك جيدا.

رد عليه المجيب في هلع واندهاش بالغ:

– منذ ثوان ونحن نراقب المخزن، اقتحم الدون (جوفاني) المخزن وحده مع سيل من الرصاص، وخرج بالسيارة متجها بها إلى القصر يا دون (جبرائيل)، لقد حوّل المكان بمفرده لكومة من القش.

أغلق دون (جبرائيل) الهاتف وقال في نفسه: إذا استلم (جوفاني) الزعامة فلن يفلت من بين أصابعه أحد، يفاجئني ذلك الفتى بما لا أتوقع.

الطعنة

القاهرة ٢٠٠٦، مرّت سنة كاملة على زواجنا حتى الآن، لم نرزق بأطفال! رغم عدم وجود أي خلل جنسي بيننا، وفي الغالب ذلك الخلل عدم وجوده ذلك الملعون المسمى بالحب، وكان ذلك يتمثل في عدم اهتمامي من الناحية العاطفية. اعتادت على السهر مع صديقاتها خارج المنزل، وتغيرت طباعها، في حين ازدهرت أعمال والدها من جديد بفضل مساعدات أمي المتواصلة بتلك القروض المعدومة إلى خالي العزيز، حتى إنني في أوقات كثيرة كنت أذهب لبيتي كغريب لا أجد به أحدًا فيأتي اتصال تليفوني أو رسالة تخطرني بعدم رجوعها إلى المنزل اليوم لأنها برفقة والديها بحجة المبيت معهم. كنت لا أكترث بالوضع فأنا أثق بزوجتي جدا؛ ابنة خالي من عائلة محترمة جدا ولا يوجد أولاد فلا ضير أن تعيش حياتها في ظل ظروف عملي، ذلك حقها أن تكسب في وقتها الكثير من المرح، وفي يوم قد عزمت على تغيير وضعنا الحالي، وفكرت منذ فترة في التقرب من (أحلام)، عدت مبكرا جدا من عملي؛ منذ زمن أحس بالتقصير وعدم الاهتمام بأحلام، ووددت أن أعوضها، بعد توسعي في

العمل لخارج البلاد وفتح أربعة مطاعم في دول خليجية شقيقة، عزمت أن آخذها ونسافر لأي من الدول التي تختارها ونمضي سويا عطلة شهر عسل جديد، ذلك ما يدور في خلدي طوال طريق رجوعي للمنزل، فتحت الباب لأجد البيت خاليا تماما، أين هي يا ترى؟ منذ متى وأنا أسأل؟ صحيح وأنا تارك لها العنان ... أين ذهبت حتى لم تخطرني؟ لم أجد سبيلا، هاتفها لا يجيب! أردت تجهير حمام سريع؛ شرعت أبحث عن المحارم والبشاكير، وصدفة فتحت خزانتها لأول مرة فوجدت أمامي حبوب منع الحمل، راودتني شكوك بأنها أي من الأدوية الأخرى، ودواء أخر أجهل هويته تماما، غريب! زوجتي لا تعاني من أي مرض! نزلت لأقرب صيدلي أستفهم منه عن هذا، فنظر لي الصيدلي بتعجب لسؤالي:

– تلك حبوب مانعة للحمل يا سيدي، أما تلك فهي حبوب مسقطة للأجنة.

ارتعشت لقوله لوهلة، وتم إحراجي لأبعد مدى، جسدي بارد يملؤه العرق، مددت يدي وأخذت الدواء بحسرة، خرجت من الصيدلية، أجر قدمي جرا للشارع، لا أدري ماذا أفعل وماذا أقول؟ فكانت

عيني مغمضة وقلبي يدق بسرعة كبيرة، دخلت منزلي ووضعت كل شيء مكانه مرة أخرى، وانتظرت ساعة! حتى تتصل دون جدوى ودون رد على الهاتف! نزلت الجراج وجلست في سيارتي قرابة النصف ساعة، ألملم أشلائي المبعثرة حتى أستطع القيادة. ذهبت إلى منزل والدها في الزمالك، عسى أن أجدها هناك.

- صباح الخير يا عم (محمد). (حارس العقار)

- صباح الخير يا سيدي.

- يا عم (محمد) من السيد؟ لا يصلح هذا الكلام.

- كيف هذا يا سيدي؟

- كيف يا عم (محمد) إنه أنت من رباني، ألا تتذكر حافلة المدرسة؟

- بارك الله فيك يا بني، لكن هذا لا يصلح؛ لقد أصبحت رجلا مرموقا في المجتمع.

- لا يا عم (محمد) أرجوك، لا أحب أن أذكرك مرة أخرى بذلك.

- حسنا يا (طارق) يا ابني.

- هل حمواي بالمنزل؟

- لا والله، الست هانم والبيه في الساحل منذ أسبوع مضى.

- في الساحل كيف؟ (أحلام) كانت هنا أمس؟

انقلب وجه عم (محمد) العجوز، وزالت ابتسامته وهمهم قائلا:

- يمكن السيدة أحلام تطمئن على المنزل وتباشره، أو ما إلى ذلك.

وتبين لي أنه منذ أسبوع لم تكن العائلة بالمنزل، حاولت أن أصل إلى أي بارقة أمل، أن أعرف من صفية مدبرة المنزل أي معلومة، قرعت الجرس، فتحت (صفية)، قالت لي باستقبال وحفاوة بالغة:

- أهلا يا (طارق) بيه، تفضل.

دخلت وجلست على كرسي قريب، وقلت لها في توعك بالغ وتجسيد الإعياء على مظهري:

- فنجان قهوة يا (صفية) إذا سمحت.

- تحت أمرك يا (طارق) بيه.

مضت الدقائق وكأنها شهور، أحضرت (صفية) القهوة.. سألتها في عدم اكتراث:

– أين ذهب الجميع؟ لم يخبرني أحد بعدم تواجدهم بالمنزل حتى قابلت عم (محمد) الآن.

– لقد ذهبا إلى الساحل لقضاء أسبوعين يا أستاذ (طارق).

– كل شيء بخير؟ ألا تحتاجين أنت لأي شيء؟

– الحمد لله كل شيء بخير.

– هل (أحلام) تباشر المنزل باستمرار في غياب خالي وزوجته أم لا؟

– حضرت مرة أعطتني راتبي وغادرت بسرعة.

مددت يدي في جيبي وأعطيتها مبلغا من المال، وقلت لها:

– هذا لك، لو أردت أي شيء للبيت أرجوك اتصلي بي.

– حفظك الله يا (طارق) بيه.

تماسكت وسلمت بهدوء وذهبت وعقلي تائه. في مدخل البرج راودني سؤال عم (محمد) مرة أخرى.

- قل لي يا عم (محمد).

- نعم يا (طارق) يا ابني.

- (أحلام) كانت تأتي هنا لتطمئن على المنزل، وإن احتجت شيء أرجوك بلغني فورا. صحيح كم مرة جاءت (أحلام) ذلك الأسبوع؟ اختفت ابتسامته مرة أخري وقال لي:

- تأتي كل يوم يا ابني، رحلت باكرا اليوم.

شكرته بهدوء وعقلي غير مستوعب، من يكذب ومن الصادق عم (محمد) أو(صفية) اللذان أعرفهما منذ الصغر، أم (أحلام)؟ من المستحيل أن تسافر إلى الساحل يوميا وتحضر أيضا يوميا بتلك السرعة، على كل حال كل شيء سوف يتضح، ولا داعي للعجلة.

وضعت مفتاحي بالباب، وانتظرت ثوان معدودة وأنا أفكر إذا لم تكن في البيت، أين تكون؟

دخلت المنزل لأجدها هنا، فسألتني بابتسامة مهزوزة ليس بها ذرة اطمئنان: هل أحضر لك العشاء؟

لأول مرة أحس بها قلقة وغير متزنة تماما، فنظرت لها دون حركة، أنظر لعينيها وتنظر لي! وتنظر إلى الأرض وتهم بالسير ذاهبة إلى المطبخ، أمسكت يدها برفق وقلت:

– تخيلي منذ زواجنا لم أنظر لعينيك الجميلتين لمدة دقيقة كاملة.

– انشغالك الدائم بأعمالك، وظروف عملك يا حبيبي.

عندما نطقت حبيبي لم أحسها منها سوى كذب، سمعتها مرارا وتكرارا وكأنها كلمة لإرضاء زوج، وتبين لي أنني لم أقل لها حبيبتي من قبل، أو ربما نسيت أن أقولها! اعتقدت أن الحب والعشرة أقوى من أي كلمات زائلة معسولة، لقضاء الغرض ليس إلا سألتها باستهتار وغير اكتراث:

– كيف حال خالي؟

قالت بصوت عال مسموع وهي قادمة من المطبخ لغرفة الطعام:

– كنت عندهم اليوم ويرسلون لك تحياتهم.

بدون شعور أدرت ظهري وسألتها مرة أخرى:

– والسيدة (صفية) كيف حالها؟

– مريضة، وكانت في المشفى أول أمس.

الآراء كلها غير مرتبطة ببعضها وغير جلية أمامي، كلها كذب؛ ما رأيته شيء وما تتحدث عنه شيء أخر، لقد اعتادت عدم مرافقتي لها إلى أي مكان سوى الذهاب لوالدتي، فلماذا لا أصدقها؟ إلا أنني المذنب في ذلك. كل ما قالته كذب ألا تخاف أن أتصل بخالي؟ أو أذهب إليه؟ إنما لا بد من توضيح، هل أراقبها؟ هل تخونني؟ أم أنها في وضع ما لا تريد إخباري به، ولِمَ تستعمل تلك الحبوب؟ هل لا تريد الإنجاب مني لسبب ما؟ أم لها عشيق تخاف أن تتجب منه سفاحا؟ وإن كانت زوجة لعوبا، فلماذا تخاف من إنجاب الأطفال، وإن كانوا من الحرام؟

سوق العطارين

شارع الحمزاوي الصغير، هو شارع أول الصاغة بحي الأزهر. لا يتعدى عرضه الثلاثة أمتار، لكنه يحل كل الأسرار كما كان يداعبني أبي قائلا ونحن ذاهبون لعم (جلال) كل مرة كان يدندنها لي وأنا أضحك وأضحك وتأخذني الذكريات، وجدتني أمام بابه، ها هو يقوم بالعمل بنفسه رغم التقدم في السن وظهور العجز منذ سنين على ملامحه ووجهه، إلا أنه مازال النشيط الذي لا يمل العمل. صوت أجش حليم ينادي: تعال هنا يا (طارق). توجهت ليده أقبلها،

قال وهو يسحب يده: أنا غضبان منك يا ولد.

- لماذا يا عم (جلال)؟

- عام لا أراك منذ زواجك؟

- والله الكثير من المشاغل يا عم (جلال)، سامحني.

- ماذا تشرب؟

- أنا قادم لأحكي وليس للشرب يا حاج.

- فليكن الينسون. ونادى: يا (محمد) اثنين من أكواب الينسون بسرعة. اجلس يا (طارق) يا ابني، ماذا حدث؟ نبرة صوتك تقلقني.

مضى علينا نصف ساعة أحكي بها، ماذا حدث لي؟ وكيف أحاول إيجاد الحل؟

ردد عم (جلال):

- لا حول ولا قوة إلا بالله، وأنت حائر بين "نار الشك ونار الثقة"؟

- مضبوط يا عم (جلال)، كيف أتصرف؟

- أصغ لي جيدا يا (طارق) يا ولدي ... وحكى عم (جلال) بالتفصيل.

وفي صباح اليوم التالي، بسبب جلوسي بالمنزل غير المتوقع لبعد صلاه الظهر، أنظر لها وهي تتمشى ذهابا وإيابا وكأنها منتظرة نزولي من المنزل،

ثم هبت قائلة في توتر:

– أليس لديك عمل اليوم؟

نظرت بلا مبالاة وقلت لها:

– نعم.

– متى ستذهب؟

– خلال ساعة لدي لقاء مع بعض العملاء لبعد منتصف الليل.

دخلت غرفتها، وتحدثت بالهاتف، وجلست مطمئنة تماما بعد ذلك، استعجبت من كل ذلك الاطمئنان والسكينة التي ظهرت عليها فجأة، ارتديت ثيابي، ونظرت لعينيها وقلت لها:

–ألا تريدين شيئا حين عودتي؟

نظرت لي باستغراب، واندهشت وكأنني عدو لدود، ممزوجة برؤية عقرب سام، ثم اقتربت منها وطبعت على شفتيها قبلة، وأمسكت بيدي رقبتها وطالت القبلة قليلا، ومسحت بإبهامي حول شفتيها وهي ثابتة دون حركة، وأدرت ظهري لها، ومشيت. انتظرت قليلا سيارتي، أنظف إبهامي بمنديل به قليل من الماء. انتظرت قليلا وبحوزتي دفتر شيكات، وبعض الأوراق الخاصة

التي جهزتها لغرض معين، شيء في نفس يعقوب، وجدتها متجهة إلى سيارتها وقفت قليلا حتى بدأت بالقيادة فاتبعتها حتى حي الزمالك، وكادت شكوكي تقتلني حقا حتى وصلت، فتحت حقيبة يدي ونظرت على ما بداخلها فوجدت تلك القارورة بها فوضعتها بيدي ثم ترجلت من سيارتي، وكادت تغلق المصعد، استغفرت الله على شكوكي بها، وأخذت الحقيبة من سيارتي بحجة أني ذاهب لوالدها لإمضاء بعض الأوراق، ولا أعلم بعدم وجوده وأفاجئها بتلك الرحلة التي في خاطري، وهناك أعرف منها لماذا لا تريد الإنجاب؟ وأعرف منها لماذا تكذب إذا كانت تحضر هنا يوميا لسبب ما؟ ووقفت أمام المصعد أنتظر عودته، فوجدته توقف في الطابق الخامس فتعجبت! وبدأ التوتر مرة أخرى يراودني، ليس لنا أي شخص في الطابق الخامس لعلي أخطأت في الرقم، لا لقد بدأ ينزل مرة أخرى للطابق الأرضي، ظلّت أعصابي مشدودة ومسبهلة حتى نظرت خلفي ووجدت عم (محمد) حارس البرج ينظر لي بأسف، وعينه عادت إلى الأرض فتوجهت إليه وسلمت فرد التحية، وأنا أنظر لعينه مباشرة وسألته بسرعة ووضوح:

– منذ متى يا عم (محمد)؟ وأنا لا أعلم عمّا أسأل إنما من الممكن أن أجد لديه إجابة؟

فنظر لي بعين تغرقها الدموع، وإحساس الذنب يلهب عينه،

– منذ سكنوا في البرج.

– وأنت تعلم؟

– يا سيدي والله ما كان أكرم عليَّ من والدك منذ كنتم تقطنون هنا منذ زمن بعيد، فالستر أولى من خراب البيوت، وندعو الله بالهداية.

– خيرا ما فعلت، وذلك يوميًا يا عم (محمد)؟

لم يرد على سؤالي مباشرة، إنما نظر لي وهمهم في توتر بالغ.

– لا أعلم، إنما كانت في الماضي تصعد للطابق الثامن وتترجل للطابق الخامس وهذا عرفته بفضل الكاميرات التي زودها مجلس إدارة البرج والصيانة.

نظرت له متأسفا على حالي، أدرت ظهري وطلبت المصعد مرة أخرى،

فوجدت عم (محمد) يقف بيني وبين المصعد ويقول لي:

- يا ولدي تلك الأمور لا تحل بنوبة غضب.

- لا تقلق يا عم (محمد)، أرجوك أريد منك خدمة بعد ساعة من الآن، اتصل بالشرطة ودلهم على الشقة وقل لهم سمعت طلقا ناريا وأرجوك أوقف تسجيل الطابق الخامس والسادس إلى الثامن من فضلك.

- في توتر، هل لديك مسدس؟

- أنا لا ألوث يدي يا عم (محمد)، أنت تعرف طبعي منذ كنت طفلا لا أحب العنف، العقل يكسب دائما. ما هو رقم الشقة؟

نظر لي وقال بتردد به نزعة من التردد: أنت..

- لا تخف.

- خمسمائة وواحد.

- ها قد وصل المصعد، لا تؤخرني عن حريتي.

وابتسمت له وصعدت بالمصعد للطابق الخامس أخذ المصعد وقتا طويلا، وكأنني أتسلق جبال الألب، لا مصعد كهربائي حيث

أردت الطيران والصعود إلى الشقة، ها هي الربان (تامر مراد) دققت على الباب ثلاث دقات، ولوهلة تمنيت ألا يفتح الباب، وتكون كل ظنوني هباء. فتح الباب شاب وسيم في منتصف الثلاثينات، يقول لي:

- تحت أمرك.

فابتسمت وقلت له: الربان (تامر)؟

- نعم.

رششت على وجهه ببخاخ من قارورة في يدي، باتجاه فمه وفي نفس اللحظة مددت قدمي أركل صدره للداخل وفي اندهاش عارم.

- من أنت؟

- أنا الطبيب، قد تحتاجني قليلا وفي صوتي نبرة سخرية. توجهت للصالة وجلست بهدوء...

- الرجاء مناداة السيدة من الداخل أم أدخل أنا وأحضرها؟ لا أحب أن أراها عارية أرجوك.

– لا أحد بالداخل.

فأخرجت مسدسا صغيرا من جيبي وقلت له:

– هل أدخل أنا؟

هم بالخروج من شقته، فركلته ووقع على الأرض، فتأوه بشدة، رششت أيضا قليلا من الزيت على وجهه وفمه، وسحبته من قميصه وجررته لغرفة النوم، فوجدتها وقلت لها بصيغة تهديد:

– أستأذنك سيدتي أن تحضري للخارج، كما أنت دون وضع

شيء يغطيك سوى غطاء السرير، إما قتلتك وقتلته الآن.

فذهلت وبرقت عيناها، حتى كادت تخرج من مكانها وقالت:

– نعم، نعم سأحضر.

جلس ثلاثتنا وبدأت أنا بالحديث.

– حتى لا نضيّع الوقت في حوارات ليس لها أهمية، بما أن السم يعمل فسوف تشعر بوخز في ذراعك الأيسر بعد قليل، وأخرجت القارورة التي في جيبي.

- هذا سم في البخاخ، وهذا الترياق من الهند والمستشفيات من الآن وإلى العناية المركزة تأخذ وقتا طويلا جدا لمعرفة ماهية السم وإن أردت أن أقول لهم أنا شخصيا، لا أعرف اسمه ولا بد أن يحضروا لك الترياق من الهند، إذن فأنتم موتى، فأرجوك لا تضيع وقتي في ترهات لا فائدة منها.

همهم تامر في توتر بالغ:

- أي سم تتحدث؟

- السم الذي تناولته من البخاخ الآن.

- جاء خلفك أيتها الغبية، وصفعها.

فقمت وصفعته وسالت الدماء من أنفه وأنا أهدده قائلا:

- إياك أن تمد يدك عليها، إنها مازالت زوجتي، أحذر أن أقتلك قبل السم، الآن اهدأ وقم بإمضاء ذلك الورق قبل أن يؤثر على عينيك، ويتوغل أكثر.

- ماذا تريد؟ ما هذا؟

- ثمن الترياق، نعم، عقد بيع شقتك لي، أحببت الشقة وخصوصا بأن زوجتي الحبيبة كانت أسعد أوقاتها هنا تقريبا، أفكر في إهدائها لها في عيد زواجنا المقبل ومبلغ بسيط: ستة ملايين، الذي سوف أسجنك به إن شاء الله.

بينما تمضي الأوراق سريعا، أذهب لزوجتي العزيزة، امضِ لي هنا على بعض هذه الأوراق الخفيفة.

قالت في تلعثم:

- ما هذا؟

- بعض الشيكات بمبالغ بسيطة.

- هذه بسيطة؟

- هذا المبلغ الذي استمر والدك على مدار عامين يستنزفه من والدتي، حتى تعود تجارته مرة أخرى لحالها، ما بك؟ أظن تأثير السم بدأ يظهر عليك.

فارتعبت (أحلام) وهرب الدم من وجهها أكثر:

– أنا أيضا أحس بوخز في ذراعي الأيسر، أوضعت لي السم أيضا؟

– مسحت مسحة عابرة على شفتيك قبل خروجي من المنزل، لا تقلقي؛ لن يكون مفعوله سريعا مثل (تامر)، حيث إنني مسحت لك بإصبعي فقط، إنما (تامر) استنشق وبلع.

وانتظرت حتى مرور ساعة كاملة وبدأ (تامر) يتوتر ويتصبب العرق منه، حتى إنه بلل أوراق العقود بعرقه المتساقط وناولني إياه.

وقال لي وهو يتألم بصعوبة بالغة:

– أرجوك الترياق، لم أعد أشعر بجسدي، يكاد بالكامل يغزوه السم، ويتألم: أرجوك. أغلقت حقيبة يدي.

– يا خسارة لم أحسب حسابا لذلك الموقف، فقد ابتعت ترياقا وأحدا فقط لا لشخصين والحب تضحية، ترياق وأحد وحبيبان، سأترك لكما الترياق هنا والمسدس أيضا، عسى أن يحصل على الترياق من يفدي حياته للأخر.

أغلقت الباب خلفي، وأنا أسمع صوت عراك وترجلت ثلاثة أدوار وذهبت لبيت خالي، وقبل أن أدخل هناك سمعت طلق عيار ناري.

سألت صفية أين (أحلام)؟ لقد قالت قبل ذهابي للعمل إنها سوف تأتي هنا، أرجوك يا سيدة (صفية) بعض القهوة.

ازدادت الضوضاء في مدخل البيت.

- سيدة (صفية) لا أريد قهوة، سوف أعود لعملي مرة أخري، وعندما تحضر أرجوك أبلغيها بحضوري.

- تحت أمرك يا (طارق) بيه.

خرجت وطلبت المصعد، حتى حضر ونزلت من البرج لأجد حشدا كبيرا من الناس، وعربتين: واحدة إسعاف فارغة وأخرى سيارة شرطة، بها زوجتي وعشيقها سالمان معافان شبه غائبي الوعي إثر المخدر، وتذكرت وأنا أنظر لزوجتي كلمات الحاج (جلال): يا (طارق) يا ولدي هذا نوع من الزيت الهندي، الذي يوخز الأعصاب كثيرا، يستعمل في حالات الهياج العصبي،

والتشنجات العضلية لحالات الصرع المزمن، مفيد وغير مضر ويبعد الله عنك كل سوء، خذ استعمله وقتها.

وكيف أوهمتهم أن لدي ترياقا لذلك السم وكان هو نفس الزيت لكن بقارورة أخرى، وكيف تركت مسدس صوت، واعتقاد زوجتي أنها قتلت عشيقها أو العكس لا أعلم من حاول قتل الآخر حين أطلقوا الرصاص الزائف، وكيف حضرت الشرطة بتلك السرعة، بناء على اتصال عم (محمد) لهم. على الفور اتصلت بعمي المستشار (حسين معروف) وشرحت له إنني كنت عند خالي، ووجدت زوجتي تخرج من نفس العمارة بقضية آداب في الطابق الخامس،

فقال لي بصوت ثائر:

- اتركها من الأفضل يؤدبها السجن والإهانة، أنا معترض على تلك الزيجة منذ البداية.

- والصحافة وأخبار المجتمع؟ فقط تخرج من المحنة وبعدها يتم التفاهم في إجراءات الطلاق بشكل مناسب.

تركت الموضوع بيد عمي وذهبت للمحامي الخاص بي وأعطيته الأوراق حتى يبدأ في جميع الإجراءات القانونية تجاه (تامر) وزوجتي وفي نفس اليوم استأجرت شقة في حي المهندسين، واتصلت هاتفيا بأم (عبد الله) مدبرة منزلي، حتى تنقل احتياجات زوجتي واحتياجاتها هي أيضا معها إلى تلك الشقة المستأجرة، وبما أن (تامر) قد اتهمني في النيابة بأنني دسست له السم وأجبرته على كتابة عقد بيع شقته، وبما أن المخدر اختلط أثناء فحصهم له عن نسبه المخدرات في جسده اعتبروه يهذي، ويحاول التملص من وجود زوجتي في منزله بهذيان فارغ ليس له دليل سوى كاميرات المنزل، لكنه لا يعلم أنني طلبت من عم (محمد) حارس البرج إيقاف التسجيل فترة بقائي في البرج، فتهاوت كل ادعاءاته في بئر عميق، وذلك بخلاف توصيات عمى العزيز المستمرة عليهم، أظهرت نتائجها لكليهما. عادت زوجتي بعد أن استلمتها من سراي النيابة، حيث لا بد من استلام الزوج الزوجة شخصيا في هذه المواقف، رثة المظهر، شاحبة الوجه لا تفارقها الدموع من فرط الأذى والإهانة وطبعا لم يستوص عمي العزيز في دس توصياته بالنسبة للإهانة، حيث أعلم جيدا بأنه لا يحب أمي وعائلتها، لن أذهب بها إلى منزل

الزوجية مرة أخرى؛ فقد نقلت كل أغراضها في اليوم ذاته إلى شقة المهندسين، أرسلتها هناك وفتحت باب الشقة وأخبرتها أن لها مبلغا من المال في غرفة النوم، وأبلغتها بأنني سوف أعود بعد أن تأخذ حمامها، أحضرت لها هاتفها النقال، وأوصيتها أن تتصل بي حينما تأخذ قسطا من الراحة. في تلك الفترة ذهبت إلى عم (محمد) حارس برج الزمالك وأرضيته بمبلغ من المال، ثم دار بيننا حوار بسيط وتساءل:

- كيف تمكنت من فعل ذلك، خلال تلك الفترة الوجيزة؟

فأخبرته عن شكوكي وخطة الحاج (جلال)، حيث نفذتها كما أوصاني، كما أنه كان في حقيبة يدي بعض العقود، استخدمت أحدها في شراء شقته أيضا حتى يظهر الحق.

- رحم الله السيد الوالد، كان له نفس العقل والحكمة في تدبير الأمور.

وبعد الدعاء لي مرارا وتكرارا، ذهبت منتظرا مكالمة من (أحلام)، انتظرت طويلا في سيارتي قريبا من ذلك المنزل حتى عاودت الاتصال بي،

وقالت لي بالحرف: أنا تحت أمرك.

قلت لها:

- أنا أمام المنزل بالسيارة في انتظارك.

نزلت وما تزال دموعها تنهمر منها، كلما مالت عيني إليها أجدها تنظر إلي حتى ذهبت بها إلى مطعم أنيق وبدأت بقولي:

- أحلام انظري إلي.

نظرت لي بانكسار عارم.

- أنا أعتذر إليك.

فزاغت عيناها من الدهشة.

- تعتذر عن ماذا؟

- أعتذر عن كوني الرجل الذي تسبب لك في الأذى والحرمان رغم معرفتي بأن علاقتك بدأت مع (تامر) من قبل زواجنا منذ وصولكم شقة الزمالك، ولكن حتى بعد الزواج مني لم أستطع فهم معني الزواج عن حب أو حتى وجود علاقة قوية تربط كلينا، فأنا لم أعرك الاهتمام الكافي، ولكن لن تسير الأمور دون عقاب،

بعد ثلاثة أسابيع سوف يأتي المأذون ويتم الطلاق بشكل رسمي. لقد تم طرد (تامر) من الشقة، وتسليمها للمالك الجديد الذى هو أنا، ورفعت عليك قضية شيكات بدون رصيد وأعتقد حتى اختيارك للأب عندما ولدتك أمك كان أيضا خطأ؛ فقد رفض دفع ما عليك من مستحقات، وأيضا تم إخطاره ببيع شقة الزمالك ووجب عليه إخلاؤها قبل بداية الشهر، لكنه حتما سيدفع ما عليه حتى لا يتم سجنه هو أيضا، وفي الأول والآخر والدتي عندما سمعت بالخبر أتصلت بي وقالت إن جميع الأوراق المستحقة من خالك تحت تصرفك الأن، ومن ثم أخطرت المحامي وأخذ من والدتي الأوراق ورفع قضية بكل المبلغ المستحق منك ومن السيد الوالد وفي خلال الثلاثة أيام القادمة ستعرض قضيتك الأولي وسوف يتم الحكم القضائي بطلاقك دون دفع أي التزامات من جانبي نهائيا وبذلك بدأنا من نقطة الصفر، والدك في ورطة مبلغ مضاعف لدفعه، وإلا يتم سجنك وسجنه بشيكات، وذلك بمعنى ضعف أرباحه عن السنة المنصرمة، بمعنى أنه سيبدأ من تحت الصفر، إن وجد للصفر طريقا، لا أخفي عليك قولا بأن تلك الشقة التي تعيشين فيها مستأجرة لمدة شهر فقط وسوف يتحتم عليك إخلاؤها قبل ذلك التاريخ، (أم عبد الله) نقلت كل

متعلقاتك من شقتي، بما فيه ذهب الشبكة فقط أما باقي الذهب ألذى أحضرته لك أعتقد أنه ينقص بحوالي ثمان مئة ألف وأعتقد أنه تم سرقته منك بطريقة أو بأخرى، وجدت أوراقهم لكني لم أجدهم وأنا وأنت نعلم أين ذهب ذلك المال المتبقي؟ لأنني عرفت أن الأستاذ ابتاع أسهما لشركة ملاحية جيدة، ليعيش فقط من ربحها وعمله لا يدر المال الكافي لمتطلباته وكانت شقته إرثا عائليا، من ممتلكات تم بيعها من قبل والده قبل مماته بسبب ديونه المتراكمة من القمار، وشاءت الظروف أن يقطن بذلك البرج بعد انتهاء ديون والده، بقت تلك الشقة باسم والدته قبل وفاتها، أعتقد الآن تستطيعون أن تبدأوا سويا من جديد، لقد أنهيت حديثي الآن وقلت لك على كل شيء أعرفه، هل لديك أي شيء تحبين أن أعرفه، أو أي شيء تحبين أن تعرفيه؟ ساد الصمت للحظات طويلة.

قالت لي بعين تملؤها الدموع:

– أنا الآن في نظرك ونظر المجتمع خائنة وقد تمت فضيحتي، وإن حلفت لك إنني ظلمت في ذلك فلن تصدقني، وإن صدقتني

فلن يصدقني المجتمع، ألا توجد وسيلة للعفو أو الغفران؟ كلنا نخطئ وكلنا نتعلم من أخطائنا.

وأنا أنتظر تجفيف دموعها حتى أعطيتها منديلي.

- (أحلام) كلانا نعرف ذلك جيدا، عندما يخون الرجل يخون بدافع الشهوة وفراغة العين، إنما عندما تخون المرأة ذلك معناه إما أنها تكره زوجها أو أنها لا تستطيع التملص منه وتعشق غيره، قولي لي الآن إن شهوتك ثارت عليك سنة كامله تذهبين له برضاك، هل هذا ممكن؟ (أحلام) يظل الخطأ خطأ.

- ذلك صحيح وأنا أستطيع أن أغفر للخطأ، ولكن هل من الممكن أن أغفر للحب الذي ملأ قلبك له بالرغم من كوني زوجك المغفل، علمت بأن الموضوع لم يبدأ بعد زواجنا وإنما بدأ من وقت نقلكم لتلك البناية، تحديدا بعد ما أعطتكم والدتي تلك الشقة خوفا من التشرد وليتها لم تفعل، صدقيني أنا لست نادما على شيء؛ إن ما يحزنني أنك لن تستطيعي رؤيتي كرجلك في تلك الحياة، لقد اخترت الزواج ببطاقة ماستر كارد، وها أنا أسحبها منك، لقد طلبت لك العشاء وقلت للنادل ألا يحضره إلا عند مغادرتي، سأمر عليك خلال ساعة لأوصلك للبيت وستكون

هناك مرة واحدة سأراك فيها وبعدها لن تكون لنا أي علاقة من أي نوع، عندما تنتهين من طعامك ستجدينني في الخارج أنتظرك، الفاتورة مدفوعة بالكامل.

لم تحبذ أحلام فكرة الطعام فغادرنا سويا أيضا، أوصلتها إلى المنزل المستأجر دون كلمة واحدة وكأننا صنمان في متحف، لكن الفرق أنها ظلّت معلقة النظر بي وأنا لا أنظر إليها، وقبل نزولها أرادت سؤالي، فهمّت تسأله بصوت خافت:

- لماذا أجّرت منزلا وتراعي مشاعري واحتياجاتي حتى الآن؟

- لأنك ابنة خالي ولا بد من وجود شخص يقف بجانبك؛ لأنه من الآن وصاعدا لن يقف بجانبك إلا الشخص الذي يريد منك شيئا ولست أنا هذا الشخص، فنزلت من السيارة بعين يملؤها البكاء.

مرت ثلاثة أسابيع ببطء شديد وعندما حان موعدنا للطلاق، محامي العائلة برفقته المأذون الشرعي واستغربت (أحلام) لوجود المحامي (فوزي البنا)، وكان من المفترض إن يحضر والمأذون فقط! حضرت بعدهم بقليل حتى لا أحضر قبلهم ونكون في

البيت وحدنا، ثم فتح المحامي الملف وأعطاها بعض الأوراق الأصلية وبعض النسخ ظلّت معه وقال:

- وكلني الأستاذ (طارق) لأكون وكيل أعمالك ومحاميك الخاص رغم رفضي وإلحاحه، وأتمنى أن تجدي محام بديلا في غضون فترة وجيزة؛ حيث لا يصلح أن أكون وكيل الخصم. (طارق) بيه تنازل لك في المحكمة عن المبلغ المراد تحصيله من شيكات بدون رصيد وهذه قيمتها في الورق الأول واختار بنكك ليضع نفس المبلغ به دون زيادة أو نقصان.

- لا أفهم، لماذا أعطاني كل هذا المبلغ؟

- على سبيل مؤخر صداق برغم إجازة المحكمة بعدم دفع جنيه واحد حتى، إلا أنه أصر أن تأخذي كافة حقوقك وكأن شيئا لم يكن، وحضرتك تفهمين قصدي طبعا. المبالغ المستحقة من والدك لا تغطيها أي أصول إلا شركته، فتنازل الأستاذ (طارق) عن باقي المبالغ للوالد بشرط أن يتم نقل الأصول التي باسمه لك من الشركة وما يتعلق بها، فنظرت لي بعيون يملؤها الألم...

- لماذا تزيد عليَّ القهر والشروخ؟ أنا أحسست بخطئي وعرفته.

- ألم تحس بخطئك لعدم احتوائي يوما؟

- الفاكهة جاءت من السوق تالفة، لم تتلف في منزلي، لم أكن أريد أن أقول ذلك الكلام وأعتقد الرسالة واضحة.

وأكمل المحامي كلامه:

- وختاما نقلت ملكية شقة الدور الخامس بالزمالك باسمك لأنها لا تخص الأستاذ (طارق) في شيء، تستطيعين إهداءها لمن شئت مرة أخرى.

نظرت لي نظرة استعطاف وقالت:

- (طارق) أرجوك لا أريد الطلاق، فقط اتركني على ذمتك وتزوج بأخرى، وأنجب أطفالا.

- أطفالي الذين قتلتِهم في رحمك أم أطفال (تامر).

رميت عليها اليمين ثلاثا وذهبت حتى لم أنتظر المأذون أن باقي أوراقه، وكلفت الأستاذ (فوزي) المحامي بإنهاء كل شيء ونزلت وقتها حرا من أي التزامات ناحيتها، وجريحا كأسد في معركة تكالبت عليه الضباع الضالة حتى سقط، وسعيدا وفي نفس

الوقت تائها لا أعلم ماذا حلَّ بي؟ انطلقت بسيارتي لا أعلم أين أتجه أو أذهب وطالت رحلتي لخارج القاهرة إلى أين أنا ذاهب؟ لا أعلم، لكنني أعلم شيئا واحدا لم أظلم ولم أُظلم، ولا أعلم لماذا الآن بالتحديد، أردت الانفراد بنفسي قليلا، وحتى إنني لن أتمتع بإجازة منذ زمن بعيد، ربما منذ تزوجت!

البرازيل...

استيقظت (باتشي) من نومها على صوت الطيور المميز بأرقى أحياء (ريو دي جانيرو)، تتأوه وتتشقلب بشكل طفولي غير منتظم، تنظر إلى هاتفها النقال، ثم تحاول النوم مرة أخرى، بوضع انزعاج تشيح الغطاء عن جسدها وتدخل المرحاض، تخرج، ترمي المحارم دون اكتراث لشيء، وتنادى: (صوفيا)، (صوفيا). تهرول الخادمة إليها مسرعة: نعم يا أنسة (باتشي).

تقول لها بعنف وعصبية:

– أين ملابسي؟ كيف سأذهب إلى الجامعة الآن؟

– ملابسك منذ الصباح الباكر في خزانة الملابس.

– أخبرتك أن تضعيهم على حمالة الملابس. ها قد ناديتك دون جدوى، حسنا، هل استيقظ والدي؟

– نعم وهو في الردهة يحتسي مشروبا، وقال لي ألا أخبرك.

أخذت الثلاث درجات بين غرفتها والردهة على عجل، ودخلت الردهة متوازنة.

قالت بصوت شجي:

– صباح الخير يا أبي.

يعتدل في قسوة ويخفي المشروب أسفل المقعد الجالس عليه ويتنحنح: صباح الخير ابنتي الحبيبة.

تقول بدلالها المعهود:

– معقول ذلك؟ (ريتشارد روبسون) كبير المهندسين ورئيس إدارة شركة (هيلز) يداري المشروب أسفل مقعده.

قال لها بتوتر واستنكار مبالغ فيه:

– مشروب ماذا؟ ما هو؟ أين ذلك المشروب؟

انقضت على الأرض وقالت:

– ما هذا؟ (وهي تمسك بيديها كأسا من الويسكي)، هذا هو ما أتحدث عنه.

ارتاب من نظراتها وحاول تغيير الموضوع:

– استيقظت مبكرا اليوم؟

- أرجوك يا أبي لا تغير الموضوع.

(قهقه ضاحكا) وقال:

- لم تتركي شيئا خلفك كأمك رحمها الله.

ثم أردف بهمهمة كانت كاتمة على أنفاسه.

- ألم ينهك الأطباء عن احتساء كأس واحد من المشروب؟

ثم احتضنته برفق وحنان بالغ وأردفت قائلة:

- أبي لا أريد أن أفقدك كما فقدت أمي.

فوضع يده على رأسها بحنان الأبوة وقلق بالغ:

- لا تخافي يا عزيزتي أنا بخير، لا تقلقي بتاتا.

جلست عند قدمه وقالت:

- أبي أرجوك.

- للأسف يا صغيرتي لقد تمكن مني ذلك اللعين حتى صرت لا أستطع الاستغناء عنه.

- عدني ألا تحتسي مطلقا أرجوك.

فهمهم بتأوه: أعدك، أعدك.

– ألا تريد أن تحضر زفافي وتأخذ يدي ونسير سويا على السجادة الحمراء؟ وعندما تريد تسليمي للعريس أرفض وأتشبث بيدك.

لم يرد عليها تماما تلك اللحظة، ثم أردفت:

– أبي، أبي ألا تريد ذلك؟ هه تريد أن تتخلص مني؟

ثم نظرت لأعلى لتجد أباها مغمض العينين ساقط الرأس لا يتحرك تماما، صرخت في عصبية: أبي، أبى. ولم يتنفس؛ لقد تركها، تركها للأبد ولن يعود.

الإسكندرية...

قادتني قدمي إلى الإسكندرية، لدينا فيلا صغيرة في "حي المعمورة"، وحارسها عم (صلاح) يقطن هناك طوال السنة، مرت ساعات بين اتصالات العمل واتصالات والدتي، أحسست فيها أنني غير طبيعي تماما؛ حتى هذا السن ليس لي أصدقاء سوى بعض زملاء الدراسة فقط وانتهت معرفتي بهم من فترة بعد وفاة والدي، ومعارف العمل فقط مصالح، ومجاملات مصالح، زيارات مصالح، حفلات مصالح، فقدت في حياتك الصديق، والآن تفقد زوجتك وغدًا تفقد نفسك، ماذا تثبت للعالم؟ أنك قادر على تحمل المسئولية؟ ممتاز، وتخسر حياتك وتخسر نفسك. متى أخر مرة استمتعت وسرقت وقتا لصالحك؟ لا يوجد. لا أعاقر الخمر أو أدخن المخدرات! أول امرأة ألمسها كانت زوجتي، ماذا ينقصني؟ كثير من الزوجات يتمنين زوجا يشبهني، لماذا حظي عاثر؟ ولماذا الآن أعاني؟ زادت غشاوة عيني ورحت أبكي، واتخذت القرار أن أخون زوجتي. يا للغباء؛ لقد طلقتها! سوف أشرب الخمر وأقضي وقتا رائعا، أتذكر يوم احتسيتها مع أصدقائي لم أحبها تمامًا، أفتقد الذهاب للتمرين؛ إنه شيء يسعدني جدا،

وأشعر أنني أفضل حالًا. ذهبت لأقرب نادٍ رياضي أعرفه في "الإسكندرية".

أخذت تمرينا جيدا وفي أخر رفعة صدر تأوهت طلبًا للمساعدة، من شخص قريب، فوجدت رأس أنثى أمام وجهي، تساعد في رفع الثقل معي، حتى التفت أشكرها، كانت في آخر القاعة. ذهبت بعد انتهاء تمريني لأشكرها، فتاة هيفاء في أواخر العشرينات، ذات قوام رائع ووجه ملائكي، اقتربت منها وقلت:

- أشكرك على مساعدتك لي.

- أبدًا إنه واجبي.

مدت يدها وأردفت: (سيلين أنصاري) مدربة في النادي.

وقمت بممازحتها بأسلوب مداعبة:

- ومالكته أيضا.

بصوت منخفض: كيف عرفت؟

لا أدري كيف اشتعلت الفكرة في مخيلتي وقتها؟ وماذا أفعل؟ لا أعلم.

لكنني فعلت أكثر من ذلك وقلت لها:

- وأعرف أكثر من ذلك بكثير.

- لا عليك ماذا تريد؟ (بصوت منخفض دلالة على الأهمية).

- شيئا بسيطا.

- ماذا تقصد؟

- مكانا هادئا ونتحدث بهدوء.

- متى؟ وأين؟

أحسست بخوف هائل عندما نطقت تلك الكلمة؛ وراءها شيء كبير، أكبر مما كنت أمزح، أحسست أن الأمر مريب، ورغم ذلك أعطيتها عنوان فيلا "المعمورة" دون تردد.

- التاسعة والنصف. وذهبت.

خرجت لا أدري إن كنت أضفت لمتاعبي متاعب أخرى، أم زادت مهازل حياتي مهزلة أكبر! أم إنني بدأت في التخاريف؟ هل وقعت في عصابة؟ أم إن اسم (سيلين أنصاري) غطاء؟ هل هي جاسوسة؟ أم إنها صدفة؟ والموضوع بالكامل لعبة ابتدعتها

في رأسي؟ دقت التاسعة وقلبي يدق أكثر بكثير من معدله في الثانية الواحدة، ما الذي أوقعت نفسي به؟ من الغباء اصطياد عصافير من ركن الوحوش في الغابة. أثبت لي أنك لست زوجا فأشلا فقط؛ أنت غبي أيضا. أول محاولة لك بأن تكون سعيدا.

دق جرس الباب الخارجي ففتح عم (صلاح) مسرعا وجحظت عيناه مما رأى! فتاة هيفاء في أواخر العقد الثاني من العمر، صاحبة قوام رائع وثياب مثيرة تقف عند الباب بجوار سيارتها، وتسأل عن (طارق) ابننا العزيز الذي لم يعرف للفتيات بابا، ولا للملذات طريقا، هل فقد عقله؟ تدخلت لأنقذ الموقف، وأستقبل الضيفة غير المعلوم سبب زيارتها. تدخل الفيلا غير مكترثة سوى بالنظر إلى جدران المنزل القديم، ذات الذوق الارستقراطي من خمسينيات القرن الماضي، وتسألني:

-هل هذا منزلك؟

- نعم إنه يعود لجدي ومغلق منذ فترة طويلة جدا وبالكاد نأتي هنا لزيارة أقاربنا.

- أعرف أنك لا تعرف عني شيئا تماما، وفي الحقيقة لفتَّ انتباهي في الصالة وعرفتك فورا، وعرفت سبب قدومك للصالة، أنت (طارق الدمنهوري) صاحب سلسلة مطاعم (أبو طارق)، هل هذا صحيح؟

- نعم أصبت.

- بعض الجرائد الصفراء ليس لها حديث سوى قصتك، وكان من الممتع أن أتعرف إليك، أنا (أميرة بسيوني) صاحبة ومديرة سلسلة نوادي هوم جيم.

- ماذا عن (سيلين أنصاري)؟

- هذا مجرد اسم للعملاء. غريب؛ الناس تحب الشيء الحريمي والغريب بنفس الوقت تعتبره مثل اسم مستعار لاجتذاب الزبائن، وكما ترى والحمد لله المكان يعج بالرواد ما بين اليومي والشهري والسنوي.

- رائع، أعجبني أسلوب التفكير جدا.

- وماذا أعجبك أيضا؟

قلت لها دون تردد:

- أنت.

- ميزة رجال الأعمال عدم المراوغة وإضاعة الوقت.

- وماذا تعرفين عني أيضا غير الفضائح؟

قالت وهي تتجول في الغرفة بدلال:

- رجل أعمال، رياضي ناجح، صاحب أكبر سلسلة مطاعم، عن عمر لا يتجاوز الثلاثين، لا خمور ولا أصدقاء، منعزل ومحب للعمل.

ثم أكملت في تعجبٍ حيّرني: لم تجد لذة في تلك الظروف أو الخروج من أزمتك سوى بالرياضة؟

- أنا لا أحب السهر والمراقص والملاهي الليلية.

فقربت شفتيها من فمي وهي تهمس: وماذا تحب؟

ويفوح منها عطر ساحر يؤثر القلوب، لم أنتبه لما أفعل سوى أنني طبعت قبلة عفوية على شفتيها.

- أعتذر، أنا، أنا لا أدرى...

وجدتها تقترب مرة أخرى وقبلتها مجددا. شقية، عنيدة، قوية، ناعمة، مثيرة، حادة، وهادئة، كلامها وهي تبتسم تحبها، وهي عابثة غريبة الأطوار تحبها. أثارت في قلبي حبَّ الدنيا بنومها ووضع يدها على وجهي وجسدي، جدا إنها ليست طبيعية، تحس قليلا أنها مُدرَّبة على ما تفعل، أو كأنها تُسمِّع ما حفظته حقيقة، لم أكترث بالشكوك ولم أكتف منها بممارسة الجنس معها بشغف، ثم أدخل الحمام وأعود أكثر نشاطا عندما أراها، والغريب أنني وجدتها أطاحت بغطاء السرير! فسألتها مبتسما:

- لماذا؟

- امتلأ الغطاء عرقا وضايقني جدا.

لم أكترث، فلها نظرة تجعلك تنسى مفروشات المنزل بالكامل، ونمنا واعتقدت أنِّي لا أريد أن أنام، أردت أن أنظر إليها طوال الليل، خرجت إلى المطبخ أحتسي القليل من عصير البرتقال، غلب عليَّ تطفلي فذهبت نحو حقيبة يدها ونظرت داخلها، لم أجد شيئا مهما، فراودني هاتفها فنظرت به وفتحت قائمة

المكالمات، نظرت بها: م/ حسين معروف مكررة أكثر من مرة واتصال لا حصر له أمس واليوم وقبل حتى دخولها إلى المنزل! أغلقت الهاتف ووضعته في حقيبتها، ودخلت غرفة نومي يعصرني الألم، وجدتها في ثبات عميق، فاخترت ألا أقول لها، حتى أواجه عمي العزيز بما حدث، رغم أنني كنت ممنونا لها على ذلك الوقت الجميل، إلا أنني علمت أنها كانت فقط أداة عمي العزيز للتسلية وخوفه عليَّ من الوقوع في براثن أخرى مشكوك بها، شكرا لها على ما فعلته وحزين على سذاجتي. صحوت من نومي فلم أجدها! أثر الحزن داخلي، لا أعلم هل كنت أريدها يوما آخر أم أنني كنت أريدها أكثر من ذلك؟ طبعت على مخيلتي نظراتها وعطر فمها، تمنيت لو انتظرت قليلا وإن كان هذا عملها لأبقيتها، ولكن من الواضح أن لديها تعليمات تُنفَّذ فقط، أخذت سيارتي ورحلت إلى القاهرة.

ها قد فاتني الكثير، عودتي للعمل كانت قوية جدًا ومؤثرة من هنا لهناك، زالت أي ذكرى تعتصر قلبي وفي لحظات الهدوء والسكينة أتذكرها، أتذكرها بكل نظراتها لي، أتذكر كل نظرة لم أرها يومًا في عين (أحلام)، وإن كنت لا أحبها لكنها كانت

زوجتي، لم أشعر يوما أن (أحلام) أحبتني أو أعجبت على الأقل بي، نعم أذكرها جيدًا، ضحكتها تزلزل الأرض وتشرق في السماء كنور الشمس، وتضفي على الليل ابتسامة قمر. طردتها من رأسي في تلك اللحظة، ولا أدري لماذا أتذكرها، لم تكن إلا أداة استعملها عمي فقط لتخفيف آلام وحدتي، لا يصح ذلك الوضع ولا يفيد التفكير فيها بشيء، وعدت للشرود؛ يوم واحد جعلك بذلك النشاط والحيوية، يوم واحد منذ زواجي لم أخذ بها إجازة طويلة. وترعرعت الفكرة في رأسي، كطفل ينمو في أحشاء أمه، لماذا لا أكتسب معرفة جديدة، لحظات من الحياة؟

وعقلي التجاري يرفض الفكرة تماما؛ غير معقولة وغير مقبولة، سأنفذها.

اتصلت ب (مجدي) وكيل سفرياتنا لمقابلته، حضر، وسألته سؤالا واحدا:

– ما أكثر دول السياحة متعة وإثارة؟

قال بطريقة حديثة تتحول إلى خبرة واسعة:

– تايلاند، البرازيل، أمريكا الشمالية، هولاندا، جنوب إفريقيا.

- أنا لا أريد خريطة العالم، فقط أريد أجملهم.

- هولاندا، والبرازيل، وتايلاند.

- نبدأ بتايلاند وننتهي بالبرازيل.

- ماذا تقصد؟ هل تريد رحلة تبدأ بآسيا وتنتهي في أمريكا اللاتينية؟

- نعم أريد ذلك وبشدة.

لم أكترث لشيء كالماضي... ولم أحسب كل خطوة أخطوها كسابق عهدي، فقط ما يدور بخلدي أنفذه في الوقت والحال. ذهبت لأمي، وقلت لها:

- كل شيء تحت تصرفك الآن، بتوكيل رسمي عام كنت قد جهزته لك سابقا، في حالة حدوث أي شيء لا قدر الله.

قالت لي في حزن واستنكار:

- لماذا يا ولدى أدامك الله؟

- اسمعيني: أولا تلك الأوراق تجعلك حرة التصرف في كل شئوننا بتوكيل رسمي عام.

- والسبب؟ لماذا تحضرها لي الآن؟

كانت معي حقيبة في يدي، قلت لها وأنا أحملها وأغادر:

- سوف أطير.

- ماذا تقول؟

- إنني سوف أسافر يا أمي، أريد أن ألحق من الحياة ما أتعلمه وأستمتع به، أمي هاتفي سيبقى مفتوحا لتلقي أي اتصال وأي استفسارات عن العمل، (فوزي) المحامي سينجزها.

وقبّلت يدها بسرعة.

اتسعت عيناها لقولي وقالت:

- أين أنت ذاهب؟

- سألف الكرة الأرضية، ثم أعود.

اندهشت أمي لما قلت، لكنها ابتسمت ابتسامتها الحانية، وقالت:

- رافقتك السلامة يا بني.

ورحلت دون أن أنظر خلفي، ولأول مرة ينتابني شعور وكأنني طائر حر من جميع المسئوليات، لا أكترث لشيء ولا أتحمل أعباء شيء، ولا أفكر في شيء، فقط المرح واكتساب صداقات، حياة أخرى، أعيش، نعم أعيش كإنسان ولست كآلة للعمل فقط. وصلت بالليموزين المطار، إلى طائرتي الخاصة، حيث وجدت مضيفة الطائرة بانتظاري، وك(مروان) يلقي عليَّ التحية بابتسامته الباهتة، ويقول:

– دقائق وسوف نأخذ الإذن بالطيران ونبدأ الرحلة.

– لماذا لا تبكر في عمل تصريحك قبل قدومي؟

ثم--- انطفأت الكلمات في فمي وتذكرت أنها ليست رحلة عمل، إنها إجازة ولا ضرر في دقائق أخرى، نظر لي مندهشا حيث تحشرجت الكلمات في فمي وقلت:

– دعنا ننتهي من ذلك.

تايلاند بلد لا تنام...

بدأت من تايلاند منذ وصولي مطار بانكوك، مطار (سوفارنابومي) الدولي، حيث كأنك قمت بزيارة كل مدن العالم، جميع الجنسيات بكل لغات العالم تسمعها في دقيقة واحدة، لا تميز بين عربي، فرنسي، كوري، أمريكي، استرالي، هندي، تعج بالمسافرين من كل أنحاء العالم، شهر أبريل الناس تقول إنه أفضل شهور العام لزيارة تلك البلد، لذا الزوار بكثرة، إحساس غريب لم أختبره من قبل؛ تواجدك في بلد غريب، سافرت تقريبا إلى جميع الدول العربية لم أشعر بغربة إطلاقا سوى في وقتي هذا، شعور مختلف.

وصلت للفندق ظهرا (اسيام صيام) ارتميت لنوم عميق، تسع ساعات من السفر، وقد أنهكت جسديا بالكامل، استيقظت عند التاسعة لأتجول في شوارع "بانكوك"، المباني قديمة، والنظافة مقبولة، وبها أماكن تجدها رثة جدا، الناس بسطاء إلى أبعد الحدود، تمتلئ الشوارع بكافة الاحتياجات، الملابس والأطعمة الغريبة على قارعة الطريق بأبسط الأسعار. لم أتعود أن أسير هائما في الطرقات هكذا دون دليل أو من دون جدول مواعيد

مسبق حتى لأوقات الوجبات. لوهلة أحسست وكأنني طفل ضائع من أمِّه، شعور غريب؛ من اليوم الأول ينتابني الملل، أنا قد حضرت للمتعة هنا ولست قادما للعمل، تمتع بوقتك كما تشاء، هل أذهب إلى الفندق وأسأل عن الصالة الرياضية؟

وتوقفت في منتصف الطريق، وكأنني شخصان أحدهما يقول: يسار، والآخر يقول: يمين. حيث ستنفجر رأسي، وفجأة أحسست بالجوع الشديد، وافق الملاك والشيطان اللذان في رأسي على هذا الاقتراح؛ حيث أعتقد أن كليهما جائع. أكملت خطواتي إلى الفندق وسألت أحدهم عن مطعم عربي حلال، قيل لي بأن هناك شارعا يسمى شارع العرب، حقا ابتهجت؛ يوجد في (شارع العرب) الكثير من المحلات العربية، من جميع الأقطار، لا تحس بغربة تماما، كل ما تريد بأرخص الأسعار: مشاوي، طواجن، مأكولات شرقية كاملة، بأيادٍ نظيفة وعمل مستمر، الاندهاش يصيبني كلّما تجوّلت أكثر! حيث إن مهند يبيع أرقى شطائر شاورما تأكلها في حياتك، ولا تنسى طعمه مطلقا، ولا تنسى نظرات الناس إليك أيضا، حيث سألت مهند بعدما ابتعت تلك الشطيرة للعشاء:

– لماذا ينظر لي الناس بغرابة؟

– لا يعترفون بالخبز هنا؛ يعتقدون أنه يزيد الوزن ولا يحبون الدقيق كثيرا في أكلاتهم، يحافظون على صحتهم لأبعد الحدود، ولا يخافون إلا من السكَّر والدقيق.

شكرته على المعلومة وذهبت حيث يكفي ذلك القدر اليوم، تغلق المحال التجارية الساعة الثانية عشر مساء، وتبدأ الحياة المثيرة من ذلك الوقت حتى الصباح. لا يبقي في الطرقات سوي عربات بيع الخمور، مكتوب عليها بلغة إنجليزية واضحة (بانكوك مدينه لا تنام) لا تذهب بعيدا، الليالي الحمراء، لا خجل لا شعور بالذنب، أي كان ما تفعل فمرحبا بك، البلد رخيصة، وجودك في أي مكان محل ترحاب الجميع. اشترِ أي شيء واحصل على المحل مجانا! يبعن النساء أجسادهن في طرقات، تستطيع الحصول على فتاة فقط بسعر زهيد في اليوم الواحد، ويتزايد السعر من حيث الجمال أو العذرية، قادتني قدمي إلى أحد الأماكن الصاخبة: نور وزينة وكأنه شهر رمضان قد حلّ فجأة وأنا في "تايلاند"، فألقيت نظرة على الداخل، وجدت شابا يرحب بي بحفاوة بالغة غير معتادة ويشير إلى شبّاك التذاكر حيث

سعر التذكرة، التذكرة بعشرين بهتا فقط، ابتسمت أيضا للشاب خلف ذلك الزجاج وأعطاني التذكرة، وقفت أمام ذلك الشاب حيث أشار لي برفع يدي للتفتيش وفعلت، أشار إلى الباب ودخلت، ضوء خافت أزرق وغرفة تمتلئ بالدخان، وناس كثيرين جدا، وجدت كرسيا على منضدة مزدوجة فجلست عليها، البشر في الداخل كالنمل، والغريب أنني أعرف أن الملاهي الليلية تعج بفتيات الليل، ولكنني لا أرى أيا منهن هنا؟

تقدّم إلى الطاولة شاب واضح من زيه أنه نادل المكان، أشار لي بالتذكرة، فأعطيتها له، قال:

- ماذا تود أن تشرب؟

- أعطني أي عصير طازج من فضلك.

أشار لي بوجهه بعدم توفره لديهم.

- هل أجد أي مشروب من مشروبات الطاقة؟

أشار بعدم توافرها أيضا! فسألته: ما المتوفر؟ رصَّ كلاما كثيرا إلى أن وصل إلى النقطة الوحيدة التي فهمتها، ليمون.

- نعم أحضر الليمون.

لم أرتح لوهلة إلى المكان بذلك الكم الغبي من الدخان المتزايد، وقلت في نفسي: أشرب الليمون وأغادر. نظرت إلى منتصف الصالة، حيث وجدت شابا يرقص عاريا، ضحكت كثيرا وقلت في نفسي: لقد أزاحت الخمور ذاكرته وعقله. أحضر ذلك الشاب العصير، وشرعت في تناوله، مذاق الليمون لكنه ليس ليمونا! حاولت برشفة أخرى تذوقه؛ حيث من الممكن أن يكون الخطأ نابع مني أنا، وفي الأساس زجاجة صغيرة وستنتهي. أحسست بغرابة شديدة؛ الحياة هادئة رغم صخبها، وارتحت أكثر فأكثر على المقعد، وأحسست أنني مستلق لا جالس، تغلق عيناي رويدا رويدا، ولا أتذكر كم بقي في الزجاجة؟ وشرعت في بل ريقي الناشف بقطرات أخرى، فلم أجد في الزجاجة شيئا، حضر النادل أمامي يقدم مشروبا آخر لي، أشرت له بالانخفاض حتى أستطع سؤاله:

- ما مكونات ذلك المشروب؟

- إنه فودكا بالحامض.

أشرت له شاكرا برأسي مع ابتسامة باهتة حاولت الخروج من بين شفتي، كنت أتمنى أن تصله ضربة على رأسه ولكنها راحت في الهواء، وما زاد الأمر سوءا هو أنني وجدت شابين استقلا الطاولة التي أمامي يقبلان بعضهما!

أفقت إلى نفسي وأنا نائم وقلت لربما حلم، وشرعت في النظر حولي لكن بعين أخرى، ليست بعين حسن النية تلك المرة، لقد ازدادت سوءا نيتي حينما وجدت الكثير من الشباب يراقص بعضه، والشاب المجنون الذي كان يرقص أصبح عاريا تماما، وانضم له شاب أخر عاري، أنظر هنا وهناك: أين إنا؟ وكيف دخلت إلى هنا؟ هل وصل الحال بي إلى تلك المرحلة؟ أم أنني كنت في ثبات لسنوات؟ لا أعرف ماذا يحدث في العالم حولي! كيف يفعل ذلك الشخص هذا؟ وأنت يا هذا لماذا تنظر لي؟ عيون من حولي تغيرت، وجدت نظرات مختلفة وكما هائلا من البشر ينظر لي، أم أنني سكرت ولم أفهم ما حولي؟ حاولت الانسحاب بهدوء من القاعة والبعض مازال ينظر لي، نظرات مختلفة، أحسست أنني أريد التقيؤ، لكنني تشبثت بإرادتي حتى خرجت من ذلك الماخور العتم وتلك الليلة الغابرة، وقلت: إن

وصلت إلى الفندق بسلام سأنام فورا لأتخلص من ذلك الإحساس الغريب ألذى أشعر به الآن، وإن لم أجد شيئا يدفعني للبقاء سأغادر هذا البلد. كادت تصل للواحدة والنصف وأنا غير مستوعب ماذا حدث وهل أنا أسير أم أنني طائر؟ مع لفحة ذلك النسيم العليل، أتمنى لو كان لي جناحان أطير بهما، حول تلك الطبيعة الخلابة، والمشهد الرائع، على ضفة النهر، وتلك الأضواء المتلألئة في خفوت بين الضفتين. وجدت نفسي أردد ضفتين، ضفتين، شطين، شطين. وأدندن مع حالي لحالي بين شطين وميه عشقتكم عينيه يا غاليين عليا وسكت، لم أرد أن أكمل وأقول: إسكندرية. توقفت وعرفت أنني سوف أتذكر إنسانة واحدة بالكاد فارقت حياتي، فارقت ذاكرتي ومخيلتي، فأشحت بوجهي يمنة ويسرة عسى أن تسقط تلك الفكرة من رأسي، وإذا بالهاتف يرن؛ إنها أمي، ماذا أقول لها؟ حاولت الاتزان وأنا أرد على المكالمة وبهدوء:

– مساء الخير يا أمي.

– مساء الخير يا (طارق)، لأول مرة لا تتصل بي، لقد قلقت كثيرا، كيف كانت رحلتك؟

- مرهقة جدا يا أمي.

- كم الساعة عندك الآن؟

- حوالي الثانية.

- هل أيقظتك من النوم؟

صدرت مني ضحكة غير مفهومة السبب إثر السكر، ورددت بعدها:

- أنا مستيقظ يا أمي، مستيقظ، لا تهتمي.

- الله يحفظك من كل شر، حافظ على نفسك يا (طارق)، كم سيدوم بقاؤك هناك؟

- لقد أحسست بالكآبة وإن لم أجد شيئا مسليا سوف أقفز إلى المستوى التالي، وضحكت أيضا ضحكة دون معنى.

- استمتع بوقتك.

- شكرا يا أمي، تصبحين على خير.

وانتهت المحادثة بسلام دون وقوع خسائر. استمرت قدمي في السير وأنا أنظر إلى لا شيء، وجدت نفسي أمام الفندق مباشرة، لكن النوم قد ذهبت آثاره من عيوني، وحلّ محلها يقظة. صعدت إلى غرفتي، ما إن وجدت السرير فقط رميت ظهري وبنفس المكان الذي سقطت به نمت. صداع في رأسي، لا أستطع أن أفتح عيني، السابعة صباحا.

كيف هذا؟ "أريد أن أستيقظ متأخرا"، نصف النهار مثلا! ماذا أفعل الآن؟ لا يسمح لي عقلي بالنوم لفترة أطول من ذلك، نظرت جانب السرير وجدت أرقام الخدمة، اتصلت بها وسألت عن الفطار العالمي وأعطيته رقم الغرفة. بدأت في تجهيز حمامي السريع؛ حتى يهدأ ذلك الصداع الغبي، وأرتدي ملابسي لأتجول في المدينة قليلا. انتهيت من حمامي ودخلت الغرفة، وجدت الإفطار أمامي جاهزا، تناولت القليل من الزبد بالمربى بنهم غير طبيعي رغم غرابة نوعية المربى إلا إنني وجدتها جيدة، ولا بأس بها، ارتديت ملابسي على مهل وهذه ليست طبيعتي تماما، بحثت عن قميص واحد يكون مزركشا أو يكون به أي خطوط، اكتشفت أن كل قمصاني سادة، جميعهم يخصون البدل الخاصة

بي، هل اشتريت ملابس من قبل؟ كانت مهمة والدتي، وبعدها أصبحت مهمة (أحلام)، طالما قالت لي: هل يمكنك يوما ارتداء الكاجوال أو شورت صيفي؟ وكنت أضحك لحديثها كثيرا، والآن اكتشفت أنني فيلم أبيض وأسود لشكري سرحان، فقط يرتدي طوال أفلامه ٣ ألوان لا يتغيرون: الأبيض والأسود والبيج، هل أصبحت معتقداتي تسيطر لتلك الدرجة على أفعالي؟ كما إنني أحب ذلك، لا يهم ما يظنه الناس، المهم ما أظنه أنا. جبت شوارع المدينة وهي نسبيا خاوية لا توجد حفاوة الأمس تماما، لا توجد تلك الابتسامات المفرطة، لا يستيقظ السياح في ذلك الوقت، وماذا يفعل سائح الساعة العاشرة صباحا في الطرقات؟ أحسست بكسل فظيع؛ لأنها ليست عادتي أن أبدأ اليوم دون رياضة، قضيت وقتا ظريفا جدا أمام النهر أراقب الصيادين وعملهم المرهق، وأتأمل جمال الطبيعة، غريبة لا يضيع الوقت تماما؛ أهي ساعة أم سلحفاة؟ سمعت صوتا خلفي يردد: لا تقلقي، باقٍ أقل من أسبوع وسأكون هناك بإذن الله. أدرت وجهي إليه ونظر لي وهو يقول: إلى اللقاء، إلى اللقاء ...

نظر لي وقال:

– مصري أليس كذلك؟

– نعم، مصري.

تقدم وهو يمد يده: (كارم حسن). مددت يدي أسلم عليه:

– (طارق الدمنهوري)

– "مرحبا في تايلاند".

– أشكرك.

– كيف وجدت تايلاند؟

– كئيبة ورتيبة ومملة.

نظر لي بتعجب وقال:

– كيف ذلك؟

– مساء أمس أردت الترفيه عن نفسي ودخلت ملهى ليليا، واتضح أنه ملهى للشواذ. أردت شرب عصير عادي، قدموا لي الفودكا مع الليمون، حتى إنني أفكر أن أرحل غدا.

– أنت في إجازة، أليس كذلك؟

- بالطبع إجازة، وأنت؟

- أنا أعمل غواصا، وأنا هنا لتجديد شهادات إلزامية لعملي، ولأنهي امتحانا وأعود لمصر بإذن الله. انظر هل حضرت بناء على دعوة، أو شركة سياحية؟

- لا.

- أنت تحتاج إلى مرشد أو مرشدة (وغمز لي بعينه) أو شركة سياحية تتعاقد معها وتأخذك في أرجاء البلاد، وترى الجزر وجمالها الحقيقي، كنت في السوق الكبير الآن؛ به معروضات فنية رائعة، أنصحك به، بالتأكيد لا تعرف مكانه!

- في الحقيقة لا.

- استقل سيارة أجرة وقل له: السوق الكبير فقط، وهو يعرف. أعتذر إليك يا (طارق)؛ حان موعد محاضراتي وأنا متأخر، توخَ الحذر ولا تدفع أكثر من ألف بهت في اليوم، وغمز لي أيضًا.

- شكرا على النصيحة يا (كارم).

ليست فكرة سيئة، التبضع قليلا لا مانع منه بما أنني قد وصلت فلأتعايش. ركبت تاكسي المدينة، وفي طريقي للسوق وقعت عيني على (ناريسارا) أولى معارفي في تايلاند، لم أقاوم نفسي، وأنا أوقف التاكسي وأسير باتجاهها، قلت لها بحذر:

- مرحبا.

دارت بعينها تجاهي، ردت التحية بكل ود وظننت أنها تعرفني! جميلة ونحيلة الخصر، وبها أنوثة جذابة في تحركاتها وأسلوب جلستها، سألتها في حذر:

- ما أسمك سيدتي؟

- (ناريسارا) مرحبا.

ترددت قبل أن أقول لها:

- أنا غريب هنا وأحتاج مرافقا، هل تسمحين بأن تكوني مرافقة لي في جولتي؟ وأن ترافقينني لمشاهدة المواقع السياحية والجزر بمقابل تحددينه؟

قالت بكل حماس:

– مرحبا بك، لا مانع لدي ...

أعجبت بتصرفها، لكنني لا أعلم لأي فئة تنتمي تلك الفتاة: العاملات أم أنها من فتيات الليل؟ غالبا لن يكون هناك داعٍ للقلق؛ أيًا كان الوضع فهي رائعة، حسنة الهندام، يسيطر على ملامحها الصرامة، ودقيقة في إظهار مفاتنها من الكعب للرأس، لها أسلوب غريب في الحديث، لعل كل فتيات تايلاند يشبهنها! قد ترفض وقد تقبل، هه من يعلم؟

أيقظتني من تفكيري بسؤال:

– من أين أنت؟

– من مصر.

ابتسمت في مرح وهي تحاول تقليد التماثيل الفرعونية بأسلوب مضحك، وقالت:

– قرأت عن مصر قديما وحديثا وأنا منبهرة بالأهرامات، والحضارة الفرعونية وأسلوب بناء الهرم، وتعليمات الفراعنة.

أردت تغيير الموضوع، كوني لست ضليعا في التاريخ وسيتم إحراجي حتما. سألتها عن معني اسمها وأجابت:

- المرأة الذكية.

- ليست ذكية فقط بل وجميلة أيضا ...

- أنت مجامل حقا من الدرجة الأولى، إلى أين أنت ذاهب الآن؟

- نصحني صديق بالسوق الكبير هنا، هل تعرفين مكانه؟

- نعم أعرفه؛ أنا من هذا البلد. وابتسامتها عريضة.

- ألن تحددي سعرا للمرافقة؟

- اليوم في الليل نتحدث ونحن في الفندق.

وارتسمت ابتسامة شقية على خديها استوعبت معناها، لكنني محرج.

- لا مانع من ذلك أبدا.

وأنا أبتسم نفس الابتسامة البلهاء خاصتي ...

وصلنا إلى السوق ولم يكن سوقا بالمعنى الذي تخيلته، كان مجموعة من البازارات القريبة من بعضها البعض، يتهافت التجار أمام أبواب المحال التجارية على الزبائن باستماتة، لولا أنها معي لكانوا ابتلعوني حيا. بعد أن تجولنا لفترة داخل السوق، لم أجد شيئا مفيدا لأمي سوى بعض ألتحف المنزلية ذات طابع أسيوي، وسألتني:

- هذا ثقيل جدا في الطيران، كيف ستنقله؟

- عبر (الدي إتش إل)

- أنت ثري؟ وابتسمت بمكر.

- تستطيعين قول ذلك.

- كيف وجدت تايلاند؟

أجبتها مبتسما ابتسامة خبيثة:

- جيدة، لكن كان ينقصها جمالك.

ابتسمت في خجل وقالت:

- أنت صاحب لسان عذب، وأنا لا أستطيع تحمل ذلك.

أصررت كامل الإصرار إن تتناول معي عشاء عربيا، فترددت كثيرا وهي تقول: إنها لا تفضل ذلك، وقالت: إن أكلاتنا غريبة وممتلئة بالنشويات والأملاح والكثير من الدقيق والسكريات، والعديد من المضار الصحية! ومع إصراري الشديد على تناول العشاء، قالت: فقط اجعلني أنتقي ما سوف آكل. اتفقنا على هذا الأساس، حيث لا أرغم ذلك الكائن الرقيق على شيء. وجدت أمامي سيارة أجرة ذات الثلاث عجلات، أوقفته.

- شارع العرب.

ذهبنا إلى ذلك المطعم اللبناني الرائع، بابتسامتنا على وجوهنا، كانت كالبدر المنير، عندما دخلت معها توقف الجميع عن العمل! وواصلوا اسبهلالهم لدقيقة مثلا، فأحسست بأنني أملك في يدي ملكة جمال، لا يستطيع أحد مقاومة جمالها، ويتهافت الجميع على ابتسامتها، اخترنا طاولة ظريفة في منتصف القاعة، ظهر أمامي (مهند)، بكامل ابتسامته على وجهه رغم عبوس الجميع غير المعتاد، فحدثني بلهجة لبنانية جميلة: نورت يا أستاذ (طارق)، رددت التحية: ده نورك يا حبيبي الله يعزك. شرعت في قول: ممكن... ولم أكمل كلماتي.

قال لي وابتسامته لا تفارق وجهه:

- أنتظرك في الحمام ثواني، اعتذر إليها بلباقة وتعال خلفي بسرعة.

وابتسم لي ولها ورحل.

تلاشت ابتسامتي من وجهي، وحلّ محلّها علامات استفهام كبيرة. ينتظرني؟ وما زاد التعجب أنه في الحمام! مهند شاب ومحترم وتجربتي أمس في ذلك الماخور جعلتني أشك في أي شخص، وعلى أي حال سأذهب وأرى: ما الموضوع؟ عسى أن يكون خيرا. استأذنت منها بلطف ووددت لو آخذها معي إلى الحمام بينما أودعها ويكاد فؤادي ينفطر وأنا أشير لها بيدي: سلام. توجهت لحمام الرجال، عندما دخلت وجدت مهند بابتسامته ينظر لي بتعجب، وقبل أن أنطق بكلمة بدأ حديثه بتهكم:

- أين تعرفت على ذلك الصاروخ؟

- عجبتك صحيح؟ قابلت أخ مصري، نصحني أن أتعرف على فتاة في محاولة مني للبقاء، أو أتبع شركة سياحة ولم أحبذ الفكرة

الثانية، ولذلك. أوقف كلامي بإشارة من يده غير مفهومة، وكأنه يشير إلى سيارة لتقف.

– هل فقدت عقلك؟

استأت من الكلمة وخاصة أنه لم يسبق أن تطاول عليَّ أحد بذلك القدر، وأردت تحذيره من الحديث بتلك اللهجة المماثلة، ولكنه باغتني بكلمة: إنّه (ليدي بوي). ارتسمت ابتسامة بلهاء على وجهي وتلاشت كل عجرفة، محاولا فهم الكلمة وهي اندماج غير مفهوم، وكلمة لأول مرة أسمع بها في حياتي، وكأنما هجم على ذهني كوب ممتلئ بالثلج سقط فوق صفيح ساخن.

– هل تعني ما ظننته أم أنك تقصد شيئا آخر لست على دراية به؟

– لا ليس شيئا أخر ولا أول، ألا تعرف الفرق بين المرأة والرجل؟

تصببت عرقا وزاد إحراجي وقلت بحسرة:

– هل الجميع بالخارج في القاعة يعلم؟

– نعم، ألم تلاحظ الغشاوة التي ملأت كيان الجميع منذ دخولك؟

- نعم لاحظت الجميع، مع اعتقادي أنه أبهرهم جمالها ليس إلا!

- حاول أن تتخلص منها في أقرب وقت ممكن.

قلت له في حالة من حالات الاستخسار:

- أليس من الممكن أن تكون غير ذلك؟ فكما ترى كيف هي جميلة؟ ومن الصعب هنا إيجاد ذلك الجمال.

- محال، نحن لا نسمح بوجودهم في المطعم، إنما احتراما لك سمحنا له بالبقاء، عسى أن تكون لا تعلم ما تواجه وبما أنك لأول مرة هنا في هذه البلاد عليك أن تكون أكثر تفهما لعقلية الشواذ بها؛ إنهم كثيرون.

- كيف سأخرج والعالم ينظر لي؟ وماذا سأقول له؟ أو لها؟

- (طارق)، أنت حر في علاقاتك، لكنني قلت أحذرك قبل أن تذهب معها لأي مكان وتصعق، ووقتها لا مفر ولا تدري من أقوى مِن مَن!

- ماذا تقصد؟

- يا رجل، من الممكن أن يتم اغتصابك ولن يسمح أحدهم بالوصول إلى تلك المرحلة حتى الفراش ويخرج خالي الوفاض، افهم ذلك.

شكرته على النصيحة وعدم إحراجه لنا بالطرد منذ دخلنا، وخرج من الحمام. وقفت أمام المرأة أحدث نفسي ماذا أفعل الآن؟ لم أواجه في حياتي إحراجا أكثر من ذلك! انتصبت ونظرت في المرآة نظرات التحدي والصمود، نظرات تشجيعية لكنها باءت بالفشل. استجمعت قواي وخرجت من المرحاض، في كل خطوة أخطوها تعود قدمي أدراجها، وأحس أنني لا أقترب بل أبتعد عن الطاولة حتى وصلت مكاني وجلست إلى الطاولة أمامها.

ابتسمت لي ابتسامة عريضة وأردفت:

- ما كل هذا الغياب؟

- إنها معدتي، لا أعلم ماذا حدث؟ تؤلمني بشكل غير طبيعي.

في محاوله بائسة للخروج من ذلك الموقف بأسرع وقت، وأقل الأضرار، ومثلت كطفل صغير لا يريد الذهاب إلى المدرسة، لا أعلم كيف كانت هي تعابير وجهي وأنا أنظر لها، مزيج من

الخوف والرهبة والتعجب لذلك الجمال الصناعي، لكنني أعلم شيئا واحدًا أن علامات الانبهار قد اختفت، وقد احتلت مكانها علامات خوف وترقب وفي نفس الوقت اشمئزاز، وقد دارت الأرجاء بي وحلمت بأنها تحولت إلى وحش رهيب أمامي، تتضخم ويزداد الشعر في صدرها وتقف وتخرج قضيبها ترمي به على الطاولة، وتضحك ضحكات شيطانية مرعبة. أفقت وهي (أو هو) تقول:

– طارق، طارق، طارق ... ماذا حدث لك؟ هل أنت بخير؟

أنا تائه، أتصبب عرقا ويزداد إحراجي أكثر فأكثر، وأنظر حولي أجد كل من في المطعم ينظر لي ويضحك، وأتصبب عرقا أكثر وأعود لوعيي، ثم أعود أحلم مرة أخرى بأحدهم يقول: أيها الشاذ، وأفيق لأجد آخر يقول لي بعد ضحكة شيطانية: أيها الشاذ، بصدى صوت مرعب وتتكرر في رأسي أكثر فأكثر.

قلت في إعياء وصوت منخفض:

– هيا بنا؛ إنني أشعر باختناق شديد في المكان، والأرض تدور بي، وأنظر للناس حولي أجدهم منهمكين في عملهم وكأنني

لست هنا، لا ينظر لي أحد إنما الغثيان جعلني أتخيل أمورا لا تحدث حولي، وتساءلت في حزن كوميدي: هل سأموت الآن؟ لا أعرف إن كنت أضحك أم أبكي؟ أعتقد أن ذلك حظي مع النساء وبالأخص من يدخلن حياتي شخصيا ولسن العابرات. ترجلنا من المكان وقد دخلته وأنا كلي حماس وحيوية غريبة الشكل، وها أنا أخرج منه وكأنني ضاجعت ألف ألف امرأة في نصف ساعة، قدماي تسيران على مهل، تحمل ملابسي مظهر الخضروات المضروبة بالخلاط، ولا أعرف بماذا أنطق أو أتكلم وكأنني فقدت النطق والتعبير.

ضحكت ضحكة طفولية، ونظرت لي:

- لا تحرج هكذا، هل هي أول مرة تقابل (ليدي بوي) في حياتك؟ أنا آسفة؛ ظننتك تعرف منذ البداية، ما تزال مبتدئا حتى لا تعرف الفرق.

نظرت إليها باندهاش شديد ولم أستطع الكلام أكثر، وكأن نيرانا في حلقي قد اشتعلت.

- أنا أعرف أن نادل المطعم قد ناداك داخل المرحاض كي ينبهك بكوني رجل ولا يجب مضاجعتي، حسب عاداتكم وديانتكم الإسلامية.

اندهشت وسألتها:

- كيف عرفت بأنني أدين بالإسلام؟

- مطعم الحلال الذي أخذتني إليه لا يدخله سوى المسلمين واليهود، ومظهرك لا يدل على أنك يهودي، لأنك عندما قابلتني أصريت على تناول الغداء سويا، وهذه ليست خصال يهودي؛ اليهودي عندما يريد منك شيئا يريد أن يأخذ حقه أربعة أضعاف، ولسبب أخر: إن أقرب طعام لليهودي هو الطعام الحلال الإسلامي، فهم أيضا لا يأكلون سوى اللحوم المذبوحة على طريقتكم، لذلك تجد اليهودي والمسلم يأكلان من طبق واحد، في مطعم واحد.

ازداد عبوس وجهي.

- من أين لك بتلك المعلومات؟

- هل في مصر يهود؟

- لا، قصدي القليل جدا يكاد يكون العشرات لا أكثر.

- تايلاند تعج باليهود من إسرائيل ومن كل أنحاء العالم ونحن نعرفهم جيدا، وأنت إنسان طيب، لذلك سوف أقدم لك عرضا مغريا، لن تندم عليه أبدا.

ابتلعت ريقي وأنا أسألها:

- ما هذا العرض الذي سوف أرفضه، قصدي الذي سوف لا أرفضه؟

- أنا لي أخت وهي فتاة طبيعية، لكنها تشبهني تماما، أو بالمعنى أنا أشبهها، ما رأيك؟ هل أنت مهتم؟

حاولت التحدث بصعوبة شديدة وأنا أقول لها بصوت يكاد يخرج من فمي:

- أنا في غاية الإحراج منك ولا أدري ماذا أقول لك في تلك الظروف وذلك الموقف؟

- لا تقل شيئا، سوف تشكرني عندما تراها، وأنا أقدر مراعاتك لمشاعري، إنها قريبة من هنا؛ تمتلك متجرا للأدوات الجنسية.

– متجر؟

– هيا بنا؛ أريد أن أعوضك عما جرى بالداخل، وتتعرف أيضا معنى متجر أدوات جنسيه، أوقفت سيارة أجرة وقالت له:

– شارع الممشى.

الممشى...

ترجلنا من هناك حيث السير على الساحل لوقت طويل وجلسنا التهمنا وجبة سريعة حيث كانت معدتي تشتاط غضبا من الجوع، وتجولنا في طريق يعج بالمراقص والبارات، وكثيرا ما أترقب نظرات الناس حولي وأجد أن الموضوع عادي جدا أن أتجول برفقة ليدي بوي كثيرة جدا محلات ومعروضات غير مفهومة، أبواب وشوارع تعلن عن افتتاح موسم المتعة.

توقفت ونظرت لي.

- ادخل هنا.

- هذا مدخل منزل!

- ادخل ولا تخف؛ أنا لا أعض.

أشارت لي بيدها إلى فتاة جميلة، بديعة المظهر، لها قوام أنثوي رائع، قربنا منها أكثر فأكثر، تحدثتا سويا بالتايلاندية وظلت أختها تضحك مليا، أعتقد أنها روت لها ما حدث منذ أن تقابلنا، وأكثروا من الضحك حتى إنني شعرت بالإهانة،

ثم التفتت لي:

- مرحبا بك في تايلاند.

نظرت لها بنظرة إعجاب وحييتها برأسي.

مع نظرة تثير البدن وكم هائل من الدلال:

- أنت وحدك هنا؟

- قد أتيت أمس للسياحة في بلدكم الجميلة.

- سوف تنبهر.

- أكثر من رؤيتك؟ أعتقد الانبهار اختفى ويكفي النظر إليك ليتجدد.

- تقول (ناريسارا) إنك تريد مرافقا نهارا فقط، أم ليلا ونهارا؟

- فليكن ليلا ونهارا، إن أحببت؟

فنظرت لأختها وقالت شيئا، أعتقد شيئا من الفكاهة، وزادت الضحكات مع طول الحديث.

انعقد حاجباي وأنا أسأل (ناريسارا) في تعجب:

– ماذا قلت لها؟

– قلت لها: ألم أقل لك؟

ونظرت لها بدهشة بالغة وتعجب.

– وماذا قلت لها؟

– قلت لها إن له لسانا عذبا.

ثم أردفت قائلة: سوف تخرج لنا حالا، وسوف ترافقك في رحلتك بالكامل إن أردت ذلك، بشرط ...

– ماذا؟

– ثلاثة آلاف بهت في اليوم ليلا ونهارا، ألف بهت نهارا فقط.

– ألفان ليلا ونهارا.

– اتفقنا.

قلت لنفسي: تسعمئة جنيه مصري، إن استأجرت مترجما سوف يأخذ أكثر من ذلك، وسوف لا أستغله.

– وأنا أوافق على هذا الاتفاق ليلا ونهارا.

تركت العمل وقالت لصديقتها: لدي عمل خارجي، وسوف أتابعكم على الهاتف.

التفتت (ناريسارا) وقالت بجدية:

- هي صاحبة المتجر، الذي يضم كافة الألعاب البلاستيكية الجنسية للجنسين، هل فهمت الآن معنى المتجر الجنسي؟

خرجت (سوشين) من المتجر مسرعة وهتفت بأهمية:

- أريد الذهاب إلى منزلي لإحضار بعض المتعلقات الشخصية، هل تسمح؟

- طبعا، هل يستغرق الأمر وقتا؟

- أليس لديك متسع من الوقت أم أنك متأهب؟

وابتسمت في خبث، ونظرات إعجابي بها لا تتوقف.

- لا، إنما السؤال من عاداتي.

- هنا كل شيء بهدوء سوف تعتاد ذلك.

أمام رصيف نهر تشاو أنتظرها حتى تعود من منزلها، سرح بي خيالي للإسكندرية، عيناها ما زالت تنظر لي وتتحدث معي وتقول: سوف أنتظرك حتى تعود، أطرد الفكرة من رأسي وأقول لها: ها أنا هنا مع أجمل فتيات و...

نظرت لي (ناريسارا) وقالت متعجبة:

- (طارق) أنت منفعل، وتتحدث مع نفسك؟

- فقط مرت بي ذكرى مؤلمة قليلا، بالمناسبة ما هو معنى اسمها؟

- جميلة.

- وهي هكذا فعلا.

- أنت إنسان مجامل حقا.

- أو صريح، المجاملة ليست من طباعي.

نظرت لها نظرة بها عتاب وسألتها ببساطة جدا:

- لماذا؟

نظرت لي بابتسامة خافتة، وأخذت تشرح لي كيف كانت فتى ضعيفا منذ الصغر، يتحرش بها الأطفال في الحي والمدرسة، وحتى في دور العبادة، وكانت تحس داخلها أنها أنثى وليست ذكرا، وأن جسدها يتمرد عليها، حتى يوم كانت تبلغ من العمر اثني عشر عاما في مشفى مع والدتها، سأل الطبيب: من تلك الفتاة الظريفة؟ ما بها؟ وهو يسألها عن حالتي الصحية، ثم شرح لوالدتها يومها أن الجميع لديه هرمونات أنوثة وذكوره، وفي بعض الأحيان يطغى هرمون على الأخر ويكون أقوى، وفي حال ابنك يقوى الهرمون الأنثوي أكثر، وقال لها على بعض التحاليل والأشعة، حتى يقوم بالكشف عليَّ في المرة المقبلة، وما خاب ظنه واستنتاجه، لقد وجد عضوي الأنثوي مغطى بالكامل بلحم جسدي، ولم يكن أبي يريدني فتاة ورفض تلك العملية، ونعت أمّي بالجنون، وعندما بلغت سن الرابعة عشر، لم تكن تصرفاتي ذكورية، ربما دعم رأي الطبيب مخيلتي تماما، ولقد أحسست بصراعات داخلي قوية بين ذكر وأنثى كلاهما يحاول السيطرة على الأخر، وعندما توفي والدي كنت في سن العشرين، اتخذت قراري؛ قمت ببعض عمليات التجميل الجسدية الرخيصة وكنت أتوقع أن تكون عمليه التحول الجنسي سهلة ورخيصة أيضا،

وشرعت في ادخار ثمنها، لكن تكلفتها ليست متاحة حيث أصبح همنا الآن أمي ومرضها؛ لقد استنزف كل ما نملك وما جمعته للعملية، لكن اكتفيت ببعض المؤثرات حتى إن صوتي طبيعي هكذا لم أغير فيه شيئا ورضيت بالوضع، رغم ميلي الشديد لأصبح أنثى متكاملة، حتى لا يحدث ما حدث بيننا اليوم، أتمنى أن يتم شفاء أمي وتتحسن حتى أبدأ من جديد في ادخار المال، حتى يتسن لي إنجاز ما تبقى لي من عمليات؛ أريد أن أعيش وضعي، ولا أستطيع. غرقت عيناها بالدموع، لم أتحملها شخصيا ووجدتني بوازع إنساني أحتضن رأسها إلى صدري وهي تبكي، لم أعلم كيف أتصرف في ذلك الموقف، إن كنت أحتضن صديقي أو صديقتي؟

أعتقد أن الرأفة بالبشر لا علاقة له بالجنس، أو شيء يخالفه الدين.

وقفت (سوشين) خلفنا مباشرة وهتفت وابتسامة ماكرة لا تفارق وجهها وقالت:

– هل أعطيها الحقيبة وأذهب أنا للمنزل؟

هتفت بعفوية شديدة بها كم زائد من الفجعة:

- لاال.

فضحكت (ناريسارا) بضحكة مدوية التفت لها الناس، والتفتت ل(سوشين) موجهة حديثها لها:

- (سوشين) (طارق) شخص طيب جدا حاولي إسعاده.

فنظرت لي سوشين نظرة شرسة وقالت:

- سأجعله ينسى وقت ميلاده.

وانهارت البنايات من ضحكاتنا، أحسست أني عريس ليلة زفافه وأم العروس توصيها على ولدها الجديد، أوشكت الساعة على الحادية عشر مساء، عندما نظرت في ساعة يدي وبدا لهم أنني مرهق،

أطلقت (سوشين) نغمة مرحة وهي تقول:

- هلا ذهبنا الآن؟

- هيا بنا.

أخذنا ذلك الاختراع الغريب ذا الثلاث عجلات حتى الفندق.

سألتني (سوشين): كم ليلة ستبقى معنا في تايلاند؟

– حتى تتمكني من محو ذاكرتي؟ فأنا أتمنى محوها بالكامل.

وصلنا حوالي الحادية عشر والنصف مساء وكلانا مجهد إجهادا بشعا من تلك الليلة، نظرت لتلك الحقيبة الغريبة في يدها، تبدو عتيقة ذات لون زهري، ولها مقبض أنيق.

– ماذا لديك هنا؟ هل سحر ولعب الحواة؟

– لا؛ تلك الحقيبة بها كل متعلقاتي الشخصية أثناء السفر، أحملها وأذهب، دائما جاهزة في المنزل.

اندهشت من تلك الحقيبة الصغيرة، أكثر ما انتابني هو الفضول لمعرفة ما بداخلها!

دخلنا الفندق محاولا إخفاءها، وهي تسير جانبي ولكن كان الوضع طبيعيا أكثر من اللازم، ابتسمت وأشاحت بوجهها بأسلوب طفولي للعاملين، وكأنها نجمة سنيمائية تحيي الجماهير بابتسامة ساطعة، صعدنا بواسطة المصعد الكهربائي، وأنا أريد

أن أفترش الأرض من فرط الإرهاق، لا أبالي بشيء فقط أريد أن أنام وبشدة، فتحت باب الغرفة وحالا وضعت حقيبتها على الأريكة القريبة، وأخرجت شنطة بلاستيكية أنيقة زهرية اللون أيضا، من الواضح أنها تعشق ذلك اللون، وانتابني الفضول لأنظر ما بداخلها أيضا، شورت وبلوزتان قطع صغيرة وقميصا نوم فقط، نظرت إليها تملؤني الدهشة.

قلت لها بدهشة وتعجب:

- ذلك كل شيء؟

تصدر نغمة طفولية للحديث في ردها ببساطة:

- كل شيء.

أشاحت بوجهها إليَّ في دلال بالغ وإثارة ساخنة تغري البليد.

- أدخل الحمام أولا؟ أم تدخل أنت؟ أم نحافظ على المياه وندخل سويا؟ من باب الحفاظ على المياه.

ولم أفهم ما ترمي إليه حرفيا!

- ادخلي أنت أولا وسوف أدخل من بعدك.

زالت ابتسامتها لحظة، وقالت:

- أول يوم من دون عمل.

قلت في عقلي: بماذا تهمهم؟ لم أفهم عباراتها، وأعتقد أنها حزينة من شيء ما، لكنني لم أفهم ولم أهتم. دخلت (سوشين) الحمام، وقالت في خاطرها: انتظر حتى أنتهي من حمامي وسوف أجعلك تلهث خلفي كالمجنون. انتهت وفتحت باب الحمام؛ على رأسها منشفة وترتدي قميص نوم أحمر شفاف.

فقط تعلقت عيناي لوهلة بهذا الجمال وتلك الأنوثة، وتعلق نظري أكثر وبدأت حملقة.

قالت لي بنوع من الدلال:

- هل ستظل ترمقني بعينيك أم ستدخل الحمام، ونخسر المزيد من المياه؟

- نعم سأدخل الحمام.

توقفت عند باب الحمام لأشم رائحة ذكية تبعث في النفس السرور، أعادت لي نشاطا غريبا ونشوى رائعة، التفت ونظرت إليها وقلت:

- أذلك عطر أم إنك تفرزين تلك الرائحة؟

ابتسمت واعتدلت تصفف شعرها أمام المرآة.

قبلما أفتح المياه، وجدت طابور عرض منتجات للجسم: جيل استحمام، شامبو للشعر، مرطب، بلسم، زيت للشعر، زيت للجسم، زيت للمناطق الحساسة، مرطب جسم، مرطب للقدم، ومرطب عام، طمي شبيه للطمي المغربي للبشرة والجسم، وفي النهاية حجر! أغلقت عيني أشم تلك الرائحة مرة أخرى، ورددت في همهمة أنا كنت متزوجا بابن خالي!

حاولت منع نفسي من الخروج حتى أكمل حمامي، حيث إن شهوتي قاربت أن تقتلني، خرجت من حمامي وما يستر جسدي إلا أحد المحارم. وجدتها شبه مبعثرة على السرير، بدلال التفتت ونظرت لجسدي نظرة طويلة وقالت في دلال:

- لماذا تداري جسدك بتلك الملابس؟

– سأنزعها في الوقت المناسب.

أشارت لي بإصبعها: تعال هنا.

– جاهزة؟

نظرت لي نظرة خبث وقالت:

– للنوم؟

– لا لدخول موسوعة جينيس للأرقام القياسية.

أشارت لي بإصبعها وقالت بدلال شديد:

– تعال.

نزلت تحت الغطاء، وأنا أداعبها.

– أرجوك رفقا بي فأنا مبتدئ.

نظرت لي بخباثة ولؤم وقالت:

– الدرس الأول: لا مناشف أو محارم، وخلعتها بكل عنف من تحت الغطاء وغاصت أسفل الغطاء، وغرقت في بحر نشوة عارمة، قرابة الساعة لم أنته منها، لدي إحساس بها يفوق كل

تصور ورغبة تملؤ العالم، انفجار نضرة تملؤ الكيان شغفا، كلقاء فاكهتك المفضلة في غير موسمها، وكأننا نجري في سباق الألف ميل، لا أكف عن الجري في سباق طويل.

تلهث وتقول:

- أنت مبتدئ؟

- نعم، وافترست شفتيها بقبلة تكاد تنتزع روحها.

- نكتفي بذلك القدر وننام أرجوك.

مددت يدي، أمسكت وجهها وطبعت قبلة على رأسها. ارتمت بين ذراعي كالأطفال وذهبت في ثبات عميق، في ثوان معدودة نظرت إلى سقف الغرفة وجدتها تنظر لي وتبتسم، وأنا أردد: لا، لا، ليس الآن، وأغمضت عيوني وغفوت، وقد تعودت أني أغمض عيوني يوميا على صورة (أميرة).

القاهرة...

رنّ جرس هاتف منزل والدة (طارق) وردت على الهاتف: السلام عليكم.

– السلام عليكم ورحمة الله وبركاته يا هانم.

قالت للمتصل: (صلاح) كيف حالك؟ وكيف حال أم وليد؟

– الحمد لله يا ست هانم، لقد اتصلت بالأستاذ (طارق) أكثر من مرة، كنت أحتاجه ضروريا.

– خير إن شاء الله يا (صلاح).

– والله يا هانم ليس خيرا، هل الأستاذ (طارق) سيتأخر في رحلته؟

– (طارق) مسافر في الخارج، وأعتقد أنه سوف يتأخر أكثر من شهرين.

– يا ربي، شهرين!

– بقلق، ماذا حدث يا (صلاح)؟

- أرجوك يا سيدتي عندما يتصل بك قولي له: (صلاح) يحتاجك ضروريا.

- حسنا يا (صلاح) سوف أراسله، وأقول له ذلك.

- السلام عليكم يا هانم.

تغلق أم (طارق) الخط في قلق ودهشة واضحين، ماذا جرى ل(صلاح)؟ وما سبب قلقه وعدم مصارحتي بمشكلته؟

الجميلة...

استيقظت اليوم التالي على رائحة أعرفها جيدا: رائحة المشاوي، إنها المحببة لي، أتحسس السرير ولا أجد (سوشين) جانبي، أنظر لساعة الحائط، الواحدة والنصف بعد الظهر، قمت من سريري في تكاسل غريب ونظرت للطاولة، يوجد بها الفطور والعصائر مختلفة الألوان، فتحت غطاء الطبق لأجد (جمبري وأخطبوط وقشريات)، طبقا كبيرا ممتلئا، أذكر أني لم أحظ به في عرسي، لم أعلم إن كان إفطارا أم غذاء؟ التهمته وكأنني لم أذق تلك المأكولات من قبل. ما شاء الله؛ إنها موهبة، ذلك الطعم الرائع، لا بد أن أعرف سر تلك الخلطة، انتهيت ثم دخلت الحمام للاستحمام، ثم اتصلت بخدمة الغرف: ألو، صباح الخير، أين أجد صالة الألعاب الرياضية؟

قيل لي: الدور الحادي عشر. أغلقت الهاتف وذهبت متوجها إلى الدور الحادي عشر، طرقة طويلة للوصول إلى الصالة، أخذني الفضول؛ على يميني كتبت باللغة الإنجليزية صالة مساج وجاكوزي، دخلت بها من باب الاستطلاع، وجدت آنسة تقدم لي روبا ومحارم، وأشارت لي تجاه غرف خلع الملابس.

قلت لها:

- أنا فقط أستفسر.

أشارت إلى حجرة خلع الملابس.

خاطرٌ في ذهني يقول: ربما هذه آداب وطنية وتقاليد من العيب كسرها، توجهت لغرفة خلع الملابس وخرجت على مدخل أنيق به فتاة.

- مرحبا بك، الرجاء انتقاء من تريد.

- لماذا؟

- لعمل المساج.

- تلك الفتاة قوية، أظن أنها جيدة.

أعطتني مفتاح غرفة وعليه رقم، دخلت غرفة بها مغطس صغير الحجم يشبه المقعد وسرير أبيض جلدي ويفوح من الغرفة عبير الأزهار، فتح باب الغرفة ودخلت السيدة التي تم اختيارها،

قالت لي بأدب جم:

– أرجوك أن تخلع كل شيء وتنزل المغطس.

أشرت لها: كل شيء كل شيء؟

– نعم.

أومأت برأسي إيجابا، وخلعت كل شيء ونزلت الماء.

وجدتها تخلع ما ترتدي وظلت بالملابس الداخلية فقط، وكأنها أمي؛ أخذت تحميني من قمة رأسي لأخمص قدمي.

ثم قالت لي بأدب واحترام جم:

– الرجاء الخروج من المغطس والتمدد على سرير المساج، وأعطتني محرمة صغيرة كغطاء.

ظلت تفكك في جسدي قرابة الساعة، وأعتقد أن اختياري كان في محله، لقد أزالت بيدها الساحرة إرهاق جسدي بالكامل، وبعد رفضي لإنهاء الجلسة بالنهاية السعيدة،

قالت باندهاش:

– لماذا؟ الموضوع صحي للغاية.

وأكملت للتوضيح: سيدي، البروستاتا؛ هي غدة صغيرة الحجم قرب المثانة، مهمتها إفراز سائل يساعد على تشكيل السائل المنوي، ويساعد الاستخدام الطبيعي اليدوي على الكثير من الفوائد.

ظنًا مني أنها تحاول فقط إتمام عملها لإرضاء الزبون، قلت لها:

– وماذا أيضا؟

– أولا يساعد في تخفيف حالات الإصابة بسرطان البروستاتا للرجال، يساعد على تحسين الحالة الجنسية، ويساعد على مسح القناة البروستاتية، ويؤدي إلى إفراز سائل يساعد على مسح القناة يساعد حالات الضعف الجنسي وزيادة تدفق البول، ويساعد على تدفق الدم في تلك المنطقة.

– كل ذلك؟!

– وأكثر، انتظر؛ ذلك جهاز يباع في الصيدليات، وثمنه مريح جدا.

قلت لها مازحا:

- بكل تأكيد سيكون مريحا.

- هذا جهاز شخصي يمكنك استعماله في أي وقت، لكن التدليك الطبيعي مفيد أكثر.

- لقد اقنعتني، هيا أكملي.

انتهت الجلسة وشكرتني على تواجدي معهم وشكرتها، وأشرت بيدي على الإمضاء للفاتورة.

- ذلك ضمن حساب الغرفة، رجاءً لا تأخذ حماما قبل ساعة.

خرجت وكأنها قد أزالت من جسدي كل شيء، الأرق والتوتر ووضعت مكانهما الهدوء وراحة البال، إنه حقيقية شيء معجزة.

دخلت غرفتي لأجد (سوشين) بالداخل.

- إلى أين ذهبت؟

- حاولت دخول صالة الألعاب الرياضية وفشلت.

فضحكت وقالت بدلال:

- ودخلت صالة المساج.

- كيف عرفت؟

- أنا أملك ذلك المكان، صديقاتي من الإدارة إلى خدمة الغرف.

- أنت من أحضرت تلك الوجبة الرائعة؟

بدلال: ومن غيري؟ تعويضا عن إرهاقك الليلة الماضية.

- هل نجح التلميذ في الصف الأول؟

- لا، لقد أظهر الأستاذ براعته في شرح الدرس.

- ما هذا؟ (مشيرا إلى أكياس في أخر الغرفة)

- ابتعت لك بعض الملابس،

- لدي ما يكفي.

- ملابسك لطالب أو مدرس جامعي، لقد أحضرت لك اختراعا اسمه الجينز.

فتحت الأكياس: ثلاثة أزواج من الأحذية الرياضية، بعض القمصان، مختلف الألوان، وثلاثة بناطل جينز.

- كم دفعت مقابل ذلك؟

- هذه هديتي لزيارتك الأولى.

انعقد حاجبي وهتفت في إصرار وقلت لها:

- أرجوك، كم دفعت؟

- أردت أن أفاجئك.

- أنت مفاجأتي الكبرى في هذا البلد.

- أخاف منك. (وهي تنظر لي وعينها في الأرض)

- لماذا؟

- أخاف أن أحبك وأتعلق بك، نحن أصدقاء صحيح؟

- بكل تأكيد.

- حسنا، اقبل هديتي.

- هذا لا يصح؛ نحن اتفقنا اتفاقا، وهذا أكثر من مصروفك اليومي الذي اتفقنا عليه.

ضحكت ضحكة كبيرة وأردفت:

-تجلس معي أسبوعا وأعطيك ألفي بهت يوميا؟

– كم سعرهم؟

– حسنا، ألف وثمان مئة بهت.

– كل هذا فقط؟ ألف وثمان مئة!

– نعم.

أخرجت من جيبي النقود وقلت لها:

– لا تشتري شيئا إلا وأخذت ماله مني مقدما، وأشكرك على الفطور؛ لقد أحببته، وتلك هديتك لي.

– لم أدفع مقابله، عمي يملك المتجر.

– وأنت أحضرتِه بيدك؟

– لا، أعطيته لصديقاتي في خدمة الغرف، وقلت لهم لا تزعجوه؛ إنّه لي.

– يكفي أنك حملته بيدك الجميلة.

أمسكت يدها وطبعت قبلة على راحتها.

– أووه؛ أنت غير معقول، كيف تطيق زوجتك فراقك؟

– أنا مطلق.

– كيف طاوعها قلبها لعمل ذلك؟

– كانت تحب شخصا آخر.

– مجنونة.

– لا، إن كنت تعرفينني قبل شهر فقط ما كنت لتقولي ذلك. صحيح، أريد أحد خطوط الهاتف.

– تستطيع استخدام هاتفي.

– في الحقيقة لا أستطيع؛ تصلني بيانات عبر البريد الإلكتروني الشخصي، لا بد أن تكون من هاتفي.

– أردت احتكارك حتى إن أتيحت لك الفرصة فلا تقوم بالاتفاق مع فتاة أخرى.

نظرت لعينيها ووضعت يدي حول خصرها، وقلت:

– هل تحل النجوم مكان القمر؟

احمر وجهها خجلا وسقط وجهها في الأرض وقالت:

- سوف تفقدني وعيي بكلماتك.

وطبعت على شفتيها قبلة سريعة، وقلت لها:

- أين سنذهب؟

- بما أن النهار انقضى، فإن رحلة الأفيال انتهت، أما الأن سنذهب مزار الألف صخرة.

- ما هذا؟

- انتظر، ستتبهر.

تعتبر حديقة التمساح أو المليون صخرة غابة كبيرة وليس بها أي مخاطر، ها قد وصلنا في هذا المكان الشاسع البديع وتلك المناظر الرائعة، نظرت لها وقلت:

- الدهشة والمتعة في كل أنحاء البلد، من الجميل تواجدك معي، المكان هنا رائع.

- حقيقي؟

وغاصت في حضني وهي تنظر لشفتي، ثم همست: وأنت من الرائع تواجدك في حياتي.

قربت شفتيها منى.

- نحن وسط الناس!

- وما في ذلك؟

نظرت بجانبها، وقالت لفتاة كلاما لم أفهمه بالتايلاندية، فردت عليها الفتاه بكلام لم أفهمه أيضا، وجدت الفتاه تنقض علي وتقبلني بشغف في إحراج شديد، شكرت الفتاة وأزحتها بصعوبة،

وقلت لها بعصبية وأنا أرتب ملابسي:

- أنت مختلة؟ ما هذا؟

- قلت: ربما تقتنع!

- ماذا قلت لها؟

- قلت لها: قبلي هذا الشاب ولك مني مئة بهت، وردت علي وقالت: المئة بهت هدية مني لك.

- أنت مجنونة.

- فقط أعطني التصريح، وسأجعل فتيات الحديقة تغتصبك.

– هيا بنا، لقد اكتفينا.

– وماذا عن العرض؟

– نحضره غدا ...

سريعا أصبحنا في غرفة فندق آخر، لا نعرف عنه شيئا سوى ما نحتاجه منه، سرير.

لم تنته لحظات النشوة سريعا، إنما مرت ببطء ونمنا ولا ندري متى نمنا، وعندما استيقظنا كانت العاشرة مساء، تجولنا وتناولنا الطبق البحري المشوي المميز، وما تزال شفاهنا لا تفارق بعضها من الحين للآخر.

في اليوم التالي، تجولنا كثيرا وأدخلتني بعض المعابد لديهم، جعلتني أشاهدها وهي تمارس طقوسهم الدينية، وأشارت لي في أحد المعابد أن أدق الجرس، أو أشعل بعض حلقات النار، ولكنني رفضت تماما.

سارت جانبي وسألتني في تعجب ودهشة:

- لماذا رفضت فعل ذلك؟ العديد من الجنسيات يحضرون إلى هنا ويمارسون الطقوس دون اكتراث؟

لم أجد في ذهني إجابة قد تكون مقنعة لها، حيث إنها رأت الكثيرين يفعلون ذلك.

- (سوشين) إن دين الإسلام ينهانا عن تقليد شعائر الأديان الأخرى، فلا مانع من الذهاب إلى أماكن غير معمورة بالبشر والتجول بها، أما تنفيذ أي شعائر فهو محرم ويعد خطيئة كبرى، ولا أستطيع القول بأنها أكبرهم، فقط إنها كبيرة.

- حسنا كما تشاء، ولكني أعتقد أنك أيضا متحفظ قليلا.

- البشر مذاهب.

تناولنا العشاء في أحد المطاعم المطلة على النهر، قامت فجأة عندما رأت شخصا قادما وأشارت له بيدها وهي تأمرني بلهجة شديدة قائله:

- أغمض عينيك.

- لماذا؟ ماذا سوف تفعلين بي؟

– فقط أغمض عينيك.

قامت من مكانها وأغلقت عيني بقوة، ثم فتحتها فجأة، فقلت لها:

– ماذا؟

رأيت أمامي فتاة تقريبا في السادسة عشر من عمرها على حد تقديري، متوسطة الجمال، رشيقة القوام، ذهبت لتجلس جانبها أمامي وتركت المقعد المجاور لي دون مقدمات، وجدتها تنهال عليها قبلات شاذة جنسيا، وتنظر لي بعينها، وأنا تارة أغمض عيني وتارة أفتحها،

وقالت لي في فرحة بالغة:

– ما رأيك؟

– يمكنني أن أترككم بحرية وأذهب ومن ثم تتبعينني وقتما تشائين.

– لا، أنت سوف تنهي طبقك بالكامل، وبعدها توافيني إلى الفندق، أعطني مفتاح الغرفة.

نظرت لها بدهشة، وقلت لها:

– من هذه؟

– صديقتي الحميمة (كارلا).

– أهلا (كارلا)، من أنت؟ (في تهكم وسخرية)

– أنا صديقتها الحميمة، وزميلتها في العمل، وشريكتها في العمل الخاص.

نظرت لهما بدهشة وتساءلت:

– عمل خاص! أي عمل خاص؟

– سوف ترى، إنه مشروع صغير نقوم به كلانا، في أوقات الفراغ.

سألتها: ما سن تلك الطفلة؟

ضحكت ضحكة طفولية كعاداتها وقالت:

– تلك الطفلة اثنان وعشرون عاما.

قالت (سوشين) لصديقتها بلغه تايلاندية:

– هل أحضرت كل الأغراض التي أشرت لك بها؟

- نعم كلها في السيارة.

قلت ل(سوشين) بتعجب:

- ماذا يحدث؟

- كنت أسألها عن أدوات العمل، هل أحضرتها؟

-هل أحضرتها؟

- نعم.

- أنا هكذا مطمئن؟ ما تلك الأدوات؟ وما هذا المشروع؟

- كم ساعتك الآن؟

- الحادية عشر والنصف، لماذا؟

قالت وهي تغمز بعينها وتتحسس كتفي أثناء مغادرتها بشغف:

- الثانية عشر في الفندق.

قامت متلهفة وهي تضحك مع (كارلا).

لم أكن أعرف ماذا أفعل وحدي؟ دفعت ثمن الطعام وترجلت، وجدت نفسي أمام النهر وهواء بارد نقي يشعل في رأسي ذكريات

لا تريد أن تغيب عن رأسي تماما، ولن أنساها أبدا ما حييت، ضحكة مميزة، تُرى ما ذلك الانجذاب الخفي؟ ابتسامة مميزة لا أنساها دوما، وعطر مميز ما زالت أنفاسي تطبعه على ذاكرتي ولا أنساه، هل كان لها تأثير خفي، أم أنني أتذكر بها شيئا دائما يلهمني ذكراها، شيء مؤلم حقا. جلست برهة أنظر إلى تلك المعابد المنتشرة على ضفاف النهر والجمال الساحر وأتفكر في إبداع الخالق،

وجدت صوتا خلفي يقول:

– ما زلت تتحدث لنفسك وتصرخ فيها، أم أن الله هداك؟

نظرت خلفي فإذا هي (ناريسارا).

– ماذا تفعلين هنا؟

– أتجول مع ذلك الشاب، صاحب السيارة الفارهة.

– ممتاز.

– أين (سوشين)؟

– سوف أذهب إلى الفندق عند الثانية عشر والنصف.

- هل (كارلا) معها؟

- هل أنت في المشروع؟

- لا، لكن أرافقهم أحيانا، عندما يكون الزبون موجب وسالب.

- ما معنى ذلك؟ مرة أخرى من فضلك.

- عليَّ أن أعود، سوف تفهم هناك.

- ماذا أفهم؟ أرجوك انتظري هنا.

- ماذا؟ سوف أتأخر عليه؛ أنظر إنها حفلة جنس جماعي، سوف تربطك (سوشين) في سرير الفندق ويتناوبون عليك الاغتصاب، أما الموجب والسالب فإنه إذا كنت تريد الاستماع بالجنس من الإمام ومن الخلف، هل وصلت المعلومة؟ والآن اتركني أذهب.

ترجلت من جانبي ولوّحت بيدها وهي تعبر الطريق: أراك لاحقا يا صديقي. وعند مرورها إذا بسيارة مسرعة ترتطم بها في قمة الذهول، وقفت السيارة لبرهة ورمت بعض الأموال، وعندما

هرعت إليها بدأت السيارة في الهروب، لم أتمالك نفسي وأنا أصرخ، نظرت إلى الشاب صاحب السيارة وهو يقول:

- ما بعرفها، ما بعرفها، إيش ما بدك أعطيك.

نظرت له وقلت:

- تلك سيارتك.

- لا، إنها مستأجرة.

قلت له وأنا أحملها:

- اتصل بالطوارئ، تعرف أي مشفى قريب من هنا؟

- نعم.

- إلى أقرب مستشفى.

في الفندق...

– (سوشين)، (سوشين)، (سوشيييييين)، أين (طارق) هذا؟

– ها أنا أنتظره، ترى ماذا حدث؟ لقد تأخر فعلا، وأنا غير مطمئنة، رن هاتفها في تلك اللحظة وقالت: في فرحة إنه (طارق).

– ألو (طارق) أين أنت؟ نعم أعرفها، حسنا، حسنا أنا قادمة حالا.

قالت لها (كارلا):

–ماذا حدث؟

– حادث سير ل(ناريسارا).

لم أتذكر كم من الوقت مر علينا في المشفى؟ كنت في حالة من الرعب والفزع، لم أستطع أن أتخيل ذلك المشهد مرة أخرى، ويمر مرارا وتكرارا، إلى أن استدعتني الشرطة، وأدليت بأقوالي كي يتم القبض على السائق.

احتضنتني (سوشين) من ظهري وهي تهمهم: ألن ترتاح قليلا، منذ أمس لم تنم ولم يغمض لك جفن.

– لا أستطع نسيان ذلك المشهد من مخيلتي، فقد كانت منذ برهة تتحدث معي.

– (سوشين) وهي تحتضن جسدي بالكامل: اذهب إلى الفندق وارتح قليلا ثم تعال مرة أخرى.

– حسنا وافيني بالأخبار أرجوك أولا بأول.

– حسنا.

وودعتني بقبلة حانية من شفتيها وذهبت.

القاهرة – الإسكندرية...

ترجلت (كوثر) عن سيارتها في فناء بيت الإسكندرية الأنيق، دخلت، وضعت حقيبة يدها على الطاولة المستديرة بمدخل البهو الرئيسي للفيلا، أخذت أقرب مقعد ونظرت إلى وجه (صلاح).

قالت: عم (صلاح) ما كل تلك اللهفة في السؤال على (طارق)؟ منذ متى وأنت تخفي عني شيئا؟

– لا سمح الله، أنت تعلمين سيدتي، عمال الغاز سوف يقومون بالتركيبات قريبا، ومفتعلين المشاكل.

لا أحب أن أشغلك بذلك، والأستاذ (طارق) قال: لا تدع أمي تتعي هم المنزل هنا ولا ترهقها، أدامك الله فوق رؤوسنا يا سيدتي.

نظرت إلى (صلاح) بنظرة صارمة وقالت له:

– أربعون عاما يا (صلاح).

– أربعون عاما ماذا يا هانم؟ هذا الموضوع منذ شهر.

– أربعون عاما يا (صلاح)، وأنت في هذا البيت، وعندما أنظر إليك لا أعرف إذا كنت تكذب أم لا؟

- العفو، لا تؤاخذيني سيدتي، أنا لا أعلم ما أقول، لم أستطع أن أحكي لك شيئا يا سيدتي، بالله عليك إني لا أستطع تماما.

- حسنا، أرسل (أم سعد) إلى غرفتي.

- أمرك يا سيدتي.

دخلت والدة (طارق) غرفتها لتستريح قليلا من السفر، دقت الباب (أم سعد).

- اتفضل.

- أشكرك يا سيدتي.

- مرحبا يا أم سعد، استريحي.

- شكرا يا هانم.

- احكِ لي أنت ماذا حدث؟

- يا (كوثر) هانم أنا لم أر شيئا، لكن (صلاح) يقول بأن السيد (طارق) جاءت له ضيفة هنا رائعة الحسن، وأنا أنظف وجدت غطاء المخدع ملقى خلفه هنا، وانظري ما بها حضرتك، ولك أن تتصوري الباقي.

- و(صلاح) لم ير هذه الفتاة قبل ذلك؟

- لا يا هانم.

- لا أحد يخبر (طارق) بأنني كنت هنا، وأنا سوف أعرف بطريقتي.

خبر من المشفى...

استيقظت على رنة هاتفي النقال مساء نفس اليوم على صوت (سوشين) وهي تقول:

- هل ما زلت نائما؟

- ما الأخبار؟

- الوضع مستقر، وأفاقت، لكنها تحس ببعض الألم وخلال أيام سوف تكون في المنزل.

- هل يوجد أي أخبار من الشرطة عن سيارة الحادث؟

- ليس بعد، لكن إفادتك كانت عظيمة، كيف استطعت ذلك؟

- استطعت ماذا؟

- أن تحفظ رقم السيارة المسرعة.

- دعك من كيف وما كان؟ أتمنى أن تنتهي الأمور على خير ما يرام ولا يزداد الوضع سوءا.

- الأوضاع كلها مستقرة، والوضع مطمئن.

- ها أنا أرتدي ثيابي وقادم حالا.

وأنا أرتدي ثيابي يراودني عقلي: لم لا تساعد تلك المسكينة في تخطي أكبر مراحل حياتها؟ إنها بجميع الأحوال في المشفى وقد يستغرق شفاؤها وقتا من الزمن، وفي تلك الأثناء فرصه عظيمة حتى تمد يد العون لصديقة. قد يكون الأمر برمته خطأ وتقع في المحظور أكثر وأكثر، يكفي ما تعيشه من ذنوب، هل تستطيع أن تتحمل ذنبا أكبر؟ عد إلى رشدك فلا داعي من العاطفة الزائدة عن حدها، لربما تكون الكارثة الأعظم، لكنني أعتقد أن (عم جلال) لديه الإجابة على تلك الخزعبلات التي تدور في رأسي، حسنا فليكن عم جلال.

مكالمة القاهرة...

كانت حوالي الساعة التاسعة مساء حينما اتصلت بالحاج (جلال)، أخذ الهاتف يرن على مكتب الحاج (جلال) في دكانه الصغير، حتى قال في صوت يملؤه الغضب:

- لن أقطع صلاتي للرد عليك.

ورفع تلك السماعة القديمة وأجاب:

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام ورحمه الله وبركاته، هتف فرحا: (طارق) كيفك وكيف أحوالك يا ولدي، أين أنت؟

- في تايلاند يا عم (جلال).

- يا خبر، احترس يا (طارق) يا ولدي؛ أنا لا أرتاح لهؤلاء البشر.

- عموما يا عم (جلال) أنا في وضع يقتضي مني المساعدة، وقلت أسألك أولا قبل أن أخطو خطوة.

- ماذا في الأمر يا ولدي؟

رويت له بالتفصيل ووضحت بأنني سوف أساعد تلك الفتاة، وهل في ذلك خطأ!

– يا ولدي تغيير خلقة ما صنعه الله هو الحرام بذاته، وإنما اتفق العلماء ما إن يوجد عضوان ويستحب من الفاعل أن يزيل أحدهم فجائز، إنما تغيير خلقة الله يا بني والعياذ بالله حرام قطعا.

– أشكرك يا عم (جلال)؛ أرحتني من القلق، أنا ذاهب الآن لأتفقد الحالة، وبإذن الله خير.

– دعائي لك مستمر يا ولدي؛ يكفي كرمك هنا وهناك.

شكرته وأغلقت الخط، بكل معاني الكلمة أراحت تلك المكالمة نفسيتي، وإن كنت مترددا في المساعدة، بات كل شيء واضحا أمامي، وبما أنني أستطع المساعدة فلم لا؟

ذهبت إلى المشفى تحدثت مع الطبيب مطولا حيث إن بعض الأفكار تراودني عن تغيير هوية (ناريسارا) الجنسية، ذلك حسب رغبتها الشخصية طبعا، ولديها من الأشعة والتحاليل تؤكد ما أقوله، وأشار لي بأنه يوجد طبيب جيد جدا رغم أنه يافع ولكن

عملياته كلها ناجحة، ودلني عليه حتى أستوعب بشكل أفضل، وقال:

- هو في المشفى هنا، إنه في قسم الجراحة التجميلية الآن، د. (دانيال شيتي).

ذهبت في الحال وسألت عنه في قسم الجراحة التجميلية، حتى قابلته وعرفته بنفسي، تحدثت بتوسع مع الدكتور (دانيال) وشرح لي أسباب اضطراب الهوية الجنسية، وأما عن حالة (ناريسارا) فقال لي: هذا ليس اضطراب هوية جنسية، في حال وجود عضو فإن الوضع يتغير، كل ما علينا هو أن نتأكد بأن العضو المخفي له نفس الاندماج للعضو الظاهر، وهنا نستطيع تحديد الموقف بالكامل من حيث تأدية العملية. سألته في اهتمام بالغ:

- هل بها خطورة على المريضة؟

- إطلاقا يا مستر (طارق)، تستطيع الاعتماد عليَّ.

- إنها ليست فكرة، إنها أمنية المريضة في التعايش مع وضعها الحقيقي، (ناريسارا) مهيّئة نفسيا للتغير، حيث لديها الرغبة في التغير جنسيا، وتريد التخلص من الصفات الجنسية المولودة بها.

وشرحت له كيف أن الحياة الحالية، تشكل عبئا قاسيا عليها جداً.

أشار لي قائلا:

- يجب إحضار رسائل توصية من أساتذة في علم النفس.

- اعتبر ذلك تم.

- تمام، لا يوجد مانع من ذلك.

- حدد موعد العملية وأنا جاهز لذلك.

- هل نتحدث في التكاليف الآن؟

- لا مانع.

- سنجري العملية في (مشفى فيتاني) حيث الرعاية أفضل والإمكانيات أوفر، لكنها نسبيا أغلى من هنا.

- أتمنى أن تعطيني السعر النهائي لكافة المصاريف.

نظر لي.

- تود إضافة مصاريف المتابعة للست شهور بعد العملية لنفس المشفى؟

- كم تكلفتها؟

- خمسون ألفا إضافية.

- والإجمالي؟

قال: أربع مئة وخمسون ألفا بالإضافة إلى الخمسين ألفا، الإجمالي خمسمائة ألف بهت.

- لا مانع، هل نبدأ في الإجراءات؟

- نعم، اليوم أقابل المريضة وغدا نبدأ في الإجراءات الورقية.

ذهبنا لغرفه (ناريسارا) سويا، تحدث معها الطبيب لفترة طويلة، وأفاضت له بكل ما لديها من أحاسيس ومتاعب وكم مشتاقة لأن تعامل معاملة آدمية، وأن تكوّن أسرة ويكون لها زوج وحياة منتظمة.

انتظرت مليا حتى أقابل (ناريسارا)، أنهى (دنيال) مقابلتها المبدئية التي أخذت وقتا طويلا نسبيا لشخص يريد أن يتحدث لمريض، ووجدت أنه أخذ وقته وأكثر، وتساءلت: مسح دموع وإزاحة شعر من العين ذلك محن وليس طبا. في لحظة وأنا

واقف أنتظر، شككت في أسلوب معاملته لها، وفي النهاية أريده أن يقوم بعمله فقط. دخلت و(سوشين) الغرفة ورمقتها بنظرة عطف وحزن في الوقت ذاته حين قالت (ناريسارا):

- طارق، كيف أشكرك؟

- أنا لم أفعل شيئا، القدر أرسلني لك في الوقت المناسب ليس إلا، كيف حالك الآن؟

- أنا بخير، ماذا تفعلون هنا؟

- لن نتركك.

- لا، هل تريد إسعادي أم لا؟

- طبعا.

- اذهبا واستمتعا بوقتكما، وأنا هنا في رعاية طبية ممتازة، أرجوك اذهبا الآن.

- هل أنت بخير؟

- عدا الكدمات فأنا في أحسن حال.

– أنا مطمئن عليك هنا وسوف نتابعك بالهاتف.

نعيش حياة هادئة أنا و(سوشين)، منتزهات وبحيرات وسهر يوميا بين أحضان الطبيعة، ونيران الشواطئ في طبيعة ساحرة. أتحدث يوميا لأمي وأطمئن على أحوال سير العمل بشكل منتظم والحمد لله، يحوم الشرود حول وجهي كثيرا، وكانت هي من تغير من مزاجي، وتباشر راحتي بكافة الطرق، في نفس الوقت أتمنى أن تكون إنسانة أخرى هي التي معي هنا، ووقتا آخر يأخذني الحنين إلى مصر، بيتي وأعمالي، رغم راحتي إلا أنني أشتاق لها.

نعود كي نتفقد حالة (ناريسارا)، ومن الغريب أنني وبعد يومين أجد دكتور(دانيال) يتابع حالتها بنفسه، بل ويباشر التقارير ويتابع العلاج بنفسه أيضا، أولا: قلت بأنه طلب مبلغا كبيرا لذلك يباشر الحالة بنفسه رغم شكي أيضا بهويته، ماذا يفعل؟ كل ذلك المجهود؟ وللعلم لم يحصل على شيء في غضون كل ذلك الوقت.

أعود أنا و(سوشين) إلى أحضان الطبيعة بضع ساعات في المشفى ويوما نختفي، حتى حضر يوما (دانيال) للاطمئنان على (ناريسارا)، فقامت بسؤاله:

- أنا شاكرة لكل هذا الاهتمام، لكنني أصبحت في حالة جيدة لمغادرة المشفى، هل يوجد شيء لا أعرفه؟ إن كنت أعاني من شيء؟ فقط أخبرني أرجوك.

- آنسة (ناريسارا)، أنا لا أخفي عليك قولا، أنت مستعدة الآن لسماع ذلك الخبر، وأعتقد أنه سوف يكون خيرًا لك، لقد اتفق معي مستر (طارق) ومع العديد من الأطباء المختصين، لعملية تحديث الهوية، وقد تم دفع تكاليفها مقدما من مستر (طارق) وأعتقد أنه إنسان نبيل جدا، وأيضا يحب أن يراك سعيدة.

تأثرت (ناريسارا) بذلك واتصلت هاتفيا ب(سوشين) وقالت لها أحضري (طارق) حالا إلى المستشفى، ذهبنا أنا و(سوشين) على عجل، ظننا منا أنه قد حدث شيء ما، نظرت لي (ناريسارا) وأنا على باب الغرفة وعيناها تنفجر منها الدموع، وقالت لي:

- وإن لم تكن تحبني فاعلم أنني أحببتك بألف قلب.

ذهبت نحوها ووضعت رأسها حول خصري وربت على كتفيها وقلت لها:

- لا يستدعي شيئا من ذلك أبدا، ألست صديقتي؟

ذهلت (سوشين) من الموقف، وقالت: ماذا يحدث؟ ألن يجيبني أحد؟

بدأت (ناريسارا) بالحديث بالتايلاندية و(سوشين) يزداد اتساع عينيها أكثر فأكثر، وصرخت صرخة وذهبت وعانقت (ناريسارا) على تلك الأخبار، ثم نظرت لي ووضعت كل ثقلها على صدري في عناق واحد، وكأنها تريد أن تدخل داخل صدري بجسدها.

انتهت اللحظة العاطفية بدخول الدكتور (دانيال) وهو يقول:

- أرى جوا أسريا رائعا، هل أقاطعكم؟

- لا بالطبع، لقد أتيت في الوقت المناسب، ما هي الأخبار؟

- إنها في تحسن مستمر، والأسبوع القادم موعدنا، عندما بلغتها بالأمر، أصبحت نفسيتها أفضل ألف مرة منذ وصولها، وكل ذلك بفضلك يا مستر (طارق).

- أتمنى أن تتم العملية على أكمل وجه، وألا نواجه أي عقبات مستقبلية.

- إطلاقا.

– جيد، وبما أنك وصلت، هل تسمحون لنا بمتابعة السباحة.

ابتسم دكتور (دانيال) وقال: بكل سرور.

– متى يتوجب علينا الحضور تحديدا، لربما كنا على جزيرة ليس بها استقبال؟

– اليوم الثالث من الشهر المقبل.

– وهو كذلك.

استأذننا وخرج من الغرفة، ثم نظرت ل(ناريسارا) وقلت لها:

– خلال أيام معدودة بعد انتهاء العملية سيكون كل شيء على ما يرام، وبالكاد ستحسين أن هناك جرحا أساسا، لا تقلقي، فالعمليات التجميلية تطورت لليوم الواحد.

– كيف أوفيك حقك يا (طارق)؟

– استمتعي بوقتك هنا، حتى موعد العملية، وبعدها نرى كيف نذهب إلى رحله جميعا في أجمل جزر تايلاند.

نظرت إلى (سوشين) موجها حديثي لها:

- هيا بنا أم تريدين الجلوس مع تلك الفاتنة قليلا؟

قالت (ناريسارا) في عطف بالغ:

- هيا اذهبا واستمتعا بوقتكما؛ أنا هنا سعيدة.

نظرت لها بخبث وقلت ل(سوشين):

- هيا نذهب يا (سوشين)، وننادي الدكتور (دانيال).

نظرت (ناريسارا) للنافذة وكأنني لم أقل شيئا، وخرجت (سوشين) خلفي وهي تضحك.

- أين سيذهب بنا الطيار اليوم؟

- سيتم إقلاع الطائرة إلى (خاوسوك)، الرجاء ربط حزام الأمان.

- هذه الجولة كم يوما يا فندم؟

- لنا إقامة هناك غير محدودة.

- لا أفهم!

- عندما نصل سوف تفهم.

بعد رحله شاقة استمرت طويلا بين سيارات أجرة وحافلات عامة، وقوارب بحرية.

سألت (سوشين):

– لماذا لا نأخذ سيارة لوجهتنا؟

– الاستمتاع بالرحلة فقط يكون هكذا.

بعد معاناة وصلنا إلى قرية نائية، يكثر بها الأفيال.

– أين نحن؟ وماذا نفعل هنا؟

– يحضر الناس من كل أنحاء العالم إلى تلك الجزيرة، أما نحن سنقيم هنا كما شئت.

– كيف؟

– عمتي لها منزل هنا وبعض الأفيال التي تساعد الزوار في التجول بالجزيرة، والتمتع بها.

– وعمتك تقطن هنا؟

– نعم، وهذا منزلها أرض واسعه تحيط بها الخضرة والأشجار، وتتجول بها الفيلة المدربة على حمل السياح بغرض التنزه.

حضرت عمتها لتحيتنا، دار بينهما حوار طويل ثم قالت عمتها لنا أن ننصب خيمة بالقرب من منزلها، وقد كان.

لا أعلم هل أستطيع تحمل تلك الحياة البدائية أم لا؟ فقد كانت الحياة حولنا ليس بها أي ذرة من التقدم، والحياة المرفهة التي نعيشها في النهار أخرج مع الشباب لتولي قطع الأشجار، والعناية بالأفيال. رأيت من الحياة بدائيتها والأسلوب البدائي للتعايش مع الظروف المحيطة.

اقتربت مني سوشين وقالت:

- لدينا زيارة.
- أين؟
- هيا بنا.
- أين سنذهب؟

– سوف نأكل في مطعم (خولا كفيو بوينت) ثم نرى الموقع التذكاري لحادث تسونامي، وبعدها نأخذ قاربا في النهر ونقضي باقي اليوم هناك في أحضان الطبيعة.

لم تعد حياتي كما كانت وأصبحت أكتسب يوميا خبرات جديدة، عرفت حقا ما معنى كلمه كفاح للبقاء، وأيضا معنى أن تكون مولودا في تلك الحياة وفي فمك ملعقة من ذهب. كيف كان الإصرار والصبر وبمرور الأيام أصبحت بالفعل إنسانا بدائيا، أتحمل كل شيء، وتذكرت كيف كانت أعباء الحياة مجرد نوع من أنواع التسلية، وأن ما عشته في حياتي لم يكن سوى مجموعة مراحل من الرفاهية، وأن الحصول على لقمة العيش دون أرصدة بنكية صعبة وقاسية، رغم علمي أنني سوف أعود للفندق وأدخل صالة الجاكوزي، وأنام على وسادة من ريش النعام، إلا أن فراق تلك الحياة البدائية أثرت في شخصيتي وأصبحت أكثر همجية وتوحشا من ذي قبل. عدنا إلى الفندق لكنني تركت نفسي هناك، وأدرت ظهري لكل الأحلام التافهة خلف ظهري، وعلمت أن تلك الرحلة كانت مقدرة من الله حتى تلفح النيران جسدي لمعرفة معنى الصبر.

وها غدا موعد العملية، لم ننم ليلتها أنا و(سوشين)؛ فقد كانت تنظر لي طوال الليل بنظرات لم أعتد من شخص أن ينظر لي بها، لا أعلم فحواها! لكنها مزيج من حب وإعجاب، ولست ضليعا في لغة العيون، لكنني لم أر أنثى تحاول إرضاء شخص مثلما تفعل هي الآن.

نظرت لها بابتسامة وقلت لها:

- لماذا تنظرين لي هكذا؟

وقتها أصاب قلبي سهم لأنني أخاف من إجابة هذا السؤال.

- أحبك.

وقع قلبي وقتها في قدمي، لأني وأنا أسأل السؤال لم أتخيل الإجابة بهذا الشكل السريع، ماذا سيكون رد فعلي الآن؟

أبحث عن ثغرة للهرب ولا أجد، لكنها أكملت باقي كلامها الممزوج بحشرجة في صوتها:

– أعلم أنك لن تقول لي تلك الكلمة، وأعلم أنك إن قلتها لي، فليس بها أي نوع من الالتزام مطلقا، لكنني أردتك أن تعرف ذلك.

لا أعلم وقتها إن كان احمر وجهي خجلا أم لا؟ لكن ما أعرفه أن بركانا قد اشتعل في رأسي، لا أستطيع إخماده. بيد مرتعشة وشفاه ملتهبة مدت يدها تداعب صدري، تقترب مني وتتحسس جسدي وتخدشه بأظافرها، برزت حلماتها وهالات ثديها من أسفل ذلك القميص الشفاف حينما أزاحت ذلك الغطاء الملفوف على جسدها، فارتعشت أوصالي أكثر وأكثر، فأخذت أقبل الثلم بين نهديها بتوحش أسد جائع، أقتحم كل مداخلها رغبة في الخلاص من ذلك البركان الثائر في رأسي، تتمايل وتتمايل معها شهوتي، لم تتوقف ثانية واحدة من أعلى لأسفل، إلى أن قلبتها بيدي وأمسكت خصلات شعرها حتى أتمكن منها، فتنحني وترتفع وتخرج الآهات فتلهب إحساسي بها ويدل ذلك على متعتها الخالصة، إلى أن انتهينا وغاصت مجددا في صدري دون حركة.

بادرتها بسؤال:

- إن لم أكن ذلك الشخص الثري صاحب الأموال، هل كانت تلك الفكرة راودت مخيلتك؟

- إن حسبتها بالمال فحسبتك خاطئة.

منذ أول يوم ضممتني إلى صدرك، وأنا لا أريد منك مالا، كنت أريدك، أريد رجولتك وقوتك التي فتكت بي، وعندما أعدت لي مالي، أحببت كرمك وجودك، رغم محاولاتي بأن تقبل مني أي شيء، عندما ضممت (ناريسارا) وحملتها للمشفى، لم يستطع أحد أن يتصرف مثل تصرفك، وعندما قالت لي بأن مصروف المشفى وعمليتها التي نحاول من فترة ادخارها بسبب مرض أمي المستعصي وقمت بدفع التكاليف بالكامل، وجدت أن مالك لا يساوي ذرة من عطف قلبك، أنت لك قلب كبير جدا يا (طارق)، سعيدة الحظ من تظفر به. قربت إليَّ أكثر والتصقت بي وهي تحاول جاهدة منع دمعة من أن تسقط على خدها، وتسقط ومعها الكثير، مسحت دمعتها بيدي، وضممت رأسها إلى صدري، فأجهشت بالبكاء، ولم تنتظر لعيني.

قلت لها في محاولة مني لإسعادها:

- هل أحكي لك كيف تعرفت على أختك؟!

نظرت لي وعيناها تملؤها الدموع وقالت:

- كيف؟

- هذه العيون الجميلة لا تبكي. ومسحت عينيها بيدي.

- أنت خدعتني حتى أنظر لك.

وأخذت أحكي لها ما حدث يومها، واستمرت ضحكاتنا حتى استوقفتني وقالت:

- (طارق) ما هو عملك؟

- أنا لم أخبرك من قبل؟

- لا.

- لدي سلسلة مطاعم في مصر وبعض الدول العربية.

- أنت لديك مطاعم؟

- وما في ذلك؟

- لا تبدو كصاحب مطاعم، تبدو من أول وهلة بملابسك المتأنقة طبيبا أو موظفا حكوميا مرموقا أو أستاذا جامعيا، لكن صاحب مطاعم لا.

- وها قد تغيرت على يدك، كمشرد في الطرقات.

ضحكت ضحكة طفولية، جعلتني أطبع على رأسها قبلة وقلت لها بلهفة:

- هيا.

- ماذا نفعل؟

رمقتها بنظرة مغرية، أحاول تقليد صوتها: هيا ندخل الحمام سويا ونحافظ على الماء. همّت بضربي، لكنني هربت منها وهرعت إلى الحمام ودخلت خلفي لتجد المياه موجهة إليها، وامتزجت ضحكاتنا مع رشرشة المياه، لم أستطيع التوقف عن تقبيلها، وافترشنا الأرض سويا تاركا يدي تتجول على نهديها بحرية، والماء يتساقط على أجسادنا، تلف قدميها حول رقبتي وتترك لي المجال أسهل لأخذها بقوة، حتى إنني نزلت بساقيها إلى وجهها لأقبلها، فجعلني ذلك أقرب منها إليها وكأنني ألامس جدارها

لآخره، وتتهافت إلى قبلاتي بجنون، كلما تمايلت للأمام والخلف وبآهاتها تزداد نشوتي.

تفتح (سوشين) عينيها، تجدني أرتدى ملابسي، فتقول لي بدلالها المعهود:

- صباح الخير يا (طارق)، كم الساعة الآن؟

- صباح الخير يا (سوشين)، إنها السابعة صباحا وموعد العملية التاسعة، هيا تأخرنا.

- تأخرنا على ماذا؟ (ناريسارا) هي من تقلق، وليس أنت!

- قومي وكفى كسلا، لا بد أن نكون معها أيتها الناعسة.

قامت في دلال معهود، ومدت شفتيها طالبة قبلتها الصباحية، ذهبت وأخذتها بين ذراعي، وأعطيتها ما أرادت وزيادة.

وصلنا إلى المشفى الساعة الثامنة إلا الربع، ووجدنا العديد من الأطباء في غرفة (ناريسارا)، فسألنا الممرضة:

- من هؤلاء؟

- دكتور النفسية والعصبية والدكتور (دانيال) ودكتور التخدير ينجزون أعمالهم وهذه أول مره يهتم الدكتور (دانيال)، يبدو أن المريضة من معارفه، نظرت ل(سوشين) ورددت الكلمة خلفها:

- من معارفه؟

ابتسمت ابتسامة خبيثة وانتظرنا حتى خرج الدكتور (دانيال) وقال لي:

- مرحبا مستر (طارق)، (ناريسارا) حالتها المعنوية مرتفعة، أتمنى ذلك دائما.

- ما دمت من سيحقق رغبتها سوف تكون دائما هكذا.

- سأسبق أنا لتجهيز غرفة العمليات،

- أشكرك يا دكتور.

فتحت باب غرفة (ناريسارا) وأنا مبتسم، ندهت اسمي كالأطفال:

- تعال هنا. (وأشارت إلى سريرها)

قفزت إلى جانبها وأنا أقول: ماذا؟

- كيف أسدد دينك؟

- لا تكوني غبية، ودعينا نتمتع بيوم ولادتك.

- اليوم الذي رأيتك هو يوم ولادتي الحقيقي.

- لا تذكريني بذلك اليوم. (وطبعت قبلة على رأسها)

- البطلة مستعدة؟

- وأكثر.

- الرجاء ترك الغرفة للمريضة، حتى تغير ملابسها.

- المريضة؟ اليوم أخيرا سيدعونني بالمريضة، ولن أقبل بغير ذلك.

- لا، سنظل معها حتى تغير ملابسها.

ضحكت (سوشين) وسحبتني.

خرجت أنا و(سوشين)، وهي ممسكة بوسطي لا تريد أن تتركه، وأنا أبتسم وأقول لها:

- لا أستطع المشي.

- وأنا لا أريدك أن تمشى.

ابتسمت وسألت ممرضة تمر، قلت لها:

- نستطيع استخدام تلك الغرفة حتى عودة المريضة؟

ضحكت بشدة وقالت:

- ممنوع وغير مسموح.

ظنا منها أننا عاشقان ولم نجد مكان يأوينا.

حتى تحدثت معها (سوشين) بالتايلاندية، وردت الممرضة عليها وأشاحت بيدها أن أغلقا الستائر. انتظرنا حتى خرجت (ناريسارا) على مقعد متحرك إلى غرفة العمليات، بعدها سحبت (سوشين) من يدها ودخلت إلى الغرفة، وأغلقت الستائر.

قالت لي وضحكاتها تتعالى:

- أفهمت ما قالت؟

- نعم، لقد أصبحت تايلاندي الجنسية. (وأنا أقبلها)

دخلت الممرضة بعد ساعتين علينا ونحن نائمان، عرايا، همت بإيقاظنا،

فقال لها د. (دانيال):

- اتركيهما، سوف أخذ المريضة إلى غرفة أخرى.

فتحت عينيَّ على الساعة، تشير للثانية بعد الظهر، أيقظت (سوشين) وقلت لها في لهفة عارمة وذعر:

- الساعة الثانية.

- خرجت من غرفة العمليات أم لا؟

ارتدينا ملابسنا على عجل، وذهبنا أمام غرفة العمليات، سألنا عليها، قالوا خرجت من ساعة، نظرت ل(سوشين) وقلت لها: خرجت من ساعة! وجدتنا في غرفتها تركت المشفى ورحلت؟

جاء صوت من خلفنا يقول:

- وجدناكما مرهقين جدا، أمرت ألا يزعجكما أحد.

نظرت وجدت دكتور (دانيال) خلفي، قلت له:

- أين هي؟

- في غرفة رقم أربعمئة وستة عشر، لا تقلق دع (سوشين) تذهب لها وأنا أريدك يا مستر (طارق) في موضوع مهم.

أحسست بشيء، اعتقدته في نفسي ولم أصدقه، لكن ممكن.

دخلت (سوشين) إلى (ناريسارا)، وهي مصفرة الوجه من الإرهاق.

وأخذت تروي ل(ناريسارا) عما حدث معنا، وسألت (ناريسارا):

- أين (طارق)؟

- قادم حالا، لن يتأخر، يتحدث للطبيب.

دخلت الغرفة وسألت:

كيف حال القمر؟ أجابته (ناريسارا): أنا بخير. ثم هتفت:

- أين كنت؟

- كنت أتحدث للدكتور (دانيال).

- عما تتحدثون؟

تنحنحت في تجلي، وكأنني ولي أمر (ناريسارا)، لا أعرف كيف أبدأ الموضوع، وسكت مرة أخرى ثم أكملت:

- دعينا نتحدث ببساطة، دكتور (دانيال) معجب بك، وسألني إن لم يكن لديك مانع في الزواج منه.

صرخت (سوشين) في فرحة واحتضنتني، ثم سألتها:

- ما رأيك؟ إنها فرصة عظيمة، شد وشفط دهون، وجراحات تجميلية مدى الحياة مجانا.

- ما رأيك أنت؟

- لقد سمحت لنفسي أن أسألك، علما بأني لا أعرف هل يستطيع الدكتور دانيال التحدث مع ولي أمركم!

(ناريسارا) في غضب:

- وهل فعل أقرباؤنا مثلما فعلت أنت لنا؟ أريدك أن تكون ولي أمري.

ابتسمنا أنا و(سوشين)على الرد موافقة بعفوية.

- هل أخبر الدكتور دانيال بذلك؟

- بماذا؟

- بالموافقة.

- كيف عرفت أنني موافقة؟

- أنا ولي أمرك وأقول: إنك موافقة.

ابتسمت لها وابتسمت لي، وخرجت من الغرفة وأنا أنظر لها.

جزر تايلاند...

مر أسبوع أخر ممتع، تنقلنا فيه أنا و(سوشين) للمبيت بين جزر تايلاند الخلابة، بين الطبيعة الساحرة والأشجار. تمتزج الطبيعة في تايلاند لتصوير أبدع المشاهد التي رأيتها في حياتي إطلاقا: مياه صافية، رمل أصفر تعشقه العين، وطبعا الوجه الحسن. فكانت (سوشين) تشع نورا يوما بعد يوم؛ فقد كانت أسعد لحظات حياتها، وهي بجانبي، لا أعلم كيف أنها إنسانة متجددة ونشيطة وتباشر عملها أيضا وأجدها صارمة جدا في موضوع عملها؟ هي ضحوكة وذات وجه بشوش. علمتني كيف أعيش الحياة بحرية وعفوية.

أتتنا مكالمة من (ناريسارا) بأنها اتفقت مع دانيال على ميعاد الزواج، تهللت أساريرنا من الفرحة وركبنا اليخت المتوفر وعدنا إلى منزلهم.

العروسة...

وجدنا (ناريسارا) في أبهى حالاتها، وهي تقف أمام المرآة وتقول:

– أنا عروس، لقد قررنا أن يكون الزواج الشهر المقبل.

– مبروك يا (ناريسارا) كنت أتمنى أن أكون هنا، لكن طائرتي بعد ثلاثة أيام، أتمنى لك حياة سعيدة.

– مستحيل، لن تتم تلك الزيجة وأنت غير متواجد.

– لماذا؟

– أنت ولي أمري، كيف سأتزوج من دونك؟

– وماذا في ذلك؟

– لن أتزوج.

وفجأة رفعت هاتفها واتصلت ب (دانيال) وروت له ما حدث، واتفقا أن تتم مراسم الزواج بعد غد صباحا، علما بأن العملية سوف تأخذ وقتها حتى تتعافى (ناريسارا) من جروحها، فلن تذهب بيته لذلك الحين، وهنا نظرنا ل(سوشين) وعينها يملؤها البكاء. قامت (ناريسارا) وربتت على كتف أختها، وقالت:

– أنا أعلم ما يدور بخلدك، لكن هذا ليس بيدينا، إنها حياته ولا بد أن تسير.

– أعلم، لكنني سأفتقده جدا.

حاولنا بقدر المستطاع اختيار الملابس لتلك المناسبة العظيمة، فلم نجد سوى محل قديم في (بتايا)، يؤجر بدل وفساتين السهرات، استأجرنا فستانا جميلا ل(سوشين) وبدلة لي، وكنا ثنائي رائعا. ونحن في غرفة القياس، راودني وجه (أميرة) في المرآة خارج المتجر، تركت المتجر وهرعت للخارج، وجدت فتاة تسير بمفردها في الطريق، ذهبت خلفها وأمسكت ذراعها، فخلصت ذراعها من يدي وهي تقول بلغة أهل البلاد كلاما لم أستطع فهمه، لكنني أحسست بأنها كلمات إهانة أو نوعا من الاستنكار البذيء، فتأسفت لها، وعدت إلى المتجر، أصبح موقفي صعب التفسير جدا، كيف أروي ما حدث أو حتى أسبابه؟ انتهينا من المتجر حيث عدنا إلى الفندق دون تعليق واحد مني بسبب ما حدث.

قضينا الليلة كاملة برفقة (ناريسارا) و(دانيال)، تنقلنا في غالب حانات المنطقة إلى أن أسقطت (سوشين) حبة صغيرة كحبات

الأرز في مشروب الفودكا، وكانت أول ليلة أشرب فيها بكامل إرادتي، ولم أحب الفكرة لكن اليوم احتفال زواج صديقتي المقربة ولن أفوت تلك اللحظات بدون إثارة، مع إلحاح (سوشين) و(ناريسارا) احتسيت القليل، ولكنه كثير، وذلك حتى اندمج الكثير بالقليل وأصبح أكثر بكثير، كأس وراء كأس والعالم من حولنا يهذي، ونحن أصحاب العرس ونحن أصحاب المكان، تعالت ضحكاتي ولأول مرة أجد الموضوع به شيء مثير للدهشة! وللتساؤل حقا، هههههه ماذا كانت الفكرة وما هو ذلك السؤال؟ لا أعلم، لم أبال بما كنت أفكر، تلك اللحظة التي نعيشها، لن تتعوض ولن تتعوض نشوتها، رحت أركض كحصان سريع في سباق ما بيني وبين (دانيال) وفزت، وكانت نهايته البحيرة وقد وصلت و(سوشين) خلفنا ببطء رفقا ب(ناريسارا)، لم أقاوم نفسي وأنا أخلع ثياب (سوشين) على ضفة النهر، وهي تضحك وتهمهم ليتك شربت منذ زمن، وأتتني فكرة ممارسة الجنس معها خلف إحدى الأشجار العملاقة، وقد كان وعندما انتهينا لم نجد (ناريسارا) و(دانيال) على شاطئ النهر، فقد وجدناهم عرايا داخل النهر ليلا، ملابسنا جميعا على ضفة النهر ونحن نسبح ولا نعلم ماذا نفعل؟

نسبح هنا ليلا وتملأ ضحكاتنا المكان وفجأة أفيق على سؤال:

- (دانيال)، هل الذي نفعله به خطورة على عملية (ناريسارا)؟

ضحك قائلا:

- لا تقلق يا صديقي، فتلك السيارة أنا من عدل ماتورها.

وانفجرنا ضحكا مرة أخرى، وكانت الكلمات عفوية بدون أي تجمل أو تظاهر بأي انفعالات شكلية، ولا مجاملات ولا مصالح، ولا أجور أو مرتبات، ولا عمالة ناقصة ولا ضرائب، ولا ميزانية سنوية ولا تصريحات، ولا أي شيء، فقط متعة مطلقة وإحساس بالنوم.

استيقظت على مناداة (سوشين) لي المتكرر بقلق:

- (طارق) ماذا حدث لك؟ صباح الخير يا حبيبي، كيف كانت الليلة السابقة؟

- صداع رهيب يعتصر رأسي ألما، ما كان هذا الذي شربناه؟

- المشروب الوطني مع الإضافات.

سألتها: وما كانت الإضافات؟

لم أفهم الكثير أكثر من أنها حبوب للهلوسة، لا يستمر مفعولها أكثر من ساعتين.

قلت لها بتوسل:

- فنجان من القهوة إذا سمحت.

- أنا كلي لك إن أردت.

- تلك قبلتك مبدئيًا، وأريد قهوتي بعد الحمام من فضلك.

دخلت مسرعا إلى الحمام ووقفت أسفل المياه لعل رأسي تهدأ قليلا، أنجزت على عجل؛ لأنني أشتاق القهوة حتى أفيق من ليلة أمس، خرجت من الحمام لأجد (سوشين) تمسك هاتفي،

تنظر لي وتقول:

- كابتن مروان يعلمك بأنه سوف يكون جاهزا العاشرة صباحا للوجهة المطلوبة.

تركت الهاتف من يدها وجرت متأثرة للحمام، دخلت خلفها بعد برهة لأجدها تجهش بالبكاء ولا تتوقف، احتضنتها من ظهرها.

- ألا يكفيك ذلك؟ لقد ملّت مني زوجتي في أقل من ذلك.

– بصوت مبحوح: تلك المرأة مجنونة؛ قد رضيت بالانفصال عنك.

– صدقيني لو كنت عرفتني منذ فترة كنت قلت عكس ذلك، صدقيني سوف نكون مع بعض في ذاكرتنا للأبد، ولن تعبث الأيام بنا، وكلما تذكرتني بعد عمر مديد، سوف تتذكرينني شابا كما أنا ولست ذلك الكهل العجوز.

– لكنني تمنيت أن ...

– سوف أطلب لك القهوة.

أخذت (سوشين) حقيبتها.

– سأنتظرك هناك حتى تحضر أنت و(دانيال).

وأغلقت الباب خلفها بعد نظرة تنم عن حزن.

لم تمر النصف ساعة، حتى وصلت إلى منزل (دانيال) وأنا أحمل الأزهار بيدي، ابتسم وقال لي:

– والأزهار أيضا؟ ذلك كثير جدا يا (طارق).

– هذا شيء بسيط.

أنهى ارتداء ملابسه وقال:

- أنا جاهز، هيا بنا.

وصلنا لقارعة الطريق، وجد (دانيال) سيارة (بي أم دبليو) أمام الباب؛ استأجرتها من الفندق للعرس.

فتحت الباب (لدانيال) قال لي:

- لا، سوف أجلس بجانبك.

- كيفما تشاء اليوم يومك.

وصلنا إلى مكان الاحتفال وتوقفنا بالسيارة وسط إعجاب الجميع، رغم أنهم قلة لكن كانت الأجواء رائعة جدا، وصلنا أمام القس وانتظرنا، وجدت طفلة تمسك بيدي وتسحبني خلفها حتى أخر السجادة الحمراء، ودخلت بي يسارا، وجدت (ناريسارا) في سيارة ولا تريد أن تترجل عنها سوى بوجودي.

قلت لها بصوت منخفض:

- ما بك يا مجنونة؟

- لن يدخل بي المذبح أحد سواك.

- إن هذا لا يصح بوجود أقاربك هنا.

- أبدا، لن يحدث ذلك، وأن لم يحدث سأعود من حيث أتيت.

- حسنا أيتها المجنونة، هيا؛ لقد تأخرنا كثيرا، وذلك ليس فأل خير.

نزلت من السيارة بدلال، وهي تضع يدها بيدي. بدأنا السير في خطوات منتظمة، وقف الجميع وبدأت الموسيقا بالعزف حتى وصلنا لنهاية الطريق، سلمتها (لدانيال) بعد ما سلمت عليه، وبرغم كل أملاكي وإدارتي لم أحس بالمسئولية مثل ذلك اليوم، أحسست أنني غيرت من حياة أناس بائسة إلى سعيدة ومن جهة أخري من حياة سعيدة إلى بائسة رغما عني، والأسوأ أنه بنفس اللحظة لم يكن قصدي تعذيبها، ولا إهدار وقتها، لكنني كنت أحتاجها جدا ولم تكن لتكون رحلة بدونها، نفس اللحظة التي أفكر فيها كان قد عقد قران (ناريسارا) و(دانيال)، والغريب والعجيب أنني لم أجد (سوشين) حولنا، وأعتقد أنها لم تحضر، أين هي؟ لقد احترت في تلك الفتاة؛ أي كارثة تحضر الآن؟ أنظر يمينا ويسارا باحثا عنها، ها هي، وجدتها تقف مع أحد

زملاء (دانيال)، قبلت (ناريسارا) وأعطيتها هدية زفافها وسلمت على (دانيال) ورحلت بهدوء.

رغم أننا لم يكن بيننا علاقة من أي نوع، لكن انتظرت أن تأتي معي في أخر ساعات أقضيها في تايلاند. ذهبت (ناريسارا) تتفقد (سوشين)، وجدتها تبكي على مقعد بعيد في أخر مدرج الزفاف،

قالت لها (ناريسارا):

- لماذا لم تذهبي مع (طارق)؟ إنه أخر يوم له هنا، لماذا أنت عنيدة بذلك الشكل؟

- لقد حاولت إغواءه، فتركني وذهب، كنت أتمنى أن يأخذني بين ذراعيه ويقول لي سأظل معك إلى النهاية.

- أي نهاية يا (سوشين)؟ (طارق) صديقنا ولا نستطيع أن نغير ذلك، فهو لم يغير من تقاليده وعاداته، ونحن لن نستطيع إجباره على ذلك، أرجوك أعيدي التفكير وارحمي عيونك من البكاء.

خرجت من حفل الزفاف إلى البنك ومن البنك إلى الفندق حيث أوظب أمتعتي تأهبا للرحيل، دق الباب فإذا هي (سوشين)، تقف خلفه مترقبة، نظرت لها وسألتها:

– ألم يكن معك مفتاح للغرفة؟ لماذا لم تفتحي مباشرة؟

– خفت ألا تريد أن تفتح لي الباب.

وكأنها تترقب رد فعل معاكس، ومنه إحساس بالخوف.

– لماذا تقفين هكذا؟

– بسبب ما فعلت في حفل الزفاف، (ناريسارا) أيضا غاضبة مني بسبب عدم وقوفي جانبها، ولقد تأثرت كثيرا ولامتني حقا.

– أرجوك اجلسي، أنت تعلمين كم أنك قريبة إلى قلبي، وكم كان الوقت الذي أمضيناه سويا ممتعا للغاية، لن يكون سهلا عليَّ ولا عليك نسيانه، تلك الأوقات ستسعدين بها عندما تتذكرينها، خذي هذا لك.

– ما هذا؟

– هذا حقك في اتفاقنا، ألا تتذكرين؟

– أما كفاك ما دفعت ل(ناريسارا)؟

– عمليتها من صديق لصديقة، ليس هناك اتفاق، ولكن ما حدث واتفقنا عليه قائم.

نظرت لي بعين يملؤها الألم والحزن وقالت:

- خد مالك وابق أسبوعا أخر.

- ليلتي بعشرين ألف بهت، وذلك لك فقط، هل لديك ما يكمل الأسبوع؟

- أنا ومالي وكلي ملكك، أرجوك يا طارق لا تتركني وترحل، طبعت قبلة على جبينها وشرعت في تحضير ملابسي مرة أخرى.

- ما هذا؟ كل ذلك المبلغ؟ إنه كبير جدا.

- إنه مئة ألف بهت فقط، لقد وجدت فرق اتفاقنا ليس كبيرا جدا، واعتبري أنها فقط هديتي لك، أنت لا تدرين كم أسعدني لقاؤك والبقاء معك تلك الفترة، أم أنك لا تودين أن ترافقيني مرة أخرى في زيارتي القادمة؟ عسى أن أجدك متزوجة ولديك أطفالا.

نظرت خلفي بعد لحظات ولم أجد (سوشين)، فقط وجدت الظرف ولم أجدها، أعتقد بأنني جرحتها مرة أخرى، وأنها توهمت بقائي أكثر من ذي قبل، ليتها تفهم أنها مميزة حقا وأن بقائي في نفس الوقت مستحيل، فتحت باب الغرفة لعلها قريبة، فلم أجدها،

وكأنها طارت أو تبخرت بدون إنذار، أغلقت الباب خلفي، وشرعت في إتمام ما بدأته.

اتصلت هاتفيا ب(ناريسارا) وسألتها عن (سوشين).

- إنها في المتجر وغاضبة جدا.

- هلا تأتين معي ونذهب لها؟

- سأوافيك عند ردهة الفندق بعد خمس عشرة دقيقة.

ابتسمت (سوشين) عندما رأتنا سويا ونظرت إلينا، ثم قالت:

- نفس البداية هي هي النهاية، ألم تحضروا في أول الأمر سويا؟

- ها قد عدت مرة أخرى، تعلمين أن ذلك المال حقك، لماذا تركتِه؟

- لأنه ليس من حقي، ولا أريده.

- حسنا.

ورفعت يدي كي أصفعها فانكمشت في نفسها، اجتذبتها إلى صدري، وهمست في أذنها:

- ذلك حقك علي، أم أنك تريدين أن أدفع ثمن وجبة المشاوي التي أحضرتها في الفندق؟

ابتسمت في حنان وقالت:

- هل اشتريت لحظات جميلة بذلك المال؟

- قد اشتريت أجمل ذكريات حياتي بذلك المال، ولماذا خلق المال؟ لنسعد به ونسعد من نحبهم، هل سنقضي أخر ليلة لي في تايلاند هنا؟ أم نحتفل بالعروسين؟

ذهبنا للعشاء في مطعم راق، وقد وافانا (دانيال).

هناك وكما بدأت لحظات سعيدة انتهت بلحظات سعيدة أيضا، نظرت إلى جميع الموجودين بابتسامة عريضة ومضت أول الرحلة كالبرق، تايلاند بلد لا تنام، وكذلك كان حالنا أنا و(سوشين)، لن ننام بدورنا. تمنت أن تتأخر الشمس عن الشروق، لكنها أشرقت في موعدها.

همست لي برقتها ودلالها المعهود:

- (طارق).

- نعم.

- هل سوف أراك مرة أخرى أم سأمضي باقي أيام حياتي في ملل.

- لماذا تقولين هذا؟

- لا أدري، لقد تعودت على وجودك في حياتي، (طارق) أنا أحبك.

- وأنا أيضا أحبك يا (سوشين)، لقد قضيت معك أسعد لحظات عمري، لم أتخيل في يوم أنني سوف أحظى بكل ذلك الاهتمام. منذ وصولي وأنت لي كل شيء، لم نفترق لحظة وذلك ما جعل لرحلتي طعما وجمالا خاصا لا تمحوه أي سنين قادمة، فقط ذكرى جمالك وحدها تجعلني سعيدا.

- (طارق) لا تغادر أرجوك.

- (سوشين) لقد حضرت إلى تلك البلاد وأنا لا أعلم عنها شيئا، ولا أعلم لحياتي بداية أو نهاية، من أين أبدأ وأين!

سوف أنتهي؟ لكنني لدي الكثير لأتعلمه وأراه وقد عزمت على ذلك، أريد أن أرى الدنيا بمنظور مختلف؛ كنت أعيش حياتي بأسلوب مختلف، أسلوب ممل وخانق، أريد أن أغير حياتي، أريد أن أرى الكثير قبل أن أعود إلى بلدي مرة أخرى، وأتمنى منك أن تتفهمي ذلك.

- ليت الليل يدوم.

لكن الحقيقة، أن الشمس لم تتأخر عن توقيتها، ولم يتأخر النهار.

لم أرد من (سوشين) أن ترافقني للمطار، رغم إلحاحها الشديد عليَّ، وكانت لحظات أصعب بسبب عنادها، رافقتها إلى منزلها بسيارة أجرة، نظرت لي نظرة إن تملكها نساء الأرض تغمر الرجال بالدفء وتضفي على الكون هالة من الحب الأبدي، كلَّما اقتربنا إلى بيتها زادت الدموع المكبوتة، أراها لكنها لا تريد أن تسقط، حاولت جاهدة قدر استطاعتها أن تكبت انفجارا بركانيا يحشرج صوتها.

نظرت لي وقالت:

- لن أبكى يا (طارق).

- نعم أعلم، أنت فتاة قوية.

في وهن غير معهود على شخصيتها قالت: تمنيت الكثير من الأشياء تحدث.

- أعلم.

- لا، أنت لا تعلم. تمنيت أن تمشي من هنا دون أن أودعك أو أكون معك في أخر ليلة، تمنيت أن أراك مع أخرى، وأن تضاجعها بحضوري أو تضاجعنا سويا، وتمنيت أن تكون كباقي من نراهم هنا، تشرب حتى الثمالة وتتباهى بأموالك يمينا ويسارا على فتيات الليل وطاولات القمار، أو تتباهى ببيتك وأنك ابن فلان، وتمتلك كذا كباقي أصحاب الملذات والنفوس الضعيفة الذين يستطيعون دفع أموال كثيرة للحصول على كل شيء زهيد، لم نشعر بأنك تشتري المتعة في أجسادنا، إنما أحسسنا أنك تشتري سعادتنا بمالك، ليتك كنت حقيرا بائسا، تبحث عن الجنس وتشتهيه، لتبقى كل ليلة في أحضان عاهرة تملكها يوما وتملك

غيرها يوما أخر، ليتك قلت لي إنك خائن لزوجتك، لأنك لا تجد معها الراحة أو تتمنع عليك بشهوة هي تكرهها، أو إن إحساسك بها أصبح معدوما، لقد كنت صريحا معي منذ البداية، وها هي النهاية تمضي في حال سبيلك، ولا أعلم كيف أوقف نزيف الحب من بعدك. اذهب ولوّن الدنيا بحب قلبك وسوف ترى السعادة قادمة لك من كل صوب، لأنك لم تبخل على نفسك بإسعادنا ولكن فضّلت بيتك على حبي لك، أكملت بعد ذلك بعنف:

- قل: هل أنت متزوج يا (طارق)؟

- لا، أنا لست متزوجا.

- لن تتغير، لن يستطيع أحد تغييرك، كنت أتمنى أن تكذب عليَّ حتى أسير في طريقي وأنا أحبك فقط، أتمنى لك التوفيق في رحلتك القادمة، لن أقول وداعا لربما أجدك في أحلامي مرة أخرى.

نزلت من السيارة ولم تنظر خلفها، أعتقد أنها لم تحب أن أراها والدموع تتساقط من وجهها، إنه كبرياء المرأة يجعلني دائما في انبهار مما تستطيع فعله وتحقيقه، ذلك المخلوق الرقيق الذي لا

تستطيع عواصف الدنيا دفعه للانحناء، سارت أمامي بشموخها وثقتها ودلعها المعهود، وأنا أهمهم في هدوء: وداعا يا (سوشين).

فقط ذهبت إلى بيتها متأثرة بجراح لست أنا السبب فيها، أعتقد ذلك. من بيتها وإلى المطار لم أستطع التركيز على شيء سوى أنني فطرت قلبا لا ذنب له سوى حبي، أم أني كنت أنتقم من (أحلام) في (سوشين)؟ أم أنني لم أحبها؟ من قال ذلك؟

أحببتها جدا: جمالها، دلالها، كل شيء بها أحبه، لكني أولا وأخيرا لن أستطيع تأسيس بيت معها، لا يصلح؛ هناك الكثير والكثير من القيود التي تعودنا عليها في بلادنا، لن تستطع تحمله، ذلك أفضل لي ولها غدا. وكما كانت (ناريسارا) في حلم بعيد تحقق في لمح البصر، ولا شك أن (سوشين) سوف تنساني في غضون أيام معدودة، وسوف يأتي نصيبها من شخص تحبه أيضا وتهتم به. وها قد وصلت المطار لأودع أخر لحظات ربطتني بذلك البلد الرائع، ومنذ وصولي لصالة المغادرة كنت أتحسس تلك الحقيبة العائدة إلى مصر بها بعض الهدايا لأمي من تايلاند، أتمنى أن تحوز على رضاها؛ فهي قليلة الطلبات ولم تشتك عمرها من شيء. استقبلني الكابتن (مروان) وعلى

وجهه علامات الدهشة؛ أرتدي بنطالا ممزقا، تي شيرت ليس مقاسي، ونظارة عصرية صناعة حواري بانكوك، ليس كما اعتاد لقائي. نظرت له بابتسامة ظريفة وقلت له:

– التغيير مطلوب، أليس كذلك؟

رد بابتسامة عريضة يملؤها الترقب في المقابل، وهو يقول:

– بكل تأكيد، يا فندم بكل تأكيد.

دخلت الطائرة وكأن لي شهرا أسير على يدي وقدمي، متعب لدرجة كبيرة وكأن لي شهورا لم أنم أو أسترح، من مقصورة الطيار ينادي عليَّ (مروان) من كابينة القيادة:

– مستر (طارق).

– اتفضل يا (مروان).

– نأخذ إذن الطيران ونبدأ الرحلة بإذن الله.

– خذ وقتك تماما، أنا لست على عجلة من أمري.

رن الهاتف، إنها والدتي، فأجبت سريعا:

- أهلا يا أمي، كيف حالك؟

- هل يصح يا (طارق)؟ أسبوع كامل لا تهاتفني!

- أعتذر يا أمي؛ الجزر التي تنقلت بها ليس بها خدمة تماما، أنا آسف،

- حسنا يا حبيبي لا أريد أن أقلقك، وكل شيء على خير ما يرام.

- علمت ما حدث في فرع السعودية، وكيف سيطرت على الموقف، لقد بينت كفاءة في الإدارة يا أمي.

- ذلك فقط لأني أمك يا حبيبي.

- سوف نغادر الآن يا أمي، دعواتك لي.

- دعواتي لك دائما يا حبيبي.

- حسنا يا أمي، أراك على خير.

- بالسلامة يا حبيبي، لا تنس، عندما تصل اطلبني.

وضعت الهاتف أمامي وفردت المقعد لآخره، وأرحت ظهري عليه، أغمضت عيني ببطء وسمعت صوت وضع كوب من العصير لي، قالت: حمدا لله على السلامة يا مستر (طارق)، نظرت وارتسمت الدهشة على وجهي، وقلت بلهفة:

- (أميرة)؟ ماذا تفعلين هنا؟

- أنا مضيفتك الليلة، لإرسالك من بلد إلى آخر.

- ماذا تقصدين؟

- لقد تركت الآن تايلاند.

- نعم.

- وذاهب الآن إلى هولندا، هل استطعت أن تنساني خلال تلك الفترة؟ وأمسكت طرفي المقعد الخاص بي وفردت شعرها وهي تخلع قبعة المضيفات عن رأسها وتتمايل في أنوثة، وتقول:

- هل استطعت؟

- طبعا استطعت، هل يوجد شيء بيني وبينك؟ (في محاوله للحفاظ على كبريائي)

قربت فمها من أنفي وقالت:

-لا يا (طارق)، لن تستطيع.

– نعم، لن أستطيع؛ نعم لقد حلمت بك من قبل سنين، وعندما رأيتك في الصالة لم أستطع منع نفسي عنك حتى وإن كان ذلك الشيء أخر ما أفعله في حياتي، هيا قولي لي الآن ما هو سرك؟ انطقي. أنت تراقبينني؟ ومن أين أعرفك أنا؟ ثم كيف وصلت إلى هنا؟

– ما رأيك أن أخطفك وأطلب فيك فدية كبيرة؟

– تخطفين من؟ أنت مجنونة؟

– لا، لست مجنونة؛ أنت مخطوف يا (طارق)، أنا خطفتك، من أول يوم رأيتني فيه خطفتك.

هولندا...

أيقظتني المضيفة من نومي الساعة التاسعة بتوقيت تايلاند، وأنا أهمهم:

– نعم، أنت خطفتني، هل أنت سعيدة الآن؟ سعيدة؟ أنت ...

وفجأة وجدت الكرسي الخاص بي مفروشا كالسرير وألتحف أحد غطاءات الطائرة،

سألت المضيفة:

– من فضلك كم هو التوقيت الآن؟

– حمدا لله على السلامة، من الواضح أنه كان حلما مزعجا، الساعة الآن بتوقيت أمستردام الثالثة عصرا.

– نعم إنه حلم مزعج جدا.

– لعله خير.

– لقد نمت اثنتي عشرة ساعة متواصلة.

– نحن قد وصلنا منذ حوالي ربع الساعة، لكن الكابتن قال: لا أحد يزعجه.

– أيضا هبطنا ولم أشعر بذلك أيضا؟

حاولت الوقوف برويّة ودخلت حمام الطائرة؛ أزيل عن وجهي آثار النوم.

قالت المضيفة:

– إن الجو في الخارج بارد قليلا، الرجاء ارتداء سترة ثقيلة عند الخروج من الطائرة.

شكرتها وأخذت حقيبة ظهري ثم ذهبت، قبل دخولي لختم الجواز، ارتطمت برجل كهل تجاوز السبعين من عمره، طويل القامة ذو لحية بيضاء بهي الطلعة، ومنسق الهندام، تجده قديم الطراز قليلا، بطريقه اللبس ووضع الساعة فوق أساور القميص، والزهرة معلقة على عروة السترة، ولسوء الحظ، بسبب ذلك الصدام وقعت نظارته الطبية. أحسست بالكثير من المتاعب ستحدث لي بسبب سقوط تلك النظارة، لم أعرف سبب ذلك الشعور، إنما أحسست أن وقوعها متعمد، أكثر من يد مرتعشة يسقط منها شيء،

وبالإضافة إلى أنني ولأول مرة أجد مسنا يرتدي نظارة بتلك الرقة؛ غالبا ما تكون كعب مزهرية، ملعقة. وجدته يتكئ على ركبة واحدة؛ يحاول جمع بقايا نظارته، وهو يهمهم عليها ثم التفت لي وقال:

- نظارتي العزيزة! (بلهجة إنجليزية واضحة)

- هوّن عليك.

وحاولت إيقافه على قدمه مرة أخرى، وناديت أحد عمال نظافة المطار إلى مكان وقوع الزجاج، وفي محاولة لمساعدته قلت له برفق:

- إلى أين أنت ذاهب يا عمي؟ عسى أن أوصلك أولا، ثم أذهب في طريقي.

نظر لي نظرة خاطفة، وهو شارد بعينيه وقال لي:

- من أين أنت يا بني؟

- أنا مصري.

- أنت مصري؟ (قالها وفرحة عارمة بصوته لكن ما زالت ملامحه قاسية.)

- نعم.

- من أين من مصر يا ولد؟ (بلهجة مصرية سليمة.)

أضيفت ملامح الدهشة على وجهي!!

- من أنت؟

- أنا اللورد (وليام لورانس) من حرس ملك بريطانيا، وكنت أعمل في منطقة القلعة، حينها كانت القاعدة الملكية في منطقة الجيزة.

اندهشت لذلك الرجل الذي ما زال يتحدث أساسا، لا وأيضا يتذكر اللغات وعمره تجاوز التسعين بمراحل، إنه يعد أثرا وليس إنسانا، لقد تجاوز المئة عام على الأقل، ومن بنية جسده وطوله يظهر أنه كان شخصا رياضيا جدا، لكنه يداري جسده بتلك الملابس التي هي أكبر درجتين من قياسه الحقيقي؟

لم أكترث بشيء، سوى بقلقي من خوض تجربه جديدة، وأتمنى أن تكون أكثر متعة من ذي قبل، ورغم مرور بضع ساعات

على رحيلي عن تايلاند إلا أنني قد اعتدت على وجود امرأة في حياتي، يمكن ألا أجد امرأة تعاملني أو تتعامل معي بنفس درجة حب (سوشين)، إلا أنني سأنتظر أن أجد من تحبني بنفس الطريقة والأسلوب.

قال لي ليوقظني من ذلك التفكير العميق:

- ماذا دهاك يا ولدي؟

- لا شيء يا عمي، قل لي كيف أساعدك؟

- أتمنى أن توصلني لمنزل ابنتي، وأكون ممنونا لك.

- لك هذا.

نظر لي نظرة خبيثة وقال:

- على نفقتك تعويضا عن كسر نظارتي. (وابتسم.)

- على نفقتي، اتفقنا.

عاد وسألني بالإنجليزية: من أين يا ولدي أتيت؟

- يا لها من ليلة! هل تتذكر عنوان ابنتك يا عمي؟

- نعم، لماذا تسأل؟

- حتى أوصلك لهناك.

قال لي بسعادة بالغة:

- حقيقي سوف توصلني إلى هناك؟

- طبعا.

توقف فجأة وظل يتحسس جيوبه باهتمام.

- لن تجدها، فقد كسرت منذ دقائق.

- ماذا الذي كُسِرَ مني؟

- نظارتك،

- (بانكسار) لقد كانت هدية زوجتي قبل وفاتها منذ زمن، يا للخسارة!

نظر لي نظرة شك وأردف قائلا:

- ما اسمك يا ولدي؟

- (طارق).

نظر لي ورمقني بنظرة حادة بها فضول وعتاب:

- أنت من كسر نظارتي؟

- لقد كان صداما، ولم أكسرها لك عمدا.

- من أين أتيت يا ولدي؟

استشاط وجهي بعد عبوس وقلت له في خليط من الغيظ وتمالك النفس:

- أنا من مصر.

- حقيقي! (بنفس تلك النبرة السعيدة لأول مرة قلت له ذلك.)

- نعم.

- (بلهجة مصرية سليمة) أنا كنت أخدم بالجيش في مصر وكان...

فقاطعته وقلت:

- وكنت تعمل في منطقة القلعة والجيزة كانت المقر.

- هه أنت تعرفني جيدا؟

- طبعا.

- منذ متى؟

- ياااه من عمر طويل.

- منذ متى؟

- امممم منذ حوالي خمس عشرة دقيقة.

قلتها وضحكنا سويا، قمنا باستقلال سيارة أجرة من باب المطار، وأخرج ورقة من جيبة أعطاني إياها لأقرأها وأقول للسائق إلى أين نتجه، لم أستطع قراءة العنوان؛ إنه باللغة الهولندية أو الفريزية، لا أعلم، مررت العنوان للسائق أجاب باللغة الإنجليزية:

- مرحبا بكم في الهيج.

عند توجهنا للمنزل رأيت مناظر خلابة قمة في الروعة، ونظاما معماريا فريدا. رأيت هولاندا مرات عديدة في أفلام تليفزيونية وسنيمائية، لم أتوقع أن تكون في الحقيقة بذلك الجمال. نظر لي (ويليام) وقال بلهجة مصرية مكسورة قليلا، وكأنني في فيلم لذكي رستم:

– أنا أعتذر يا (طارق) يا أبنى على أسئلتي ونسياني المتكرر، فأنت تعلم أن التقدم في السن ليس هينا، وكيف صعب على الإنسان في ذلك العمر السيطرة على ذاكرته القريبة والبعيدة.

– لا بأس، إنه من الجميل التعرف إليك، ومن دواعي سروري مرافقتك.

ابتسم لي في هدوء ونظرت له وهو يرمقني بعينه وكأنني أنظر إليه، ولا أعلم لتلك النظرة معنى.

لم يتسن لي الوقت لتغيير عملة من المطار. سألت السائق:

– كم تريد بالدولار؟

– أربعين دولارا فقط. أعطيت له خمسين.

– انتظرني؛ سوف أعود معك.

– حسنا يا سيدي.

ترجلنا من السيارة، وقلت في خاطري: من الأفضل ألا أنتظر ابنته ذات السبعين ربيع تفتح الباب، أتركه وأذهب عندما أوصله.

نظر لي وقال:

– أين تقيم يا (طارق)؟

– السيارة الأجرة سوف تقلني لأقرب فندق وسط المدينة.

– من دواعي امتناني أن أدعوك لقضاء الليلة معنا، إذا لم تكن مرتبطا بمواعيد أخرى؟

– ذلك من دواعي سروري، لكن ذلك منزل ابنتك، وهي ليست على علم بوجود شخص آخر معك.

– أنا أصر على ذلك، أرجوك لا تخيب أملي.

أمسكني من كتفي واتكأ عليَّ وهو يهم بدق الجرس، وأنا أقف أمام الباب وكأنني سجين بمسكة يده، انتظرنا عند الباب، وعندما فتح باب المنزل إذا بفتاة في العقد الثاني من العمر، لها ابتسامه رائعة، عندما رأتنا استمرت بضحك لا متناهي، وهي تقول: مرحبا يا جدي، واستمرت في الضحك بطريقة مجنونة، لكنها رائعة.

أشار لي وقال بأسلوب أمر:

– هذا (طارق) ضيفنا اليوم، أرجوك بلغي أمك أن تجهز غرفة أخرى له.

- لقد قلت لك، إنه لا يصلح وها هنا أيضا فتاة صغيرة في المنزل، ولا يصح تواجدي هنا بتاتا، أعتقد من الأفضل رحيلي ولا زيادة في الإحراج أرجوك.

- ليس هناك إحراج، أنت قادم من مسافة بعيدة، من مصر، وتحتاج الراحة.

أشار بيده للتاكسي بالانصراف، دخلنا المنزل سويا، عندما دخلنا من الباب وجدت نفسي في مدخل قصر منيف، رائع بألوان زاهية، وزخرفة السقف وأثاث يشبه أثاث قصور الرومان، عواميد ولوحات يبدو أنها أصليه ويشع الجمال منها، كريستالات في كل ركن من المنزل، وبعض الرفوف موجود عليها بعض الكتب، أعتقد أنها وارد مكتبة الإسكندرية الغارقة. انبهاري بالمكان لم يمنعني من أن ألاحظ أنه خلع معطفه والباروكة عن رأسه، ووضعهما على أقرب مقعد في الغرفة، ثم خلع الجاكيت وانتصب واقفا كشاب في العشرين من عمره، خلع السترة، فوجدته جسد شاب في الخامسة والعشرين، ووجه في التسعين. ارتبت قليلا لذلك المشهد، وكأنني أقرأ قصة من قصص "رجل المستحيل" للأستاذ (نبيل فاروق) وقد تأتي الآن (سونيا جرهام) لتتفاجأ

(بأدهم صبري) وهو يفسد خطة جديدة من خططها، و(منى توفيق) تشهر مسدسها في وجه (سونيا). نظر لي وبدأ بخلع قميصه وتظهر رقاقة جلدية على آخر رقبته وأول صدره، ووضع يده تحت رقاقه الجلد وأخرج وجهه الحقيقي المخبأ خلف ذلك الجلد السميك، حاولت السيطرة على أعصابي جيدا، وتمهلت في رد الفعل حتى لا أبدو أحمقا، عادت تلك الأنسة وناولته محلولا لمسح اللاصق من حول عيونه وخدوده ورقبته، إنه شاب في أول العقد الثالث من عمره، شديد الوسامة، وشديد الشبه (بروبرت دي نيرو) في شبابه، ابتسمت في هدوء محاولا إخفاء انفعالي، وقلت له:

- لهذا المشهد السنيمائي تستحق الأوسكار.

وارتسمت على وجهه علامات السعادة، وحنى رأسه وأشاح بيده بتعبير تحية المسرح.

أكملت حديثي ويغلب على صوتي نبرة جامدة:

– بما أنك استخدمتني في المطار، لعدم لفت الانتباه للرجل المسن الذي يسير بمفرده، وذلك غير مقبول، كان من الأفضل طلب كرسي متحرك، وتنهي تلك القصة.

– أثرت إعجابي يا سنيور(طارق)، ليس فقط بلياقتك وطولك، بل وأيضا بذكائك، لكن الكرسي المتحرك، يخرج أولا من الطائرة أسرع، ينهي أوراقه أسرع، ويقابل التفتيش أسرع، والنظر والتدقيق يكون أكبر لمن يأتي أولا، وذلك غير محبب لأمثالي. عموما الطول واحد والبشرة متقاربة، ولدي في جعبتي سبع لغات بإجادة تامة، يكون من الصعب أن تخرج لغتك من بين اللغات السبع، لإثارة انتباهك.

وقفت وصفقت بحرارة وعنف، وقلت له:

– هل لي أي عمل أخر؟ لقد أتممت وظيفتي على أكمل وجه وبعدت عنك الأنظار، وأعتقد حان وقت الرحيل، لأنه أيا كان عملك فهو مشكوك به وأنا لا أحب الشبهات، خصوصا في أعمال مشابهة لعملك، أيا كانت وطنية أو تجسسا.

– سنيور (طارق)، أنت لم تنقذني من الجوازات فقط، لكنت تركتك في حال سبيلك، أنت رفعت عني أنظار العراب، فإن قبضت عليَّ السلطات سأخرج في غضون ساعات قليلة، وإن أمسك بي العراب ضاعت إجازتي بالكامل.

– (مستغربا) إجازة؟ كل ذلك فقط لأخذ عطلة؟ إن أردت تسويه التقاعد ستتخفي في زي ثعلب في الغابة؟

– ولذلك سنيور (طارق) اطلب وتمن، واعتبر نفسك وجدت مثلا مصباح علاء الدين.

نظرت له وأنا أبتسم وقلت:

– صحيح؟

– نعم.

– وكم أمنية لي؟ (في استهتار بالغ.)

– في الغالب تكون الأمنيات ثلاثا كما في الروايات وقصص المصباح السحري.

– احتفظ بهم لشخص آخر قد يفرك المصباح غيري.

تبدلت ملامحه وقال:

– أنت تستهزئ حقا بما أقول؟

– لا، إنما أنا هنا أيضا في إجازة وأتمنى ألا يعكر صفوها لعبة الجواسيس، أتمنى أن أنعم براحة البال.

نظر لي من خلف ذلك البرفان، الموضوع في الربع الأخير من تلك الغرفة الشاسعة، وهو يبدل ملابسه بأخرى ملائمة وقال:

– راحة البال يا سنيور (طارق) كم تدفع ثمنا لها؟

– الملايين.

بدأ يصب كأسين ويشير لي بأحدهم، وأنا أشير له بعدم احتياجي لمشروب.

– تعال معي يا سنيور (طارق).

وربت بيده على ظهري وأكمل حديثه:

– راحة البال.

ودخلنا غرفة لها باب مصفح، دخل أولا ودخلت خلفه. غرفة ستة أمتار في أربعة بارتفاع أربعة أمتار، يكتظ بأكياس من رزم ذات الأوراق فئة ال ٢٠٠ يورو، من الأرض إلى السقف، قال لي بكل فخر:

– كم يا ترى هذا المبلغ يا سنيور (طارق)؟

– بكل صدق لا أعلم، قد أكون غنيا والحمد لله، لكن ما لدي في البنك لا يجعلني أضع مبلغا كهذا في غرفة.

– أنا أدفع المليارات لتلك الكلمة فقط، إحساسها يا سنيور (طارق)، المليارات.

قلت له في دهشة:

– ما تفعله غير منطقي بالمرة.

– ذلك منزلي السري، لا يعلم عنه أحد، ولي أحد عشر مثله متفرقين في أنحاء العالم، ألمانيا وكندا وفرنسا وريو دي جانيرو ومالطة وغيرهم، أحيانا أنسى عناوينهم، وفي كل بلد أشترى سيارة وأنا ذاهب أتركها وأرحل، وأنت تدفع الملايين فقط لراحة البال؟

- جميل جدا بما أنك لست جاسوسا، نتعرف على بعض بشكل لائق حتى أفهم ماذا يحدث حولي، وبما أنني عالق هنا بسبب الثلاث أمنيات، هل لي أن أتعرف بك؟

ابتسم في هدوء وقال:

- (جوفاني شيلا)، (جوفاني جبرائيل سيرافينو شيلا).

- لذلك السبب الذي يجعلك تقول لي سنيور، اعتقدت أنها عادة فقط، أنت إيطالي، إذن ماذا تعمل لتجني كل تلك الأموال؟

قال لي: تلك المعلومات بعيدة جدا، ولن تحب أن تسمعها، وأعتقد أننا تعارفنا بشكل لائق.

قلت له باستغلال للوضع الذي فرضه:

- عموما أنا أملك ثلاث أمنيات، صحيح؟

- نعم، بكل تأكيد.

- نجعل الأمور سهلة إليك، أول أمنية إن استطعت تحقيقها.

نظر لي نظرة عتاب...

- من أنت؟ وما عملك؟ تلك أولى الأمنيات.

- (جوفاني جبرائيل سيرافينو شيلا) والدي (جبرائيل سيرافينو) الأب الروحي ل (لاكوزا نوسترا).

أشرت بوجهي مع ابتسامة بلهاء تنم عن عدم الفهم: الرجاء الإعادة (بمزيج من أثرت تهديدي) ومن أنتم؟

- مافيا صقلية يا عزيزي.

اختفت الابتسامة تدريجيا وحل محلها نوع من البلاهة والتوتر.

قلت له في سعادة بالغة:

- والدك زعيم المافيا؟

- نحن جزء من منظومة، لكن تستطيع أن تقول إننا الأصل في كل شيء، ونظرا لأن التاريخ يسير في اتجاه وحد، ففي المنظومة العائلية أعتبر نائب الرئيس. ثم ابتسم.

بادلته ابتسامة بلهاء وقد علمت سبب قلقي بوقوع النظارة من يده.

- تشرفت بمعرفتك يا سنيور (جوفاني).

– الشرف لي. ألن تقول لي: من أنت؟

قلت له: اسمي (طارق الدمنهوري) صاحب ومدير سلسلة مطاعم (أبو طارق) في مصر.

– هل أنت متزوج؟

– منفصل منذ فترة قصيرة والحمد لله.

قال لي في زهو جامح:

– أفضل حياة العزوبية، لها رونقها.

– والحياة الزوجية لها دفؤها.

قال بصيغة الأمر:

يا (ريتا) هل انتهيت أم نحتاج المزيد من الوقت؟

– العشاء جاهز يا دون (جوفاني).

– ومستر (طارق) عشاؤه جاهز؟

– أحضرت من المطار المعلومات عنه، وعرفت من أصدقائنا كل البيانات عنه وأكثر، جاري معرفة المزيد.

– شكرا لك.

– ما شاء الله! (ريتا) شخصية عالمية.

– أصدقاؤنا يجب أن نعلم عنهم كل شيء، أدق التفاصيل أصغرها وأكبرها.

– أنتم لكم أصدقاء في مصر؟

– طبعا لنا أصدقاء في جميع دول العالم وأنت شخصية معروفه، لذلك استطاعت (ريتا) أن تحصل على معلوماتك الشخصية بسرعة، أنت ضيفي لثلاثة أيام والحفلة اليوم على شرفك، ولا تنس ما يزال هناك أمنيتان، متفقين؟ هيا بنا.

لم أفهم أين أنا؟ عندما أمر من صالة أجد نفسي في غرفة أخرى، وحين أصل لقاعة طعام أجدها فارغة، إلى أن وصلنا شرفة منزل لبناية مختلفة، عما دخلت منها.

– ما هذا؟ أين نحن؟

– هذا المنزل من ثلاثة منازل بعرض البنايات المجاورة، لكن العشاء ليس هنا (وأشار للبناية المقابلة) ثم أردف: في ذلك المطعم الأنيق.

قال لي: هل تأذن لي بدقيقة.

نادى على (ريتا)، وقال شيئا باللغة الإيطالية.

وقفت (ريتا) وقالت بتهذيب شديد وهي تقترب مني:

– من تلك التي تترك رجلا (وعضت بإثارة على شفتها السفلية) يحبها في هذا الزمان؟ ألم تكن تحبها؟

– إنه من الواضح أنك تحبين القراءة كثيرا؟ لأي جزء قرأت من تلك الرواية؟

– (وعلي وجهها ابتسامة ظافرة) حتى تركت الفندق في تايلاند.

– غير معقول! لديكم أصدقاء في كل بقاع الأرض؟

– لكنها قصة مثيرة حقا.

وكاد يكون بيني وبينها بوصة واحدة، وسمعت صوتا يقول لها بالإنجليزية:

- قلت لك سلِّه ولم أقل لك اغتصبيه.

والتفت لي يكمل: سنيور (طارق)، احذر من الوجه الجميل؛ فإنه يحمل في طياته وحشا كاسرا.

قالت بعض العبارات بالإيطالية، ثم أشار لي لدخول الغرفة التي كان بها، وقال:

- تفضل.

- أشكرك.

وفجأة فتح بابا صغيرا، وجدت نفسي أمام ترسانة أسلحة صغيرة. قال لي:

- اختر زوجا مما تشتهي نفسك.

- (وأنا أنظر لكم الأسلحة) لماذا؟

- رجل أعمال مصري له أهميتك لا يسير بحوزته سلاح؟

- بالطبع لا.

- أذن من الآن فصاعدا ما تشتهيه من هذه القطع هدية متواضعة مني لك، والآن لا بد أن تنتقي نوعك المفضل.

- إن كنت تصر فلك ذلك، عموما هل لي أن أرى ما يوجد؟

Nf_57, Beretta-922, Walther-p9, Glock-17, Walter pps، وهذا المفضل لي sweer p320

- اختيار موفق، وتعرف كل سلاح باسمه!

- وما الضرر أن أتعلم الرماية، ومعي رخصة، هل الغرض أن أتباهى بحمله؟ إنه شر آثم؛ يجعلك فخورا بأخطائك، وهو عدو التواضع.

- (جوفاني) حقيقي أنت إنسان غريب.

- أشكرك حقا.

- هيا خذ زوجا منهم، وتعال معي حتى ننتقي سترة مناسبة لك، ارتد سترة السلاح، وسترة فوقها تناسب ملابسك، هيا فلدينا عشاء، وبعد العشاء سهرة شكر على شرفك.

ترجلنا إلى المطعم المقابل للمنزل، مطعم أنيق جدا وراقي، استقبلنا النادل بوافر الترحاب، وقال ل(جوفاني):

- أهلا مستر (جوفاني).

- أهلا (بيتر)، كيف حالك؟

قال لي: لا تتعجب؛ كلهم رجالي.

تطرقنا إلى داخل المطعم وأشار النادل إلى سلم داخلي له باب حديدي قديم، دق (جوفاني) الباب، وجدت رجلا أسمر طويل القامة يفتح الباب، قال له (جوفاني): كيف حالك يا (مارك)؟ أزاح الباب أكثر وتركنا نمر ورأسه محنية، دخلنا إلى غرفة كبيرة بها سفرة أطباقها مغطاة.

قال لي في تباهٍ:

- انزع الغطاء وقل لي أليس هذا طعامك المفضل؟

نزعت الغطاء فوجدت "أرز بسمتي بالكبد والكلاوي" وبعض المشاوي التي آكلها فقط عند أبو بيلا في الظاهر.

- هل لي أن أعلم من جهّز تلك الوجبة الأصيلة.

نظر لي (جوفاني) وابتسم في زهو وقال:

- لقد تمنيت أن يعجبك الطعام.

- أين وجدت ذلك الطعم المصري الأصيل؟

- المال يا صديقي يُوجِد أي شيء تريده، لكن هل يريح البال؟

- في الحقيقة لا.

- لماذا وأنت داخل موطنك وخارجه لا تحمل سلاحا؟

- أنا رجل أعمال، وعملي هو الغذاء، ولا أعداء للغذاء سوى الجراثيم، ولا أعداء لي، فلماذا أحمله إذن؟

- (بعد تنهيدة طويلة) أريد أن أصدقك، لا يوجد رجل أعمال بدون أعداء أو حتى حاقدين، تخيل إنني داخل بلدي لا أستطيع السير في الطرقات كأي إنسان طبيعي، وخروجي من البلد لا بد أن يكون في الخفاء، في كل مرة طلبا للهدوء وراحة البال، أهرب من منزلي وكأني لص في منتصف الليل، وتستمر العائلة في البحث عني، وكأننا نلعب الغميضة، أثناء وجودي أسير وخلفي سيارات مصفحة، والوقت الوحيد الذي أشعر فيه أنني إنسان،

هو عندما أخرج خارج البلاد، وحين عودتي أعلم أن وقت سجني قد حان.

- إذن توقف واعتزل تلك الحياة البائسة، لماذا تستمر بها إن كانت لا تستهويك من الإساس؟

- (طارق) ماذا تعرف عن المافيا؟

- في الحقيقة إن المافيا عصابة منظمة، تعمل على بيع وشراء المخدرات، والرقيق الأبيض.

- وماذا أيضا؟

- حروب مع الشرطة، اختفاء منهم، وقنابل تتطاير في كل مكان.

- هذا تمثيل بسيط لواقع المافِيا، هيا إن كنت قد أنهيت طعامك، فأنا لا أستطيع أن أتأخر أكثر من ذلك.

- عن ماذا؟

قال لي والسعادة تملأ كيانه:

- عن أسعد لحظات حياتي.

- ما دامت أسعد لحظات حياتك فهيا بنا نراها، لقد انتهيت.

خرجنا من الغرفة، ومضينا في طريق تحت الأرض كالمغارة، حتى وصلنا إلى مكان أشبه بالكهف يكتظ بالشباب والرجال والنساء من أعمار مختلفة، ملهى ليلي في مكان يشبه ملعب كرة القدم.

حضر شخص لاستقبال جوفاني وانحنى جوفاني لمعانقته، قال (جوفاني):

- (البرتو) صديقي، كيف حالك؟

- أنا بخير ما دمت بخير سنيور جوفاني.

- هل أحضرت طلبي المعتاد؟

- نجلس ونشرب كأسين سويا ثم نتحدث في الأعمال.

- لا أعمال اليوم؛ لدي صديق من مصر وأريد أن نمرح كثيرا.

- المرح ليس هنا فقط، منذ ثوان معدودة أرسلت لك آخر صيحة في عالم الخيال والجمال أيضا، حيث سأجعلها ليلة لا تنسى.

- إذن إلى المنزل يا صديقي القديم، هيا بنا فلنتحرك فورا.

– سوف أوافيك إلى هناك، فقط عليَّ إنهاء بعض الأعمال.

قال لي (جوفاني):

– هيا يا طارق، فلنعد إلى المنزل.

– أعتقد من الأفضل أن نذهب من ذلك الجو الصاخب هنا.

لم نعد من حيث أتينا، فقد وجدت أن هناك سلما أخر للشارع الموازي لمدخل المنزل، قال لي جوفاني:

– فلنسر قليلا في الهواء الطلق.

وافقته، سرنا سويا وسألته:

– ما معنى أنكم جزء من منظومة وأنتم الأصل؟

– أنت تستفسر عن كل شيء، وذلك غير جيد إطلاقا!

– ما دام قد واتتني الفرصة لا أتردد، صدقني المعرفة خير بكثير من الجهل.

– يعجبني تفكيرك باستغلال الفرص والمعلومات، نحن لاكوزا نوسترا وهي أشهر مافيا ولها فروع ممتدة إلى أمريكا الشمالية

والجنوبية، أسسها أجدادي في القرن الثامن عشر في جزيرة صقلية.

تحالف مجموعة عصابات تربطهم كلمة شرف وأسس وقواعد لا تتغير مهما زادت المطامع والتحديات والمشاكل، وأسسها التنظيم والدقة، منذ ذلك الزمن ونحن على عهد واحد لا ينقض في يوم، هل تعلم ما جزاء نقض العهد يا طارق؟

- لا، في الحقيقة لا أعلم عن العهد شيئا.

- فقط الموت، لا هوان ولا استهتار في ذلك العهد، ولكن لن تموت بتلك السهولة؛ أولا ستجد من تهتم بهم موتى، وبعد ذلك معارفك من حولك، ثم يحين دورك في النهاية إلا في حالة واحدة.

- وما تلك الحالة؟

- من الأفضل أن نفوت تلك الحالة حتى لا تتهجم علينا إثرها، عموما لقد اختلفت الأحوال عن الماضي كثيرا، وأصبحت الحياة أكثر سهولة؛ في خمسينات القرن الماضي اشتدت الخلافات بين عائلات المافيا وأصبحت الحياة مستحيلة وتدهورت الأعمال بسبب تلك الخلافات وازداد عدد القتلى، بسبب ذلك دعت العائلة

لاجتماع الجميع في أحد فنادق بالم في باليرمو لتجديد الميثاق وحل الخلافات فيما بينهم وصدر عنها تشكيل لجنة لفض الخلافات فيما بين العائلة وتدير أعمالها وأطلقوا عليها (كابولا)، كما تقول المفاوضات، للتحكيم في المنازعات الداخلية فقط، وكان ذلك منذ زمن بعيد، أما الآن لنا رئيس مجلس إدارة عصامي ورجل ذو عقلية فذة ونظرة بعيدة.

– من هو؟

– (دومونيكو اوبوتيسانو)، هو الذي نظم لنا منذ زمن أعمال السياحة في الريفيرا الفرنسية والمطاعم والعقارات في إسبانيا وعقود الإنشاءات العامة في إيطاليا وأشهر المقاهي والحانات في ألمانيا والعديد من الأعمال القومية كالتخلص من النفايات والزراعة والطاقة المتجددة، إن والدي يعتبره كنزا لا يجود الزمان به مرتين.

دهنا لا نذهب بعيدا عن أساس الموضوع:

هناك (ندرانجيتا) في كالاابريا جنوب إيطاليا وهي منطقة جبلية نائية وتعتبر من أفقر المناطق في أوروبا وتعمل في تجارة الكوكايين.

وأيضا هناك (ساكرا كرونا يونيتا) أو معناها التاج الموحد المقدس وتنشط في بريزديلى ولينشى وتارانتو وعملها متنوع وليست ك (ندرانجيتا). وأخيرا وليس آخرا مافيا (كامورا) في نابولي وهذه عناصرها يتعدى ال سبعة آلاف شخص.

- رائع هذا تاريخ كبير.

- هذا ليس تاريخا، التاريخ سوف أحكيه لك بعدما نصنعه نحن، التاريخ الخاص بنا.

دخلنا المنزل والإضاءة خافتة، أرى أمامي من بعيد شيئا يقذف كسيف أو بلطة قاطعة الأخشاب.

ارتميت على (جوفاني) وألقيته على الأرض محاولة لحمايته من محاولة كادت تودي بحياتي أنا شخصيا، لكن توجت بالنجاح ولم يصبه مكروه وأنا أيضا، في خفة شديدة انتزع (جوفاني)

مسدسه وكأنه ريشة فنان على ورق ناعم وأشار لي بالسكون فالخطر ما زال قائما.

- من فعل ذلك؟

فأشار مرة أخرى لي بالسكوت، وفهمت وقتها لماذا يتجول بزوج من المسدسات وبعض السكاكين، لم تكن احتمالية إصابته بعيدة، فقد كان الموت على بعد خطوة واحدة منا، أشهرت سلاحي أيضا في محاولة للحفاظ على حياتنا، وفي مشهد غريب وجدت (جوفاني) قام على قدميه فجأة وكأنه لا يأبه للموت وقد ظهر أمامه مجموعة من القتلة يحملون أسلحة متنوعة، مهارته في استخدام السلاح رائعة، ليست الإصابات بالطلقات النارية فقط وإنما بالسكاكين أيضا، ترددت قليلا في مواجهة الموقف وأنا أسأل نفسي: هل أقاتل معه أم أستتر وأعفي نفسي من عناء القتال؛ ليس قتالي أو لست المقصود به!

ولمرة أخرى قلت لنفسي: وإن قتل الآن، سيبقى الدور على، إن لم نواجه الخطر سويا سوف أواجهه وحدي بعد قليل. قفزت من مكاني لا أدري ماذا أفعل، وجدت أمامي مشهدا لم أره ولا في الأفلام السنيمائية؛ يتحرك (جوفاني) في خفة رائعة ويركل ويلوّح

بسكاكين، وأعتقد أن ثلاثين رصاصة قد نفذت منه ولا يستطع سوى أن يكمل القتال ليبعد القتلة عن مكان تواجدي، بعفوية وجدت يدي تدوس على الزناد بكل سرعة وكأنني في أحد تدريبات السرعة، حيث حصدت خمس رؤوس في ثوان معدودة، وجدت (جوفاني) ينظر لي ويقول وهو يلهث:

- أين كنت؟

- كنت أستجمع قواي الذهنية.

- تكلف الأمر وقتا ولكن لن تأخذ وقتا تماما في القضاء على أهدافك، وتلك سرعة تحسد عليها كشخص مسالم لا يحمل سلاحا.

وجدت أحدهم يحمل مسدسه ويحاول النهوض لقتل (جوفاني)، لم يتردد مسدسي مرة أخرى وانطلقت منه رصاصة عفوية وكأنها مقصودة لكنها عرفت طريقها بالغريزة ليس إلا.

- تنقذ حياتي مرتين في يوم واحد؟ هذا كثير.

- على الرحب والسعة، من هؤلاء؟

– إنهم مافيا (برانيا سولنيتسا).

– هل هم رجال العراب الذي تتخفى بسببه؟

– لا بالطبع، العراب هذا والدي، ولكن هؤلاء (براتيا سولنتسا).

فعقدت حاجبي بمعنى عدم الفهم وأنه أجاب نفس الإجابة، وقلت له:

– الرجاء التوضيح.

– إنهم "إخوان الشمس" المافيا الروسية، لهم نقوش مميزة على أجسادهم.

قلت له: وكيف عرفت المافيا الروسية بمكانك؛ بما أنك تهرب من مكان لمكان متنكرا؟

قال لي وعيناه ينبعث منها شرارة تنفجر حنقا:

– أخطر سلاح تستخدمه أعتى المنظمات وأشد الحكومات يا صديقي، السلاح الذي يوقع بعصابات ودول بأكملها ويبيدها عن بكرة أبيها.

– ما هو ذلك السلاح الخطير؟

- الخيانة يا صديقي، الخيانة.

ظلت يداي ترتجفان العشر دقائق الأولى بعد تلك المجزرة الدامية.

- لا تقل إن ريتا هي من فعلت ذلك! هل هذا ممكن؟

- لماذا لا يكون؟ ممكن من وجهة نظرك! هل أنت معجب يا صديقي؟

- لا، ليس ذلك المقصود، لكن هي من يعرف بوجودك هنا.

- لا، هناك شخص آخر سوف يجني الكثير والكثير بما أنني انتشلته من الطرقات وصنعت منه سيدا.

- من هو؟ (البرتو)؟

- نعم، صديقي العزيز (البرتو).

- كيف ستتخلص من كل تلك الجثث؟

- لا تقلق، سأتصل (بريتا) الآن.

- وريتا تنظف أيضا؟

– لو أردت أن أنظف الكرة الأرضية بعد الحرب العالمية الثانية ريتا تنظفها. هل عدنا نفعل ما سبق مرة أخرى وكأن الليلة تعيد نفسها؟

– ماذا فعلنا؟

– دخلنا غرفته المحببة حيث عاد ما قد سبق وفاضت جيوبه بالذخائر وكأنه جيش يستعد لحرب كاملة.

قال لي وهو يتنهد بعمق:

– هيا.

– إلى أين نحن ذاهبون؟

– إلى الملهى، حيث أحب أن أحضر ذلك الحفل من بدايته.

قلت له بتعجب:

– أي حفل تقصد؟

– صديقي طارق، عندما تتم الخيانة لا يستطع العقل تحمل فكرة أنه خائن، فيتصرف على أنه كان في معركة وانتصر،

والانتصار يحتاج احتفالا، والحفل عند تقسيم الغنائم، فهمت شيئا؟

- نعم، للأسف فهمت.

- ولماذا أنت تأسف؟

- أتأسف على مفهوم الصداقة.

- لا تشعر بالضيق يا صديقي، إنها فقط البداية.

لم تمر دقائق معدودة حتى وجدت جوفاني يفتح باب المكتب وينتظر الفتيات تخرج من الحفل الصاخب الذي يقام في مكتبه بإشارة لهن من مسدسه، حيث ساد صمت داخل المكتب مع ارتفاع الموسيقى، الفتيات يخرجن في ذهول وعلامات استفهام حول دخول شخص واحد بسلاح، هنا مزيج من الكوكايين والخمور وبيرة وبار ممتلئ عن آخره بما لذ وطاب من نعيم الدنيا، موسيقا صاخبة أكثر صخبا من الموسيقى في النادي الليلي، وأعتقد أنه احتفال بانتصاره وأنه أصبح صاحب تلك الثروة، مطعم راقٍ وملهى ليلي ملحق ببار كبير، وهم وخيال،

مكاسب رهيبة. جلس (جوفاني) خلف المكتب وأخرج من جيبه خيطا رفيعا ووضع خنجرا رقيقا على المكتب ومسدسه.

نظر (جوفاني) إلى (البرتو) وقال بكل هدوء:

- متى تم الاتفاق على بيعي يا صديقي العزيز؟

في ذهول دمعت عين (البرتو) وازداد وجهه بلاهة ثم ركع على ركبتيه والدموع تنهال على وجهه.

- (جوفاني) أرجوك.

- ترجوني ماذا يا (البرتو)؟

- أرجوك اقتلني، أرجوك.

ويهمهم بكلام غير مفهوم، يقول: أرجوك، ويتوسل له بأن يقتله بصورة غير طبيعية.

- تم الاتفاق أمس بعد علمي بقدومك، أرجوك. (والدموع تنهمر بغزارة.)

- كيف وجدتهم؟ وأين يمكنني أن أجدهم؟ (ويتجه نحوه و(البرتو) راكع على الأرض ويشد الحبل على عنقه ويحكمه جيدا.)

أين أجدهم يا (البرتو) حتى تحصل على مرادك.

قال له وهو يختنق:

- شارع الضوء الأحمر، صدقني، هناك يوجد قفص زجاجي في البناية ١٢٢، مدخلها يخصهم.

- من هم؟ اتفقت مع من لتسليمي؟

- (فلاديمير لوكا) و (اندريا يوري).

- كم دفعوا لك يا صديقي؟

جلس يردد: (جوفاني). وهو يبكي ويقول: (جوفاني). ويستمر في البكاء بصوت مبحوح. لم يريد خنقه بذلك الخيط الرفيع؟

يردد في هلع مخيف وريقه يخرج من فمه ودموع عينه تتساقط فوق حذاء (جوفاني):

الرحمة، الرحمة (جوفاني)، لا تعذبني أرجوك.

يمسك (جوفاني) شعره بقسوة ويقول:

– لماذا خنتني يا (البرتو)؟ كنت مثل أخي، ولم أتأخر عنك في شيء، عموما أنت صديقي ولن أعذبك بسبب خطأ واحد، لا تقلق سوف أحررك من تأنيب الضمير.

وأطلق رصاصته فورا على رأسه فسقط جثة هامدة تحت قدمه.

رفع على أذنه هاتفه النقال وقال بكل صرامة:

– (ريتا) اتصلي بالإخوة؛ أريد الجميع حالا، وأيضا أرضية مكتب الملهى الليلي متسخة تريد تنظيفا.

ووضع هاتفه في سترته.

لمعت عيناه بشدة، وأحسست في لحظة أنها دموع، لكن تزداد عيناه لمعانا ولم تسقط منه دمعة، فهمت من ذلك أنه كان أخا ل(جوفاني) فعلا وكان يعز عليه قتله إلا أن الخيانة ذنب لا يغتفر وليست أي خيانة.

ذهب مسرعا يتفقد الخزانة، وجد بها مبلغا كبيرا من المال يكاد يخرج من الخزانة وتتفجر.

نظر إليَّ بكل ثقة وقال:

- ذلك التافه لم يطلب مني شيئا إلا وأخذه، والآن يبيعني بحفنة أوراق مترهلة.

- (بقلق لكثرة ما رأيت من دماء اليوم) وماذا سوف تفعل يا (جوفاني) الآن؟

- بما أن سهرتنا قد تدمرت، سوف أضع يدي على عنق الثعبان وأعود.

ترجلنا وعدنا من نفس الطريق مرة أخرى وسأل جوفاني:

- تعرف كيف ينقض الثعبان على فريسته يا سنيور (طارق)؟

- لا أعلم.

- يهجم بكل قوته على الفريسة، إن صابت، ابتلعتها بعد أن يصيبها بشلل، وإن لم يسممها وأخطأ، دخل جحره مرة أخرى خائفا ولا يعاود الكرة.

فهمت ما يرمي إليه (جوفاني) تماما.

- إن لم أقتلع الليلة رأس ذلك الثعبان، سيكون الوضع حرجا وبغباء.

– وما الذي سيجعل الموقف حرجا؟

– نظر لي نظرة طويلة وقال:

– العار يا (طارق)، العار.

دخلنا المنزل وكأن شيئا لم يكن عدا فقط بعض الدماء المتناثرة على الحائط.

اندهشت لتلك السرعة وهمست ل(جوفاني):

– متى حدث ذلك؟ وأين الجثث؟

– ألم أقل لك إن المال يصنع كل شيء؟ تعرف يا (طارق)، البعض ينظر للمال على أنه الخلاص من وحل الفقر والمرض والاحتياج، والكل على حق، ولكن تخيل أن يكون يوما ليس العائق الأساسي، تخيل أن المال كأوراق المرحاض يمكنك أن تشتري الكثير وإذا بلّه الماء رميته في القمامة، ليس له قيمة فعلية إلا لمن يحتاجه ولا يحصل عليه فيزيد احتياجه.

كل ذلك المال ليس له قيمة حقيقية سوى إخفاء مشاكلك بسهوله، لكن هل كل ذلك المال يشتري الحرية؟ حريتي الشخصية؟

أبدا محال؛ لذا يجعلني الهروب من المنزل أكثر حرية ومرونة، والليلة يتحتم عليَّ الهروب مرة أخرى لأن ما سيحدث سوف يعي له والدي ويعرف ما قد تم، ولا أريد أن أخيب ظنه، ولا أريد أن أحبط إجازتي أيضا، لذا يتحتم عليَّ الهروب.

ظهرت (ريتا) بابتسامتها الرائعة، وسرح خيالي: كيف لتلك الطلة الملائكية والابتسامة الرائعة أن تعيش في وسط كل هذه الدماء المتناثرة؟

تقدمت ويداها خلف ظهرها وهي تمشي وكأنها طفلة في منتزه خاوٍ من البشر، نظرت لي مليا وهي تقول:

– كل شيء تم حسب أوامرك يا سنيور (جوفاني).

– ومتى يحضر الشباب؟

– إنهم داخل الغرفة الآمنة، في انتظارك.

– حسنا، إنها البداية. (طارق) أنت ضيفي، وإن لم أستطع الترحاب بك كما ينبغي، إلا أن عزيزتي (ريتا) ستلبي طلباتك من الآن حتى غد عند لقائنا، وأنا متأكد أنك لو لم ترتح للون

غرفتك ستستطيع (ريتا) تغييره في نصف ساعة، أيا كانت طلباتك فإن (ريتا) هنا ولن تعود لمنزلها مرة أخرى.

ونظر(لريتا) وقال: الرجاء الاهتمام بضيفي بدون ألاعيب طفولية، اتفقنا؟

نظرت إليَّ وهي تدور حولي وكاد وجهها يقارب رقبتي وقالت له:

- عُلِمَ ويُنَفّذ يا سيدي.

تركنا (جوفاني) ودخل الغرفة الآمنة، فتح الباب، وجدت مجموعة من البشر بأياديهم أسلحة متنوعة يقومون بتجهيزها، ومن الواضح أنهم يستعدون لحرب.

أردفت (ريتا) قائلة: مستر (طارق) من هنا.

فاجأتني وأنا شبه مسبهل من ذلك المشهد الذي لم أره سوى في الأفلام، فقط صحوت على صوتها.

- هيا بنا لتتفقد غرفتك من فضلك؟

ذهبنا سويا إلى الشقة الأخرى، وبدأت بالحديث قائلة:

– مستر (طارق)، هل كانت رحلة تايلاند ممتعة؟ (وهي تضع عطرا على رقبتها في دلال.)

– أعتقد أن أصدقاءك لهم دراية بكل شيء.

توقفت فجأة ونظرت لي وهي تقترب مني وقالت:

– لهم دراية أكثر مما تتصور.

غبت لحظة مع ذلك العطر الذي تضعه، لقد شممت ذلك العطر من قبل، لكن ذلك العطر له رائحة نفاذة وتأثير قوي، أنا لا أتذكر شيئا سوى أن شفاهي لامست شفاهها، وغبت وأنا أتحسسها ولا أعلم ماذا أنا بفاعل! رغما عني أنقض عليها وغرائزي بالكامل غائبة عن الوعي، ولوهلة أحسست بأنني غير أدمي بالمرة؛ أنا أفعل أشياء أريدها لكن رغما عني، وكأنني مرغم على ذلك، لم ننتظر حتى ندخل الغرفة وهي تحاول دفعي للدخول فيها، بنفس اللحظة تنزع عني ثيابي، وأنا أمزق ثيابها، ولا أدري ماذا أفعل؟ يداي تتحركان رغما عني وعقلي مشلول، سائر في اتجاه واحد، لم أفق قبلما انتهت مني وأنا مستلقي. تذكرت تلك اللحظة وتلك الرائحة متى أول مرة شممتها، وماذا فعلت بي؟

لكن تلك المرة تأثيرها قوي وكميتها أكبر، كانت قد وضعتها (سوشين) في أول يوم التقينا فيها، نظرت إليها

وتساءلت:

- لماذا وضعت ذلك العطر؟ فقد كنت وحدي أود ذلك!

- وأنا لا أعرف نواياك، فقط أعرف ماذا أريد أنا فقط، أما نواياك فلك وحدك.

- هل ذكر كل شيء عن تايلاند؟

- كل همسة همستها في أذن (سوشين).

- أهي بخير؟

- بكل تأكيد، هل تود معرفة أخبارها؟

- لا، ولكن أطمئن؛ ربما أصدقاؤك قد تعرضوا لها؟

- إطلاقا، إنها فقط بدأت بالثرثرة عند أول كأس قدمه أحد الأصدقاء لها، أعتقد ما زالت تروي حتى الآن قصة الفارس ولياليه الحمراء، لا تقلق لن يحدث لها شيء.

تنهدت وعادت الدماء في جسدي بعد ما كادت تهرب،

قربت (ريتا) من صدري وقالت:

- لماذا لم تظل هناك معها؟ بكل ذلك الخوف يبدو أنك أحببتها، وحديثك ينم عن ذلك.

- (سوشين) صديقة ولا أكثر من ذلك، أحببت معاشرتها لكن ثقافاتنا تختلف، ولا أستطع التأقلم مع ذلك.

تبسمت في خبث، وقالت لي:

- هل أنت جائع؟

- جدا وكأنني لم أتعش قبل ساعة، وأتمنى أن آكل شيئا الآن.

- بيتزا.

- بيتزا؟ لماذا؟

- البيتزا شيء مقدس عندي، وخصوصا أنها تأتي سريعا، وتنتهي سريعا دون إثارة أي مشاكل، والأفضل في هولندا: بيتزا (بينتو أمستردام).

التفت لي، فوجدتني في ثبات عميق، كان الإرهاق قد أخذ حده مني، والعديد من المواقف حدثت اليوم ولم أكن أتوقع حدوثها وعلى الرغم من أني في منزل ابن أكبر رأس في المافيا الدولية، إلا أنني أحسست أنني لست في بيت غريب، لم يرتبني أي قلق أو توتر من ذلك أو ربما من فرط الإرهاق لم أبال، فقط نمت.

الهروب...

استيقظت على دقات باب غرفتي، حوالي التاسعة والنصف، كانت الغرفة غير مرتبة بالمرة، أثار فوضى ومعركة عظيمة، وملابس ممزقة بالكامل ومنزوعة بالقوة، حتى إنني تعثرت في حذاء (ريتا) وأنا ذاهب أفتح باب الغرفة، التحفت غطاء سرير أستر به نفسي، وكأن شرطة الآداب أوقفتني في إحدى شقق الدعارة. فتحت الباب لأجد (جوفاني).

قلت له والابتسامة على وجهي:

– مرحبا.

– مرحبا، ألن تسمح لي بالدخول؟

– طبعا، طبعا، تفضل.

دخل الغرفة وانبهر.

– ماذا حدث؟ (ابتسم ضاحكا وفي حركة مسرحية رفع يده في الهواء)

وقال: (طارق) التهمه الوحش.

ابتسمت بنظرة إحراج وقلت له:

– التهمني وبقسوة.

في نفس اللحظة خرجت (ريتا) من الحمام مرتدية روب الحمام ووجدت أمامها (جوفاني)، فقالت وهي تبتسم:

– بنجورنو سنيور (جوفاني).

نظر إليها مطولا نظرة لم أفهم معناها؛ فهي مزيج غريب من القسوة والتهديد والعتاب في آن واحد.

– ألم أقل لك بدون ألعاب؟

– (بالإيطالية) أليس ضيفي ويجب أن أضايفه كما أمرت؟

اعتدلت وبادرت بالحديث:

– (جوفاني) أنا أعتذر عما حدث.

قاطعني وقال:

– هل ضايقتك؟

– أبدا.

- هل أرغمتك تحت أي تهديد؟

- عمليا لا، لكنني كنت تحت تأثير.

رد قائلا:

- تأثير العطر.

وتوجه لها بالحديث قائلا: ألم أقل لك بدون ألعاب.

- (بدورها بكل دلال وأنوثة) لكنه كان يعتزم النية، وما حدث فقط استعجال الوضع.

وأرادت شد الملاءة التي تغطي جسدي وهي تضحك.

قال (جوفاني):

- هيا بنا يا (طارق)؛ المنزل لم يعد آمنا، فقد أثرت ضجة ليلة أمس، فلا بقاء لنا هنا. (ريتا) اكتبي على جهتي المنزل: للبيع. هيا بنا يا (طارق)، أرتد ملابسك سوف نغادر.

التقطت ملابسي من أرجاء الغرفة وتركتهم ودخلت المرحاض أرتدي ملابسي، أردت أن آخذ حماما سريعا لولا لهجة (جوفاني)

بأن البيت لم يعد آمنا، لا تبعث في نفسي الارتياح، لكن أين سنذهب؟ ولماذا قد ربط مصيري بمصيره؟

أنا ليس لدي ما أخاف منه، لكنه شاب ظريف وأعتقد أنه يعرف المدينة جيدا، لا بأس من بعض الخطر، وضحكت على حالي.

وجدت (ريتا) في الغرفة ترتخي على المقعد المقابل، قالت في هدوء:

– ينتظرك في الخارج. (وتمددت على السرير) أو يمكن أن ننهي حديثنا عن البيتزا.

– إن لم يكن الوضع خطيرا، كنت ابتعت لك متجر البيتزا ذاته.

ضحكت في أنوثة وأنا أغادر بسرعة وقالت:

– سوف أراك.

خرجت، فوجدت (جوفاني) يرتدي حقيبة ظهر وحقيبة أخرى بيده.

– إلى أين الآن يا (جوفاني)؟

– روتردام.

- ولماذا روتردام بالتحديد؟

- منطقة هادئة وأهلها بسطاء، وأرتاح في معاملتهم كثيرا.

أمام المنزل وجدت سيارة عائلية في انتظارنا، ووجدت بها حقائب كثيرة توحي من اللحظة الأولى بأن هناك عائلة على وشك المغادرة لنزهة طويلة.

انطلقنا مسرعين من مكاننا حيث لن يعود له وجود بعد الآن، يا له من بيت رائع، لولا أنه مشبوه، لعرضت عليه شراءه.

- هل هذه سيارتك؟

- لا طبعا.

إنها سيارة إضافية لأحد الإخوة، أتركها حينما أغادر، وقد كان تواجدها أسرع من شراء سيارة، يكفي ما حدث أمس أغضب العراب، وبالطبع علم بوجودي، وما حدث لي هنا، والخسائر التي تسببت فيها أمس.

قاطعه جرس هاتفه النقال، وبينما يتحدث في الهاتف نظرت لتلك البلد الجميلة الساكنة والتي يعمها الهدوء وراحة البال

وصفاء الجو، رائحة الأزهار في كل مكان وألوانها، وأيضا الكثير من الفتيات يلبسن تيجان الزهور، وتكون الفتاة جميلة إذا ارتدتها على رأسها وتمايلت أمامي بابتسامتها.

يصرخ عقلي منقلبا عليَّ: أما كفاك كل تلك الترهات؟

تحلم وتأكل وتنام على صورتها؛ مجرد عاهرة قضيت معها يوما، أصبح حبا أيها الغبي؟!

يصيح جوفاني:

- طارق، طارق، هل غفوت؟

- لا. لا. لا، أنا مستيقظ.

- ها نحن قد وصلنا.

- هل المسافة قريب؟ أم أنني غفوت فعلا على أحلامي بها؟ ماذا أفعل يا ربي؟

روتردام...

إننا في حي الفقراء؛ حيث تتواجد الأسر متوسطة الدخل والمعدمون، أرى ذلك العالم لأول مرة: سيارات صفيح، طاولات على بداية الطريق، وأسر تصنع الغذاء على الطريق، رائحة المشاوي النفاذة، الموسيقا في كل منزل رغم ضيق الحال إلا أن هذه النوعية من البشر تحاول بقدر المستطاع أن تعيش كل لحظة وكل ثانية من عمرها.

ترجلنا عن السيارة وأشار لي: مرحبا في منزلك الجديد.

– ما كل تلك الحقائب يا (جوفاني)؟

– إنها أموال.

– هل ستتركها هكذا على قارعة الطريق؟

– نعم، وما العمل؟ هل نأخذها للمنزل؟

– على الأقل تودع ذلك المبلغ في البنك، وتسحب الأموال كما تريد.

نظر لي نظرة تعجب وقال:

– أنا لا أستعمل إلا النقود الكاش، نقود حاضرة، ليس لدي متسع من الوقت لإضاعته مع ماكينات الصرف الآلي. ها نحن وصلنا.

عجبا إنه منزل ذو خمسة طوابق على الأكثر، يطل على منتزه واسع جميل، يظهر على دهان البنايات عبق الزمان، لكنه ما يزال جيدا جدا، رائحة المنزل منذ دخوله تدل على نظافة سكانه، رغم أنهم جميعا من الطبقة الدنيا؛ لا مظاهر ثراء، ولا أزهار معلقة كباقي البنايات. ها قد وصلنا ثلاث مئة وثلاث، ها هي وهذا المفتاح، دخلنا إلى الشقة، وضعت أمتعتي. غرفة ظريفة تكاد تكون غرفة من غرف منزلنا. نظرنا في كل اتجاه وأصابني (جوفاني) بالقلق ذهابا وإيابا، ونظر إلى النوافذ والمنافذ.

– (جوفاني) ماذا حل بك؟

– التأمين يا صديقي، التامين.

– تأمين ماذا؟

– المنزل حيث لا تعلم من أين تأتيك الضربة، من مكان غير متوقع، هل عندك شك في ذلك؟

- نحن نقول: "قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا".

- في عالمكم، أما في عالمنا يصيبنا الله والحاقدون والقتلة المأجورون وعصابات من كل أنحاء العالم.

أخرجت ساعة يده طنينا خفيفا، يزداد صوته ارتفاعا مع مرور الوقت.

- كل شيء جيد، لا قنابل ولا كاميرات مراقبة ولا سماعات صوتية.

- ذلك الرنين يخرج من ساعتك اليدوية؟

- إنها ليست ساعة بالمعنى المفهوم، إنها كاشفة قنابل ومستشعرة إشعاع وغازات سامة.

- رائع، وأين تباع؟

- ليس لها منشأ، لأنها طلبية أمنية خاصة، صُنِع منها لعائلتنا حوالي عشرون نسخة، حيث لا تباع ولا تشترى، وبعنا تصميمها بعد ذلك لجيش إحدى الدول المجاورة.

جلس على الأريكة وفرد أرجله على الطاولة المقابلة وقال:

- حان وقت الراحة.

شرعت في تجهيز ملابسي ونظرت إلى الغسالة، وجدت بجانبها الصابون.

- (ريتا) مساعدة ممتازة.

- لماذا؟

- لن ينقص المكان شيئا، وإن كان مسحوقا للغسيل.

- (ريتا) ليست خادمة لترى نواقصي، هي فقط تتعاقد وتدفع ولها أعمال الإخوة تلك المجنونة العنيدة.

- لم تقل لي! من (ريتا)؟ ومنذ متى تعمل معك؟

- هل أنت مهتم لهذه الدرجة؟

- أترى ذلك؟ لكن رأيت في عينيك نظرة لا أفهمها حتى الآن.

- لا أعلم، فقط أسلوبك ينم عن ذلك، وهي مشاغبة وأعلم أنها تثير المشاكل.

– في الحقيقة غير مهتم، وشرعت في توضيب حمّام، حيث أريده بشده.

فهمهم (جوفاني) وقال:

– هل تستحم أولا أم أستحم أنا أم نستحم سويا حفاظا على المياه؟ وابتسم.

وجدت نفسي بدون شعور أتجه إليه وأرمقه بنظرة غضب قائلا:

–هل حدث لها شيء؟

– أريد أن أتحدث معك بشأن ذلك.

– أرجوك يا (جوفاني) قل لي الحقيقة.

– (مبتسما) حسنا، حسنا سوف أخبرك. في الواقع، في إطار البحث عن شخصية مرموقة، وقع أحد رجالنا في تايلاند في غرام من يراقبها، تعلم ذلك العمل الروتيني، حتى لا تكون هي على علاقة بأي منظمات تعادي منظومتنا، فتقرب منها أكثر، وكان الليلة الماضية معها، ورغم إغوائها بالمال المتكرر وغوايتها جنسيا إلا أنها رفضت المبيت معه بأي حال من الأحوال، وذلك

ما جعله يتمسك بها أكثر. سهرت معه الليلة الماضية حتى وقت متأخر، وأخذت تحكي عن ذلك النبيل الذي قابلته وأمضت معه أجمل أيام عمرها، وحكت في وقت طويل عما حدث بينكما منذ اليوم الأول وكيف أنها تعتبره أكثر من صديق لها ولأختها وأن له الفضل في زواج أختها، وأنهم يعتبرونه ولي أمرهم. أولا: في أثناء حديثي معك اتصل بي وأخبرني أنه مستعد لدفع أي مبلغ في زواجها، وحتى إنها إذا اختارت شخصا لا بد أن يوافق عليه (طارق) أولا، وقد هاتفني حتى يحصل على موافقتك المبدئية أو حتى التأثير عليها، حتى ترضى عنه.

أشحت بوجهي من أمامه محاولا إخفاء دمعة سقطت من عيني، وتنفست نفسا عميقا.

- من هذا؟ وما عمله؟ وما هي صلة تقربه منك؟

نظر لي بدهشة لما أقول! وقال بلهفة:

- أنت حقا ولي أمرها يا رجل، ماذا حدث ولم كل تلك الأسئلة؟

- هل تنوي لذلك الرجل خيرا أم لا؟

– بالتأكيد فهو أحد رجالنا المتواجدين في تايلاند، وعمله الأساسي تجارة الأدوات الرياضية، وله بعض المحال التجارية بذلك العمل، ذلك العمل الظاهر، إما العمل الخفي هو يأخذ أتعابه على جمع المعلومات لنا، بعلاقاته في تايلاند، والآن هو مرابط أمام متجرها ولا يغادر.

– وما يريد مني أن أفعل؟

– مكالمة منك لها تستطيع أن تهتم به أكثر، أو يكون تصريحا نهائيا بمغادرة حياتها؛ من الواضح أنها تعلقت بك وبشدة.

– فليكن ذلك وبشروطي.

خرجت من حمامي لأجد طاولة الصالة قد تبدل حالها، واعتقدت أن أحد بائعي المخدرات قد افتتح سوقا لنفسه هنا.

نظرت إلى (جوفاني) وقلت له:

– ما هذا؟

– أسعد لحظات حياتي، ما رأيك؟

– ما هذا؟ حشيش؟

– نعم، وأجود ما صنعت أفغانستان، قطفه أولى، طبخة أولى بأفضل سعر.

قهقهت ضاحكا وأنا أقول له:

– أين جو السينما، أين تلك الفتيات ذوات فساتين السهرة وتلك الزجاجات الملونة التي بها جميع أنواع الخمور، والكوكايين منتشر على الطاولات والأرضيات، والجو يملؤه روح الدعارة؟

– كفى. كفى. كفى، تلك فقط أفلام سنيمائية يا صديقي، التدخين في منزلي ممنوع.

– ووالدك؟

– لا يدخن السجائر ولا يتعاطى المخدرات، ولا يشرب الكحول.

– وكيف ذلك؟

– إنها تعليمات، لكن حبي لذلك الحشيش لا نهائي.

– وأين المورفين والهروين والكابتاجون والفودو والإستروكس؟

– مهلا، من كل تلك الأنواع نستطيع أن نتعاطى أفضلها، لكن أي شيء مدمر للصحة ممنوع.

– وهذا مفيد صحيا؟

– الحشيش تستطيع شربه في أي وقت، والاستغناء عنه في أي وقت، إنه الصديق مثل الكتاب تماما، لكن الحكومات تضطهده لأن أحبابه كثر، ولا يستطيعون بيعه والإتجار به، الحكومات لا تحب من يربح فوق جعبتها يا صديقي، لذا فقط يضطهدون ذلك المخلوق الجميل.

– حسنا، وأين الجميلات وفتيات الليل؟

– انتظر، سوف أؤكد لك نظريتي في دقائق معدودة، خذ تلك النظرية.

إن دخلت من يوم تعب وإرهاق شديدين قل لي:

– أولا: ما هي أكلتك المفضلة؟

– بكل فخر، المشاوي والمحاشي.

استطرد قائلا: اتفقنا المحاشي.

– تمام.

- دخلت المنزل ووجدت رائحة محاشي ومشاوي، أين ستذهب فورا؟

- إلى أمي في المطبخ.

- جيد جدا، نظر لي وهو يفرك الحشيش في ذلك الغليون الطويل الذي يُشبه الشيشة، يحرقه ويأخذ نفسا ويقول بعنف وهو يخرج شبورة من السحاب تلك: حقا نظريتي هي أننا نتوجه دائما إلى ما نحب بغريزة لا شعوريه، وجدت نفسك تدخل المطبخ وتتأكد من وجود ما تشتهيه نفسك. ووجه لي ذلك الغليون العجيب.

- اسحب بلطف أولا، ثم تجهز للمرحلة التالية.

أخذت نفسا بسيطا حبا في الاستطلاع والتجربة، دمعت عيني وكأنني ملأت صدري بالإسمنت، وقلت له بتعجب:

- أتحب ذلك؟

- بل أعشقه، وأخذ نفسا عميقا جدا لدرجة أنني لم أستطع رؤيته من الدخان.

وأعطاني مرة أخرى، ترددت وقلت له:

- لا.

- لا يجوز أن أشرب بمفردي، يحزن مِنَّا الحشيش، هو كائن اجتماعي جدا ويحب المشاركة.

أحسست بوخز كامل في جسدي، وكأنني في صالة مساج وهدوء وراحة نفسية وأنا أمد يدي له وأشرع في تدخين ثاني مرة لي، أخرجت ذلك الدخان بدون مشاكل تماما وأصبحت الحياة تدور بي عدة مرات حتى رأيت (جوفاني) يتحدث معي، وأنا أراه جيدا وأسمعه لكنني فعليا لا أسمعه، وبدأت أسأل نفسي بعض الأسئلة، وبما أنك شخص محبوب وعطوف لماذا لم تحبك (أحلام)؟ الرؤية بدأت تتضح فجأة، (أحلام) أطلقت النار على (تامر)، (أحلام) كانت متوترة لعدم نزولي من المنزل، (تامر) أخذ منها ذهبا ومالا، ضبطتها في شقته كانت مرعوبة، أعطيتها فرصة الكلام وكانت مترددة، كانت تحبه، لا كانت مهددة، طلبت ألا تتطلّق وفي هدوء توقف عقلي عن الصراخ وقال: خافت من ماضيها معه والفضيحة، حاولت الابتعاد فهددها لمدة سنة، كانت تحت رحمته، وفي عصمة رجل يحاول أن يقلد أبيه تقليدا أعمى، والحياة والعادات والتقاليد والصرامة، لا تجد المفر، زوجها إن

علم مصيبة وأن توقفت مصيبة، (أحلام) كانت مظلومة لكنها في النهاية خائنة، وجدت والدي خلف منصة يرتدي زي القضاة، ويخلع نظارته الطبية ويقول لي في حدة من أنت لتقرر أنها كانت مذنبة؟ ومن أعطاك الحق في مقاضاة البشر؟ نظرت له من خلف القضبان وقلت له: يا أبي، قاطعني بحدة قائلا: يا ولدي لا تحكم على أحد بدون وجود دلائل.

(طارق)، (طارق)، (طارق)، هكذا ظل ينادي (جوفاني) أكثر من مرة.

رددت: نعم. نعم.

قال لي:

- ألم أقل لك انظر خلفك لوهلة؟

وجدت فتاة خلفي تردد بصوت خافت:

مرحبا (بلغة إنجليزية ركيكة) إنما فتاة بحق، بمقاييس الجمال المطبوعة في كتاب حورس.

قلت لها: أهلا بك.

نظرت ل(جوفاني) وقلت له:

– من هذه؟

– أول إنسانة تشم طبيخ أمك وتحضر على الرائحة، ألم تفهم قصدي؟ سيشم السكان الرائحة بغزارة، سيحضر هنا محبي الحشيش.

– وما معنى ذلك؟

– في خلال ثلاث أو أربع ساعات سوف يكتظ ذلك المكان بالجميلات وسوف ترى.

– أنا منتظر لأرى. (في لا مبالاة)

بدأ (جوفاني) يتجاذب معها أطراف الحديث، ولم أكن مهتما بالمرة بما يدور حولي، أنا في نفسي الآن، وما يدور بخلدي أنه فاجعة بكل الصور. مددت يدي وهما يتحدثان وأخذت ذلك الغليون الغريب وشرعت مرة أخرى في تدخينه، وجدت (أميرة) تقف أمامي وتتلاشى في زي مضيفة الطيران، وجدتها مرة أخرى تسحب من يدي الغليون وترمي به بعيدا وتقول لي: لست أنت

(طارق) الذي عرفته وأحببته، تتهجم عليها (سوشين) وتقول لي: هذه من تركتني من أجلها؟

أفقت على نداء من (جوفاني):

(طارق) الغليون سقط من يدك، هل أنت بخير؟

تيقنت أنني لم أغف، لكنني أسمع (جوفاني) من بعيد، ووجدت تلك الفتاة التي لا أعرف اسمها تلف ورقا بيدها، وتظنه سيجارة بها مخدر الحشيش.

– أنا بخير، بخير، وانتابني الفضول لوهلة، ماذا تفعل تلك الفتاة؟

نظرت الفتاة ل(جوفاني) وقالت له:

– هل هو في حالته الطبيعية؟

قال لها (جوفاني): هذه أول مرة يدخن بها الحشيش.

فأجابته بهز رأسها دليلا على الفهم.

نظرت لها وقلت:

– ما اسمك؟

ابتسمت ابتسامة طفولية وقالت:

- (رولا).

- مرحبا وأعتذر بسبب عدم ترحيبي بك منذ وصولك.

حاولت جاهدا لأقف، وعندما نجحت فشل الاتزان كليا وكدت أسقط عليها.

- كم سيدفع ذلك المخبول الذي أحب (سوشين) من النهاية؟

- رقم من بداية الخمسة أصفار إلى أول الستة أصفار.

- بما أنني ولي أمرها، أقول لك بما أنه يريدها فقط... وهذا آخر ما لدي.

- قل يا رجل: ما هو أخر ما لديك؟

- أنا لم أقله بعد؟

- أنا في انتظار أن تقول أي شيء!

– حسنا، إن كان يريدها فعليه أن يملّكها شقة في منطقة راقية، ومحلا للألعاب الجنسية أسفل ذلك المنزل، وأخيرا سيارة رياضية جميلة ذات لون وردي، هل هكذا اتفقنا؟

– إذا كانت تلك شروطك فأنا شخصيا موافق.

– سوف أتصل بها الآن.

أخذت هاتفي النقال، وخرجت من الغرفة إلى الهواء الطلق، وعند لمسة أول لفحة هواء لوجهي أحسست بأن العالم كله تغير لونه من الداكن إلى الوردي، وأن عينيّ سوف تسقطان من مكانها، ورن الهاتف فسمعت صوت (سوشين) ترد بلهفة عارمة.

– لقد اشتقت لك يا (طارق)، متى سوف تأتي لزيارتنا؟

– كما قلت، سوف أحضر المرة المقبلة وأرى أولادك.

في نفس اللحظة كان (جوفاني) يتصل بصديقه الذي لا أعرفه ويقول له على شروطي، وأنا أنظر إليه من خلف زجاج النافذة ويؤشر بعلامة الموافقة على شروطي لزواجها.

همست لها بهدوء وقلت: كم تثقين بي يا (سوشين)؟

- منتهى الثقة حد الموت.

- وإن أردت أن أحدثك بأن شخصا ما حدثني شخصيا وطلب يدك مني، هل تثقين بي؟

ساد الصمت لحظات قبل إن تجيب وتقول: بالطبع أقبله.

أشار لي (جوفاني) من الداخل وقال لي:

- إنه ذاهب إليها مساء اليوم.

- إنه سوف يحضر مساء الليلة في نفس المكان الذي تقابلتم به أمس.

- من تقصد (كارلوس)؟

أدرت الهاتف خلف ظهري وسألت (جوفاني):

- ما اسمه؟

- (كارلوس).

أعدت الهاتف إلى أذني، وقلت لها:

- نعم، (كارلوس).

– وبكم اشتراني منك؟

– لم يشترِكِ أحد، لقد طلبك للزواج، وأنا حددت ما عليه ولك حرية الاختيار، ما إن تأكدت من أنه يحبك ويتمنى الزواج منك، قلت له: إنني موافق بشروطي ويبقى عليك موافقتها، وها أنا قد أخبرك بموافقتي المبدئية.

– فليكن، هل أنت موافق؟

– بكل تأكيد، وما كنت اتصلت بك وأخبرتك.

– فليأت، ولنتحدث.

– أنت غير مضطرة لعمل شيء دون رغبتك.

– حسنا، عندما أقابله سوف نتحدث.

وأنهيت المكالمة، سمعت خلفي الصوت يزداد ارتفاعا، ونظرت من خلف الزجاج إلى الداخل، وجدت (جوفاني) يجلس أمامه فتاتان، وبجانبه يمنة ويسرة فتاتان أخريان، جحظت عيناي من شدة المفاجأة، ذلك الفهد يعرف كل شيء عن كل شيء، كيف يقتل، وكيف يزاول الأعمال غير المشروعة، وكيف يدفع الفتيات

حوله، لكنه لا يحب، ترى هل أحب قبل ذلك أم لا؟ ولماذا أسأل؟ فقط لأنني وجدت داخله طباعا ليست لشخص شرير، إنسان رومانسي محب للحياة، لم تكن شخصية (جوفاني) معقدة كحياته؛ إنما إنسان بسيط يحب الحياة البسيطة، رغم حياة البذخ التي هو مجبر عليها والتي تعود منذ الصغر على أسلوبها الفظ.

التفت لي (جوفاني) وقال:

- يا صديقي لماذا تحملق في وجهي؟ وكأنك تحاول التعرف عليَّ من جديد!

أفقت من تفكيري وأنا أقول له: أين كان ذلك الحشيش منذ زمن وأنا لا أعرفه؟

في قرابة الساعة، كانت قد اتصلت (رولا) بصديقتين، والصديقتان اتصلتا بأربع صديقات، والأربع صديقات اتصلن بإحدى عشرة أخرى، المكان أصبح يشبه سوقا يكتظ بالنساء، ولا أعرف مع من أتحدث، تلك هناك صاحبة المظهر الغريب تضع عشر حلقات في إذنها ومنخارها وشفتيها، الجميع يتكلم و(جوفاني) يستعرض أدوات تدخين الحشيش لديه، حيث تلك

الحقيبة التي كان يحملها خلف ظهره تمتلئ بالعديد والعديد من الأدوات البلاستيكية والخشبية وقطعتي زجاج، وجميعهم يتجهون في سبيل واحد، خدمة ذلك المخدر المهيب، لا أعرف متى وصلت لذروة ذلك المخدر؟ أم أنني لم أصل له؟ إنما عيناي تريان أشياء لم أرها من قبل، وتترجم تحركات لم أكترث لها من قبل، وأفكر في أشياء لم أتحمل التفكير فيها من قبل، كلما أردت الذهاب للمرحاض، رافقتها رغم أن باب المرحاض مفتوح. لأحضر شيئا أخاطر بالمرور من فوق الفتيات وكل منهن يعتبرني أخاهم الصغير، تحضر تلك لي الغليون وتضعه عند فمي، وتقلب أخرى سيجارة داخل فمها وتجبرني على استنشاق دخانها، وأخرى تقول لي وهى تضحك كلمات لا أفهم معناها تماما، لكنني بفهم العقل البشرى فهمت أنها تريدني أمامها وليس ببعيد، أحضرت حقيبة يدوية وقامت معي، أشرت لها بيدي إلى المرحاض فدفعتني داخله، واعتقدت أنها تريد أكثر من مساعدة شخصية، لم يمض على دخولنا ربع ساعة حتى خرجت وتركتني ملقى، في البداية ما فعلته صديقتها، وارتمت عليَّ، لم أعرف من دخلت ومن خرجت؟

مستلق في الحمام على ظهري، وإذا بفتاة أخرى تدخل خلفها وتبدأ من جديد في اغتصابي وإغوائي، فقط أعترف أنه ذلك اليوم تم اغتصابي بلا رحمة.

الثامنة صباحا...

ظهري يؤلمني وصداع مميت يفتك برأسي أثر النوم في حمام المنزل، عندما أفقت، خرجت إلى الغرف الرئيسية لأجد (جوفاني) يلتحف عدة فتيات على جسده، تغطيهم ملاءة سرير تخرج من بينها أرجل وأفخاذ الفتيات، أعتقد أنني دهست شيئا طريا في طريقي؛ إنها فتاة على الأرض! الغرفة تعج بالفتيات، في الغالب فقط بالملابس الداخلية بعضهم ملتصق ببعض، وأعتقد أنه يوجد رائحة حرق في أحد الأقمشة أو السجاد، كل شيء جيد ولا يوجد حرائق كبيرة. نظرت إلى حقيبتي وهي بعيدة المنال، لا أستطع تفادي كل ذلك فقط وأحضرها، وصوت خافت من خلفي يقول:

- صباح الخير.

زال ذلك التفكير عند أخذ حمام، وإذا بالصوت يأتي من خلفي وأنا أرد:

– صباح الخير. (إحدى فتيات الأمس استيقظت)

– ألا يوجد قهوة هنا؟

– لا، لقد انتقلنا أمس فقط قبل حضور الجميع.

– هيا بنا.

– أين؟

– أقرب مكان نحضر منه قهوة، ذلك الجمع من البشر سوف يريد شرب قهوة جماعية.

– فقط أرتدي ثيابي.

– إنك مرتديها.

– هذا بنطال رياضي وقميص.

– ما عليك هو ارتداء النعل المناسب، هيا.

ذهبت خلفها ولا أعرفها، ولا أعرف اسمها حتى الآن، وكأن مسئوليتي هؤلاء الحمقى الذين يريدون قهوة، ليست مشكلتي ولا حياتي تتلخص في احتياجاتهم، وحياتهم ليست مشكلتي.

- ما اسمك؟

- (طارق).

- ما عملك؟

- أعمل في محطة وقود أنظف السيارات.

- صديقك فاحش الثراء! كيف تعرفت إليه؟

- إنني أعمل سائقا له في أوقات الفراغ، حيث صاحب محطة الوقود يحتاجني من حين لأخر، ولذلك عملي معه بسيط وأحتاج إلى عمل يدر مالا، فأعمل سائقا بالأجر. وأنت ما اسمك؟

- (فيولا ميلانو).

- (بدون اكتراث) تشرفت بمعرفتك، هل تعملين؟

- أنا أعمل في موقع شراء وبيع منتجات إلكتروني.

نظرت لها مليا، كانت فتاه لا أستطيع إعطاءها أكثر من (٢٢) عاما.

وتبدو ضعيفة البنية بيضاء البشرة، وكأنها مغسولة بمسحوق ومطهر، ذات وجه مستدير وعينين بماء البحر

تلونت وأحيانا تقلب خضراء، هالات سوداء حول عينيها من تدخين المخدرات بكل تأكيد، وكأنني أشاهد أحد الأفلام العربية القديمة.

- هل أعجبتك السهرة؟

- نعم، رغم ضيق المكان، لقد كانت جيدة، والجميل أن الحشيش بوفرة.

- هل تدخنين منذ زمن؟

- نعم، كان عمري تسعة عشر عاما.

- منذ زمن؟ كم عاما مر على ذلك؟

- منذ عشر سنوات.

أشرت بوجهي علامة على الفهم، ولكن لا يعطي عمرها التاسعة والعشرين.

- تقول الفتيات أمس إنك كنت جيدا، لكنني أشفقت عليك؛ لقد تناوبت عليك الفتيات بشكل مؤسف.

- لقد تعودت على ذلك؛ فمنذ قدومي وأنا أُغتصب.

- ها قد وصلنا.

- ماذا تفعلين؟

- سوف نحضر القهوة.

- أنا من سيشتري القهوة وليس أنت.

- لماذا؟

- أنت ضيفة في منزلنا ولا أستطيع تركك تدفعي شيئا.

- من أين أنت؟

- أنا مصري.

– عندما أحضر مصر في زيارة لا تدعني أفعل ذلك، إنما أنت هنا في هولاندا ضيفي، ولن أتركك تدفع ثمن هذا.

تركتني ودخلت محل القهوة وأنا مسبهل وما زالت واقفا مكاني لا أتحرك، حاولت أن أشتري شيئا أو أحضر شيئا للإفطار، لم أجد شيئا أعرفه تماما، حاولت أن أتحدث مع أي أحد بالإنجليزية، لا أحد يرد عليَّ.

وأن كانت هولاندا أكثر تقدما من تايلاند إلا أن الكهل والطفل هناك كانوا يتحدثون الإنجليزية بطلاقة، كيف لهذا أن يُعقل؟

خرجت (فيولا) من متجر القهوة تحمل عشرة أكواب،

وقالت: الباقي في الداخل أحضره.

فأحسست أن لهجتها فيها نوع من الأمر، ولقد نسيت لوهلة أنني السائق الخاص ل(جوفاني).

قلت لها بأسلوب مبتذل:

– حسنا سيدتي.

ودخلت لأحضر باقي أكواب القهوة.

عندما دخلنا المنزل، وجدنا الجميع كما تركناهم وجوههم تحاكي الموتى، ولولا أنفاسهم لاعتقدنا أنهم من مخلفات الحرب العالمية الثانية. قاربت الساعة للتاسعة والنصف حين أيقظنا الجميع، حيث إن البعض لديه عمل يؤديه. استمر الجميع بالانسحاب واحدة تلو الأخرى.

نظر لي (جوفاني) نظرة شفقة وقال لي:

- كنت ممتازا أمس وأداؤك أكثر من رائع.

نظرت له بغضب وقلت له:

- هل رأيتني أمس وأنا يتم اغتصابي؟

- كنت سعيدا جدا، وكان الفتيات يخرجن بسعادة متناهية من المرحاض.

فقمت بضربه وانهال عليَّ بضحكات استفزازية.

خرجت من الحمام طالبا سريرا وغطاء، لأنني لم أنم جيدا وجسدي بالكامل يؤلمني، نظرت في غرفة النوم وجدت (جوفاني) مستلقٍ على الأرض ونائما، وكأنها غيبوبة قد دخل بها.

زواج ليس إلا...

ضاق على (كارلوس) الانتظار، وأصبح ينظر في ساعته أكثر من اللازم، تارة يتصبب عرقا، وتارة ينظر في ساعته، تعب المنديل وتعبت يده. (كارلوس) شاب في منتصف الثلاثينات، به شيء من الوسامة تختفي مع تلك النظرة الصارمة من عينه وجسده البدين نسبيا، يقول إنه كان رياضيا قديما وأقلع عن تلك الرياضة تاركا جسده تتكالب عليه الشحوم. حين دخلت المطعم (سوشين) تهللت أساريره، وانتفض شوقا حتى يقدم لها احترامه، لولا أن مقعده من شدة السرعة قد ركله وكاد أن يسقط الطاولة، في إحراج شديد أمسك يد (سوشين) بكل رقة وقال:

– أهلا ومرحبا بك. (وأزاح لها المقعد لتجلس)

ابتسامة طفيفة تداعب شفتيها؛ من فرط الكوميديا التي رأتها منذ ثوان معدودة.

عدّل النادل المقعد الخاص ب (كارلوس)، فشكره على التعاون، وابتسم ابتسامة حانية وقال لها:

– ماذا تشربين؟ أم أنك تودين العشاء أولا؟

قالت له بتهذيب:

- كما ترى.

ابتسم ابتسامة عظيمة وقال:

- إنه العشاء إذن.

أشار بيده إلى النادل، وطلب عشاء فاخرا ثم اعتدل.

- (سوشين) في بداية الأمر لقد تعارفنا أمس معرفة سطحية، ولا أخفيك القول إنني كانت لدي نوايا مختلفة عن لقائي بك الآن تماما، ما إن سمعت قصة حبك لذلك المصري، وكيف كان عطوفا حنونا وكيف كانت أيامك سعيدة معه لتلك الدرجة، أحببت إن أكون تلك الشخصية، وأن أكون ذلك الفارس الذي ملأ قلبك وكيانك بذلك الحب والعطف، وفي الوقت نفسه، وجدت أنني أمتلك بعض صفات تلك الشخصية، وفوق كل ذلك لا أستطيع منع عيني من النظر إليك والهيام بك، وحبي الشديد لأن أبقى جانبك وأنظر لعينيك.

نظرت له نظرة اندهاش شديد:

- كل ذلك خلال كأسين تناولناهما سويا؟

ابتسم بخجل وقال:

- إنها زجاجة ونصف من (الجي أند بي)، تناولت أنا منها شخصيا كأسين.

فاحمر وجهها خجلا وقالت له:

- هل أنت معترض على شيء؟

- والمسيح أبدا، فقط كنت أخشى عليك أنت من كثرة الشراب، وعلى صحتك، حيث إنني لا أشرب الكحول بكثرة، ولا أحبه لأسباب شخصية.

- وما تلك الأسباب؟

- لقد توفي أخي بسبب الإفراط في الشرب، لقد أودى بحياته بالكامل، غالبا أخاف منه على من أحب، وليس أنت من يسكر من الشراب، فإنه على الشراب أن يسكر منك.

نظرت له مبتسمة:

- وشاعر أيضا!

– وخياط وطباخ وعامل وحارس شخصي إن أحببت.

– ماذا تعمل يا (كارلوس)؟

– لديَّ متاجر للملابس وماكينات الأدوات الرياضية.

– عظيم، وكيف تعرفت ب(طارق)؟

تصبب عرقا وازداد حيرة وقال لها:

– مستر (طارق) كان يستورد مني ملابس رياضية، ومعرفتي به سطحية، لكنه طلب مني أن أطمئن على أحوالك من بعيد، وللأسف وجدتني ألتصق دون شعور، ودون أن أدري دق قلبي للمرة الأولى، قد عرفت منك أنك تعتبرينه كولي أمرك، حين رددت أنك تريدينه أن يوافق على أي شيء قد يتم في حياتك، وأنه كان السبب الأول في زواج أختك، أليس كذلك؟ في الحقيقة لم أستطع السيطرة على نفسي، ووجدتني أتصل به وأخذ رأيه في ذلك، حتى أعرف أن له التأثير عليك، تحدثنا مليا، وقال لي رغباته في تأمين مستقبلك، وقال القرار الأول والأخير لك، وليس له، فقط وضع بعض الشروط إذا تمت موافقتك المبدئية، وقد وافقت عليها دون أي اعتراض.

– وما هي؟

– شقة في وسط المدينة في إحدى المناطق الراقية، سيارة رياضيه باللون الوردي تمتلكينها، ومحل تجاري لبيع الأدوات الجنسية بحجم الشقة، وبنفس البناية التي تقطنين بها، وأنا لن أقاطعه أو أرفض له طلبا، فقط لو توافقين؟

لمعت عيون (سوشين) في تلك اللحظة وقالت له:

– اعذرني؛ عليَّ دخول المرحاض.

مشت في خطوات ثابتة ومنفعلة، وقفت أمام المرآة في المرحاض وقالت: حتى وأنت بعيد تحاول أن تجد الأفضل لنا في الحياة.

بكت بكاء لا تعرف هل هي تبكي أم أن السماء بدأت تمطر فوق رأسها؟ ودفنت وجهها بين كفيها.

الساعة الخامسة عصرا، وما زلنا نياما، قمت وطقطقت ظهري برفق وأصابعي، وكأنني لم أنم منذ زمن، استفاق (جوفاني) على صوت طقطقة يدي.

- إنني أتضور جوعا يا صديق.

- (مداعبا) ماذا نفعل يا صديق؟ أقوم بالطبخ لك؟

- هيا، قم.

- لماذا؟

- سوف نذهب لأجمل مطعم بيتزا في هولندا (بيتزا بينتو أمستردام).

- وأنا لم أخف شيئا في هذا البلد من يوم وطئته قدمي، أكثر من (بيتزا بينتو أمستردام) التي تحبها (ريتا) أيضا.

نظرت له فوجدت عينيه تفيضان من الهيام.

- ما رأيك إن ندعوها لتناول البيتزا معنا؟

- صدقت، هيا نتصل بها ونتقابل هناك.

- ألن تحكي لي لماذا لم تتزوجا؟

- أنا و (ريتا)؟

- وهل أنا قلت (ريتا)؟

رمقني بنظرة غاضبة وعلم أنني كنت أتلاعب بالألفاظ حتى أوقع به، نظر لي بلؤم...

- هل جهزت الأمنية الثانية؟

- نعم صدقت، تلك أمنيتي الثانية، وأمامنا الطريق طويل حتى نصل لمطعم (بينتو) وتحكي.

- أولا: ننفث حشيشنا الغالي، ثم ننطلق وأحكي لك ما شئت.

غادرنا الشقة متجهين للسيارة التي من وجهة نظره لا تلفت الأنظار، لم نتوقف عن الضحك بسبب أو بدون سبب، وبما أنني جديد كليا على ذلك المدعو، إلا أنني اليوم أختبر شيئا جديدا، سعادة لا متناهية يصنعها ذلك الملعون، له الحق حقا في عشقه.

وصلنا للسيارة وقال لي:

- منذ سبع سنوات حدث في عالم المافيا ما لا يخطر ببال أحد، انشق زعيم من زعماء الجنوب عن القسم وقال إنه يريد أن يصبح حرا من أعمال الجريمة، وإن لم تكف الأسرة عن ملاحقته، سوف يذهب للشرطة الدولية ويدلي بشهادته عن كل ما عاشه، ويفضح ذلك الجزء المهيب عند الناس عن قسم القديسين.

- ماذا قلت؟

- قسم القديسين، يحضر الزعيم صورة لقديس ما ويجعل قارئ القسم يضع بضع قطرات من دم إبهامه عليها ويحرق الصورة، ويقول إنه إذا خالف التعاليم وحنث بالقسم، وأدلى بأقل التفاصيل، أن يحرق مثل تلك الصورة في الجحيم.

- حسنا، جيد جدا، وما دخل ذلك بقصة حبنا يا (دون جوان).

- أوو، أنت تعرف قصة (الدون جوان)؟

- لا، ولا أريد أن أعرفها، أريد مع ذلك الانتشاء سماع قصة حب، ما دخلي الآن بمن انشق ومن تقطع؟

- أُكمِل وسوف تفهم كل شيء، (فاليريو توماسو نيودورا) ذلك المنشق جعل حياة الجميع كالجحيم، لم تكف العائلة عن

ملاحقته، سواء باللين أو بالتهديد، حيث يعلم أن الانشقاق قد يطيح به وبعائلته لكنه لم يكترث أو كما تقول أصبح من هول ما رآه في تعداد الأموات، والخلاص الوحيد من وجهة نظره كان البعد عن العائلة والهروب، في نفس الوقت كانت هناك قصه حب بدأت بالفعل، حيث شاب وفتاه كانا يلتقيان خلسة تحت مرأى ومسمع العائلة في الخفاء، أحيانا يتناولان كأس الحب المقدس من أنهار الشغف الممتلئة برحيق أزهار الحياة، يكتبون علي الرمال البيضاء قصة عشق كقصة (بوني وكلايد)، عاشقان حتى الموت، لم يفرق بينهما الموت بل خلّد ذكراهم في العالم أجمع، يشتركان معا في الجريمة والمداهمات الصغيرة حتى يقوى ساعداهما جيدا.

- ما هذا؟ من هم (بونى وكلايد)؟ (عنتر وعبلة) تقصد مثلا؟

تمتم في غرابة: (عنتر) من؟

- قصص العشاق، هكذا تقصد؟

- نعم، إنه كذلك.

- أكمل.

- لا تقاطعني، حسنا؟ أين انتهينا؟

- (بون وبونى).

- لا، و(كلايد).

- حسنا أكمل.

سرد القصة وقد أخذت منحنى رومانسيا وعاطفيا، انتظرت أن يصرح بحبه لها، وقتها قد اتخذ الخائن قراره بالهرب هو وأسرته، أبت الفتاة أن تهرب وقالت إنها سوف تستنجد بالأب الروحي، وبالفعل اتصلت الفتاة بالزعيم وأخبرته بنية والدها في الهرب، قال لها العراب ثلاث كلمات بالعدد: "أنت تعرفين القانون" وأغلق الهاتف، ورغم أنها فتاة ما تزال في الثامنة عشر من عمرها، وشديدة الولاء للعائلة وتعرف القوانين حق المعرفة، كان لها أن تقرر إما أن يموت والدها وأمها وأخوها الرضيع، أو تتخذ أصعب وأقوى قرار يمكن أن يتخذه مخلوق على وجه الأرض.

- ما هو؟

نظر لي بعين تملؤها الشراسة وقال:

- لا بد أن يقتل الخائن بيد ابنه البكر.

كنت أريد أن أسمع قصة رومانسية مع العلم أنني علمت أن تلك الفتاة الرقيقة هي (ريتا) وذلك الشاب هو (جوفاني)، وطاحت كل آمالي بسماع قصة رومانسية فقط وأنا أحاول أن أجمع بين عاشقين أو على الأقل أرى نظرة العشق في عين (جوفاني) ولا أراها في عين (ريتا)، لهذه الدرجة المرأة قادرة على إخفاء مشاعرها؟

ولها القدرة علي تخطى كل تلك الأزمات وتقتل والدها.

- نعم يا صديقي.

- هل تسمعني؟

- نعم منذ بداية محاولتك لجعلها قصة رومانسية.

- تبا، وأنا أعتقد أنني أتحدث في قرارة نفسي ووضعت يدي على وجهي.

- وما في ذلك بعلاقتك بها؟

– أولا، يظهر أبناء الخائن وهم منبوذون من العائلة، لا يبقون في البلاد يرحلون مع مؤن، تكفي الطفل حتى يصبح رجلا، والفتاة حتى تتزوج، ولا دخل لهم بأعمال العائلة من قريب أو من بعيد.

– اعتقدت أن (ريتا) من العائلة الآن.

– لا، بعدما تم ذلك علمت من والدي أن العائلة وجدت لهم ملاذا في "هولاندا" حيث يعيشون ويكمل (استيفانو) شقيق (ريتا) الصغير تعليمه، من زيارة لأخرى استطعت أن أكون (لريتا) مجموعة وسميتها (الإخوة)، حتى تستطيع ممارسة أنشطتها المختلفة تعتبر مافيا صغيرة، لكن بسبب عقليتها قاربت معارفها واتصالاتها حول العالم أن تتحول إلى منظمة.

– وذلك يمنعك عنها؟

ساد الصمت لحظة؛ لأننا قاربنا من المطعم وأردف قائلا:

– ليس من المنطقي أن يتزوج العراب الجديد منبوذة تماما؛ يُعدَّ تشويها للنسل، ولن تستمر علاقاتنا ولا أساس لها؛ لأنها إذا ما حملت طفلا مني وعلمت العائلة، تُقتَل هي والطفل، وبما أننا لن

نكون لبعض في يوم من الأيام، فلماذا لا يعيش كل منا حياته الخاصة، حتى إن لقاءاتنا إن عُرِفَت على الملأ سوف يكون الوضع محرجا للعراب، رغم علم القليل بلقاءاتنا، ولكن الجميع يعرف أننا أصدقاء الطفولة، فلا مانع، إلى أن تحدث المعجزة ونكون سويا مرة أخرى.

- كيف؟

ارتطم بأذننا صوت أنثوي جذاب يقول:

- أن تتفكك المنظمة ويبقى العراب الجديد مجرد مواطن إيطالي لا أكثر، بذلك لن تكون لنا علاقة بعراب، أو منظمة غير شرعية.

نظرنا خلفنا، وجدنا (ريتا) تقف خلفنا، وتقول ل(جوفاني):

- ماذا حكيت يا(جوفاني)؟

- ما سمعت.

- وتلك القصة تروى بذلك الصوت في شوارع "هولاندا"؟

نظرت لها في اندهاش عارم وقلت:

- أنت تتحدثين العربية؟!

– نعم، وما يحدث الآن وأنتما منتشيان أكبر خطأ، قد يستمع لنا شخص لا نراه، (جوفاني) هل نسيت تدريباتك أم أن مخدر الحشيش أعمى بصيرتك؟

تردد (جوفاني) قبل الرد عليها، وأخيرا قال بصوت يحاكي الرعد في نبرته:

– (ريتا)، هل تقررين ما عليَّ أن أفعل ولا أفعل؟

فجأة وضعت رأسها في الأرض وبكل تلعثم قالت:

– اعذرني يا سيدي إن أخطأت القول، لكن تلك التعليمات الأمنية وأنت أدرى الناس بها.

– لن أنبهك على تلك الهفوات مرة أخرى، من المفترض أنك تعلمين ما يفترض بي فعله الآن، لكن أنت تعتمدين على مكانتك عندي في التحاور وأسلوب الحديث، والآن تستطيعين الانصراف، سوف نتناول غداءنا بمفردنا.

أحنت رأسها مرة أخرى، وقالت:

– (دون جوفاني). ورحلت.

أدرت وجهي إليه وهو ينظر إلى خطواتها الثابتة من أمامه، وقلت له في استنكار شديد وغضب:

- ما هذه الفظاظة غير المبررة؟

- (بحزم) لا بد من وجود حدود دائما بين الرتب يا (طارق)، وذلك شر لا بد منه.

- لم أجد أي داعٍ لذلك!

- هل تعلم يا (طارق) ماذا يحل بها إذا علمت أنني ما زلت أكن لها الشوق؟

أنت بعيد كل البعد عن تلك الحياة المعقدة، لقد كتب علينا القدر أن نسير تلك الخطوات رغما عنا، ولا عودة من ذلك الطريق سوى الموت.

(وبرقت عيناه وهو يقول تلك الكلمة، وكأنها الخلاص الوحيد من تلك الحياة التي لا تعطيك أبسط حقوقك كإنسان طبيعي، تتمنى وتعشق وتسير باطمئنان كباقي خلق الله.)

هيا بنا؛ فأنا في انتظار أن آكل البيتزا بكل جوارحي، ألست

جوعان؟

- ألم تتضور جوعا منذ دقائق؟

- لقد أطحت بشهيتي منذ صرفتها، هل لي بصفة الصداقة أن أذهب وأوقفها ونذهب لنأكل كما خططنا، واعتبرها أمنيتي.

- بحق الصداقة؟

- نعم.

- اذهب ووافوني في الداخل.

ظلت عيناي تراقب عينه حتى بدأت السير باتجاه سيارتها،

ذهبت باتجاهها وكلي فضول لأن أرى تلك الدمعة التي تسيل على خدها، وأحاول أن ألطف الأجواء بينهما، وصلت إلى سيارتها وجدتها صارمة أمامي وكأن شيئا لم يكن.

- أتمنى ألا يكون الحديث مع (جوفاني) قد أثار مضايقتك.

- لا أبدا، دون (جوفاني) دائما ما كان يهتم بي واحتياجاتي، ولا أنسى أنه دائما ما وقف بجانبي، وكان خطئي الوحيد هو أنني في بعض الأحيان أتدلل عليه، لأننا...

قاطعتها وقلت:

- عاشقان.

أشاحت برأسها وكأنها تريد نسيان تلك الفترة من حياتها، وقالت:

- لا لسنا عاشقين، ولن تستطع في تلك الحياة، وكم تمنينا أن تكون لنا حياة أخرى نستطيع أن نكون فيها سويا، أنت لا تعرف قلب (جوفاني)، وتصرفاته هي العادات والتقاليد، وقد احتدت قليلا بالحديث كون ما يقوله (جوفاني) سيجعلني أكثر الوحوش ضراوة على وجه الأرض.

- وأنا أراك أرق مخلوق على وجه الأرض، أرجوك هيا بنا لقد تضورت جوعا في تلك البلاد، رجاءً؛ معدتي أصبحت فارغة تماما.

نزلت عن سيارتها وذهبنا سويا، حيث تلك البيتزا التي لا تريد أن تُهضَم.

زيارة الشيطان...

في ربوة من أرقى بقاع باليرمو، يقع على أعلى هضابها قصر منيف، يعرف الجميع صاحبه جيدا، ويعرف جميع سكان "باليرمو" أن من اقترب مسافة كيلو متر واحد من هذه المنطقة، يقتل بلا رحمة، تدخل سيارة "رولز رايس" من البوابة الرئيسية، حيث عندما يرى الحراس الراكب خلف السائق تفتح له الأبواب فورا، يقف أحد الحراس أمام السيارة ويطالب السائق بفتح الشنطة الخلفية، ينزل الزجاج الخلفي للسيارة ويظهر ذلك الرجل ذو العيون الزرقاء والشعر الأبيض، يرتبك الحارس الضخم الجثة عندما تطل عيون ذلك الزائر من خلف قبعته الأنيقة، ويبتلع الحارس ريقه في صعوبة بالغة، وترتسم على شفاهه ابتسامة مهزوزة أثر الصدمة، وكأنه أصيب حالا بذبحة ويقول بصوت يملؤه الرعب: لورد (عيسى) مرحبا، وينزع جسده الضخم من الطريق وكأنه كرة قد قذفها لاعب محترف بينما ينظر إلى الشابين الجالسين داخل غرفة البوابة الإلكترونية ويقول لهم:

– ألم ينبهني أحد منكم، عديمي الفائدة، أنه غير سيارته؟!

نظر لهم بوجه مكفهر يملؤه العرق، وخرج وهو يسب ويلعن أسلافهم،

تحدث أحد الشابين للآخر: ماذا تكتب أنت؟

قال له الشاب الآخر:

– ما بكم يا (مارك)؟ أكتب رقم السيارة وميعاد الدخول، كما قلتم لي في يومي الأول.

– يا (روبلي) تلك السيارة غير مرئية تدخل وتخرج دون أن يراها أحد ولا يكتب شخص عنها شيئا وتخرج كما دخلت هل فهمت؟

– من هذا وما أهميته؟

– ذلك الشيطان (عيسى يسابيللى) أحد أعمدة ذلك المنزل، وإياك أن تلفظ اسمه، إياك؛ إنه يشبه (اللورد فولد مولت) في قصص الخيال الإنجليزي.

– وما أهميته لذلك الرعب، لقد أطاح بنا الزعيم منذ دقائق سبابا وصراخا بسببه؟

قال له بنبرة متوترة وخافضا صوته يكاد (رويلي) يسمعه:

– إنه الشيطان نفسه؛ نصف أمريكي ونصف إيطالي، صديق الطفولة للدون (جبرائيل سلفاتورة)، يقال إنه عميل متقاعد في (السي أي أيه) والعديد من القصص حوله لا تدري أيها حقيقة وأيها كذبا، وهو من تدرب على يده الدون (جوفاني) ويعتبر أبا ثانٍ له، نحن نحمد الرب أن كان تحدث فقط للزعيم فلتعلم أن الزعيم الآن في تعداد الموتى، اقطع تلك الصفحة بالكامل حبا في الرب، وابدأ من البداية ولا تشر للسيارة أساسا في الطريق إذا صادف ورأيتها، أفهمت؟ دعنا نمر تلك الساعة المتواجد بها داخل القصر على خير.

ترجل اللورد (عيسى) عن سيارته الأنيقة، ودخل بهو القصر في خطى منتظمة وواثقة، وكأنه ضابط جيش في عرض عسكري، اتجه نحو غرفة المكتب الخاصة بالدون (جبرائيل) ودق الباب أربع دقات متتالية سريعة، فتح باب المكتب أحد العاملين بالخدمة داخل القصر، وعندما رآه وضع رأسه في الأرض وقال بصوت خافت:

– مرحبا لورد (عيسى).

تهللت أسارير (جبرائيل) عندما رأى (عيسى)، وقال له:

- مرحبا (عيسى).

انحنى (عيسى) يقبل ذلك الخاتم في إصبع (جبرائيل) ثم اعتدل واقفا، جلسا سويا على أريكة بعيدة عن المكتب ورفع (جبرائيل) علبة السيجار الكوبي (لعيسى) حيث التقط الآخر بدوره إحداها، وشرع (جبرائيل) في الحديث: كيف أحوالك يا (عيسى)؟ غبت شهرا دون مكالمة هاتفية.

- كلفتني إحدى المنظمات بعمل سريع فأنجزته.

- وأنت من يجيد الأعمال السريعة (ثم أردف بأهمية): (عيسى) الوقت ينفد مني، وذلك الملعون قد تمكن مني لولا ذلك المخدر ما كنت لأقف على قدمي، و(جوفاني) غير متواجد.

- أين ذهب؟

- تبا لك؛ لقد أفرطت في تدريبه حتى أصبح يتنكر في شخصي أنا وإن وقف أمامي قد أشك أنه أنا وأنا (جوفاني).

– إنه أفضل تلاميذي وأبرعهم على الإطلاق، وذلك ليس بسببي يا (جبرائيل)؛ ذلك بفضل المنهج الذي وضعته له منذ نعومة أظافره، هل تنسى ذلك؟

– لا أنسى يا (عيسى)، لكنه شاب ما يزال طائشا، نعم إنه قوي العزيمة والشكيمة، ومعالجته في كثير من المواقف الأفضل والأصح، لكن مازال شابا ومندفعا، أخشى عليه أن تتكالب عليه الضباع من بعدي.

– لا تقلق؛ إنه ولدي مثلما هو ولدك، كن مطمئنا، كل شيء على ما يرام، أين هو أشتاق إليه كثيرا؟

– لقد تبخر منذ يومين.

تعالت ضحكات (عيسى) وهو يقول:

– مرة أخرى؟

– قل المرة الألف، علمت بأنه في هولندا وعلمت أيضا بمذبحة قام بها جهرا ضد المافيا الروسية، ووضعهم في موقف حرج ووضعني في موقف قوة، لكنني لا أتحمل المفاوضات

والاجتماعات منذ فترة، لا بد أن يعود قبل أن أذهب إلى جوار ربي.

- أتمنى إن استطعت مساعدة صديق عمري بشيء ألا أتأخر، يا رجل قل لي ما العمل؟

- حانت اللحظة التي سوف أرمى كل شيء عن عاتقي على (جوفاني).

- هذا ليس منطقيا بالمرة، لن يستلم من أحد الزعامة والرئيس على قيد الحياة.

- لقد تبدل الزمن يا صديقي، وإن كان من الأفضل أن ننشر خبر وفاتي سيكون ذلك في الصالح، والآن لا بد أن نأخذ كل احتياطاتنا حتى لا نثير أي شك بأن الزعامة ل(جوفاني).

نظر (عيسى) ل(جبرائيل) نظرة طويلة وقال له:

- هل يوجد شك في ذلك؟

- نعم يوجد من يشكك في ذلك؟

- أتمنى ألا يظهروا وأنا حي، لا تقلق.

ظهرت علامات عدم الارتياح على وجه (جبرائيل) وهو يقول:

– لقد أرسلت عددا من رجالنا خلفه اليوم يبحثون عنه وأتمنى أن تأتي أخبار قريبا.

الفخ...

بيتزا (بينتو أمستردام)

ارتسمت ابتسامة باهتة على شفاه (ريتا) وهي تجلس أمام (جوفاني) وتقول له:

– أشكرك دون (جوفاني) على دعوة الغداء.

ابتسمت من فرط الأداء العسكري الذي تحدثت به (ريتا)،

وجدت جوفاني صامتا لا يتحدث، فأجبتها:

– هذا من دواعي سروره.

نظرت إلى (جوفاني) فقال: نعم. ثم التفت إليها وقال: هذا من دواعي سروري لقد حضر النادل وأعطيته طلبك المعهود، واعذرني يا (طارق) لقد اخترت لك بيتزا المأكولات البحرية، ظنا مني أنك لا تثق إلا في الأسماك عن أي لحوم قد تقدم لك.

– أحسنت الاختيار يا دون (جوفاني).

بدون أن أدري خرجت مني بأسلوب عسكري بحت، فعلت ضحكاتنا مرة واحدة في نفس الوقت.

أحضر النادل الأطباق على عجل.

قال النادل بلهجة لا يبدو فيها الارتياح:

- شيء آخر؟

قال له (جوفاني) بلهجة صارمة:

- لا.

"فاختفى من أمامنا بلمح البصر".

قلت ل(جوفاني) في تعجب شديد لطريقة التعامل بينهم:

- ما لهذا النادل مكفهر الوجه، عابث، حتى إنه قال كلمتين وأنت كان ردك كلمة واحدة؟

- لا تهتم؛ البشر هنا ليس لديهم من المجاملات ما يعطونك إياه، ولا من حسن الضيافة أو الخدمة، فقط نختصر الأحاديث ويعتبر أهل أمستردام من أصحاب الكلمات الجارحة والتصرفات التي تظهر غير مقبولة لغيرهم، حيث يفضلون الصرامة والصراحة عن المجاملات والتعابير، وكاد يكمل كلماته لولا أن رأى تحركات غريبة في المطعم، نظر إلى (ريتا) وقال:

- هل تشعرين بما أشعر به؟

- نعم، أظن ذلك.

أشار (جوفاني) بيده للنادل وقال:

- تعال، كم حسابك؟

حضر النادل وحاول أن يتحدث، لكن جوفاني قاطعه،

طبع في يده مئتي يورو، وقال:

- حساب الغذاء مئة واثنان وعشرون يورو مضاف عليهم الضريبة والخدمة والباقي لك.

اعترضت بشدة، أنا لم أبدأ غدائي بعد:

- ماذا حدث؟

- هيا بنا الآن يا (طارق)، اذهب مع (ريتا) بسيارتها.

(وهممنا جميعا بالخروج، وجدنا ثلاثة مسدسات متوجهين إلينا.)

في تلك لحظة، أغلق (جبرائيل) هاتفه وهو يقول لعيسى:

– جيد جدا؛ وجده أتباع رجالنا في "أمستردام" يأكل البيتزا، دقائق ويتصل بي لأشرح له الأمر، وأقول له أن يعود للأهمية.

– هل هؤلاء الرجال يعرفون من هو؟

– إنهم رجالنا.

قال (عيسى): لا، أتباع رجالك هناك، يعرفون من هو؟

– بالطبع يعرفون.

– أتمنى ذلك، وإلا ذلك المطعم سينفجر الآن من قنبلة موقوتة. (وابتسم ابتسامة ماكرة على وجهه.)

نظر أحد الرجال إلى (جوفاني) وقال له:

– ما اسمك؟

نظر له (جوفاني) بدهشة عارمة وقال:

– هل أتيت إلى هنا بالخطأ، أم أنك تبحث عن شخص بعينه؟

قال له الرجل مكررا سؤاله بغضب:

- هل أنت (جوفاني)؟

باغت (جوفاني) أحدهم وانقضت (ريتا) على الآخر وكان لي نفس رد الفعل.

حيث ثنى (جوفاني) ذراع المقابل له، وأخذ منه مسدسه، وأصبح موجها له في رقبته، سيطرت (ريتا) على أحدهم، وركلت أنا معدة الآخر، وعندما انحنى التقطت مسدسه وركلته في قدمه فوقع على وجهه، ثنيت ذراعه ووضعت ركبتي فوق ظهره ماسكا بيدي مسدسه مصوبا إياه نحو رأسه، و(ريتا) تهمس باندهاش:

- أين تعلمت هذا؟

- منذ لقائي ب(جوفاني) وأصبحت أتوقع الأسوأ فقط، وبذلك تزيد مهاراتي.

قال (جوفاني) بصوت مسموع:

- من أرسلك؟

- نحن رجال (كوزا نوسترا) في "هولندا" ولن تنجو بفعلتك.

فقال له (جوفاني) وهو يخبط رأسه بكعب مسدسه:

- وغبي أيضا؟

وقالت (ريتا) في توتر:

- أعتقد أن العراب تحرك.

قبل أن يستفيق الرجال، خرجنا ثلاثتنا من باب المطعم. ونحن نركض قال (جوفاني):

- كيف تحركت معي في نفس اللحظة؟

- اعتقدت أنني إن سيطرت على أحدهم قد أنقذ الموقف.

ونظر (لريتا) وقال لها:

- أعرف أنك تحركت معي.

- هل تتوقع ذلك؟ (وهي تبتسم.)

وصلنا جميعا لسيارة (ريتا) وقفزنا داخلها، قلت له:

- هل هؤلاء رجالك؟

- هؤلاء في الغالب عصابات ضعيفة في كل مدينة، تستأجرها المافيا لعمليات البحث الصغيرة، حيث إن آخر حدوده هي الإبلاغ عن مكان الهدف، وليس التعامل معه.

- أتباع فقط؟

- نعم.

في تلك اللحظة وصل سبع سيارات لاند روفر إلى مطعم البيتزا، وترجل عنها شخص أنيق ببذلة ورباط عنق مبهرين، وكأن عرسه اليوم، نظر إلى أرضية المطعم، وجد أحد الرجال ممدد على أرضيته واثنين آخرين بجانبه، قال لهم:

أليس من المفترض أن عملكم هو الإبلاغ عن مكان الهدف؟

قل أحدهم: لقد ارتجل الزعيم وأراد أن يحضر الهدف بنفسه لك.

قال: وهل كانت فكرته؟

نظر الشابان لبعضهما وله وهو مستلقٍ على الأرض أثر تلك الضربة التي تلقاها من (جوفاني).

أخرج ذلك الضيف مسدسه، صوبه نحو رأس زعيمهم، وقال له:

– لولا أنك تعمل معنا منذ زمن لقتلتك الآن على مرأى ومسمع من سكان "أمستردام" جميعهم.

أعاد مسدسه إلى سترته، وصفع زعيمهم بكل قوته، وقال:

– ماذا أقول للعراب؟ أعمل مع حثالة من الأغبياء؟ تعرف من الذي أوقفته وحاولت إحضاره لي؟

خليفة زعيم (الكوزا نوسترا) ثاني أكبر رأس في العائلة أيها الغبي، إن تذكر ملامحك يوما، تعرف بأنني سوف أقتلك بيدي العارية.

ورمقه بنظرة اشمئزاز، ثم رحل هو ورجاله. داخل سيارته أحضر هاتفه من المعطف وتردد في الاتصال بذلك الرقم لدقيقة، وأخيرا ضغط على زر الاتصال.

تهللت أسارير (جبرائيل) وهو يقول (لعيسى):

– ها هو (مينو) قد أعطاه الهاتف، ضغط (جبرائيل) على زر الإجابة لهاتفه وكأنه انتصار مدوٍ لفريق أحرز هدفا للتو.

– (جوفاني) أين أنت؟

عادت ملامح هزيمة وانكسار على وجهه عندما أجابه (مينو) على الطرف الآخر معلنا هزيمته في اقتناص هدفه، وفي محاولته لتبرير موقفه،

رد عليه (جبريل) بدوره بعصبية مفرطة قائلا:

- أغبياء، لا فائدة منكم، أغبياء.

في تلك الأثناء كان (عيسى) ينظر ل(جبرائيل) ومحاولة منه للسيطرة على أعصابه، أغلق (جبرائيل) الهاتف وأطاح به في نهاية الغرفة قائلا: أنا أعتمد على بعض الأغبياء، وفي ثورة الغضب تأوه (جبرائيل) من شدة الألم، وقام في الحال (عيسى) بإبلاغ الطبيب والتمريض للتواجد في الغرفة حالا، مرت دقائق والطبيب يقول (لعيسى) بأنها ذبحة أثر انفعال شديد.

رمق (جبرائيل) (عيسى) بنظرة توسل، بها أمر الذهاب، ونظر له (عيسى) بأنه قد فهم الأمر ببساطة، هز (عيسى) رأسه بهدوء يكاد يراه من ينظر لعينه فقط، وخرج دون أن ينطق بشيء بخطواته العسكرية وثباته ونظرة الإصرار، ذهب (عيسى) للمداهمة، لمداهمة "أمستردام".

في تلك اللحظة توقفت سيارة (ريتا) عند مدخل مطعم (كافيه بيتزا)؛ مدخله رائع من طراز معماري فريد وواجهة خلفية مطلة على النهر.

جلسنا ثلاثتنا وقد تعالت ضحكاتنا سويا بدون مبرر، قلت لهم:

- بكل هذه البساطة؟

ردت (ريتا) وعلى وجهها علامة الزهو:

- نعم بكل تلك البساطة.

قال (طارق) ل(جوفاني):

- يرسل والدك شخصا ليعثر عليك، وأنت تأكل طعامك، ويكاد يقتلك بغبائه، وتذهب بعدها بدقائق معدودة لتكمل وجبتك في مكان آخر ببساطة؟

- وإن عشت معنا أكثر، سوف تجد عجب العجاب يا صديقي، لا تشغل عقلك فقط، وحاول الاستمتاع بالحياة؛ في حال اصطيادك ببندقيه قناص، فقد تكون عشت حياتك أم لا؟ فحاول

بكل طريقة أن تعيشها دون سؤال، فقط عشها، ولا تسأل، فاللحظة قيمة للغاية.

– صدقت.

ومرة أخرى ضحكت على اللا شيء،

نظرت إليَّ (ريتا) وقالت:

– يمكن أن ننهى ما بدأناه من تلك القصة؟

نظرت نظرة إلى (جوفاني)، ولسان حالها يقول تابع الحديث:

– والآن نسمع الباقي من الوحش ذاته.

نظرت إلى الطاولة، ابتسمت ورفعت عينيها بعين (جوفاني) وقالت:

– كانت أجمل قصة بين حبيبين لم تكتمل، أفضى كل مننا بحبه إلى الأخر، ولم نعرف ما يخبئ لنا المستقبل، تخيل أنت أن أكون السيدة الأولى في حياة الرجل الذي أحبه، لكنني لم أستطع وبخاطري أن أكون الأخيرة، ويتعين عليَّ في يوم أن أراه يتزوج بعد الزعامة مباشرة.

– لا بد أن تتزوج بعد الزعامة مباشرة؟

– نعم.

– لماذا؟

– لا بد للزعيم إن يكون له أسرة، إنه تقليد عائلي.

وأكملت (ريتا) قائلة:

– وذلك اليوم قد اقترب وأقرب مما أتخيل، فقط اتفقنا أن نعيش حياتنا كما يحلو لنا، وبالأسلوب الذي يضمن لنا السعادة بلا حدود، وأخذنا العهد ألا يفرق روحنا أحد، وإنما أرواحنا معلقه في السماء إلى الممات حتى التقائها بمكان أخر، ليس به مال ولا عائلات ولا تقاليد.

هممت واقفا من تلك الكلمات، وأخذت يداي تصفق بمفردها ولا أدري ما الذي جعلني مقشعر البدن لتلك الكلمات الرائعة، ونظرت ل(جوفاني): هذا ما أريد أن أسمعه، ونظرت إلى ريتا وأكملت بذلك الأسلوب الرقيق: من أطلق عليك (وحش)؟ أشارت بيدها إلى (جوفاني)، فقلت له:

– أنت الوحش بذاته، أسمعت تلك الكلمات الرقيقة؟

خرج (عيسى) من القصر متحدثا في هاتفه النقال:

– نعم جهزها الآن لرحلة إلى (هولندا)، (أمستردام)، أنا في الطريق.

وأغلق الهاتف، ثم ركب في السيارة وقال للسائق: إلى المطار، ثم أخرج هاتفه مجددا وقال: (مينو)، كثف البحث واجمع المعلومات فقط، أنا قادم في طريقي إليك، دع السيارة تنتظرني.

أغلق الهاتف وفتح زجاج السيارة وهو ينفث دخان سيجاره في الهواء.

نظرت لي (ريتا) وقالت:

– (طارق)، تلك الكلمات كتبها لي (جوفاني)، كنذور لم نقلها على محراب الزواج، وأنا حفظتها دائما؛ كي أرددها فقط.

رمقتها بنظرة حانية وقلت لها:

– تعرفين، لقد كنت على حق، حين قلت لي: أنت لا تعرف (جوفاني).

– فقط أريدك أن تكتب لي بعض كلمات حتى أرددها على مسامع زوجتي المستقبلية.

نظر لي باهتمام وقال:

– ها قد حضرت البيتزا.

– ثاني مرة.

حينما استقل (عيسى) الطائرة، أخرج جواله ذا شبكة القمر الصناعي وهو يقول:

– مرحبا عزيزي (جوزيف)، اكتب خلفي تلك العناوين، فقط أريد منك شيئا واحدا، من تلك العناوين أيهم معمور ومتى أخر مرة عمرت فقط، وعندما أصل إلى هولندا تكون قد عرفت لي تلك المعلومة.

زندام...

والآن أين نذهب؟ لفظت بها، ونحن داخل السيارة ندخن الحشيش، أنا من حقي أن أتجول في تلك البلد الرائعة قليلا، نمرح، نفعل أي شيء.

قال (جوفاني) في نشوة:

- نحن نعمل على أي حال.

- ماذا؟

- ندخن الحشيش.

قالت (ريتا) بحماس:

- أنا لدي الحل ل(طارق)، ولك أيضا في نفس الوقت.

- ما هو؟

- هيا بنا.

ظل (جوفاني) عاكفا على تعاطي الحشيش، يلف سجائر ونحن نشرب معه قرابة الساعة، إلى أن وصلنا إلى مكان منعزل

بمظهر ريفي من الوهلة الأولى، وصلنا إلى ضيعة صغيرة بين (أمستردام) (وروتردام)، مكان بهواء عليل ومناظر طبيعية خلابة.

توقفت السيارة وقالت (ريتا) بفخر:

- هيا بنا، مرحبا بكم في (زانسه سخانس) إحدى ضواحي (زاندام).

ترجلت عن السيارة ووقفت قليلا أنظر إلى المشهد أمامي، أرض خضراء ومنظر خلاب.

فتحت (ريتا) باب الكوخ ووقفت بفخر أمام البيت المصنوع بالكامل من الخشب، من الداخل والخارج، كل شيء مرتب ترتيبا رائعا، فعلا ذوق المرأة لا يُعلى عليه.

هتفت قائلا بإعجاب:

- أنت من انتقى ذلك الأثاث؟

– نعم، إن كل ركن في المنزل أنا من صممته وأنا من صنعت ذلك البيانو العجيب؛ كلما أحسست بالضجر ارتميت في أحضان الطبيعة، وجئت هنا، قريبة من (أمستردام)، ومريحه للأعصاب.

وشرعت تعد لنا ولها القهوة، لم ينطق (جوفاني) سوى ببعض كلمات الثناء على اختيارها، حيث أدركت أنه يحاول إخفاء إعجابه بمهارتها الفنية وذوقها الجميل.

وها قد وصل الحشيش معي إلى أبعد مراحله، اتخذنا أنا و(جوفاني) مقعدين خارج الكوخ، ننظر للا شيء ونفكر في اللا شيء، ونحن مندمجان مع موسيقى خافتة، وأنا أترنح وأهذي، الضوء يسقط من أسفل إلى أعلى، وكأنه موج لبحر ترتطم أمواجه بي، لترسو عليها سفن شراعية ضخمة جدا، صورة كاملة تمر أمامي عند المرسى تحت قدمي، بعد كل رشفة من عصير الحشيش بحياة نظيفة من التلوث، وعالم خالٍ من دخان المصانع، أحاول جاهدا أن أتذكر أين أنا؟ ومنذ متى وأنا على تلك الحالة؟ لكنني سعيد وبعيد كل البعد عن دياري وأهلي ونفاقهم وخصوصا (أحلام)، أنا بعيد جدا عنها، التفت حولي؛ شخص يحاول لفت انتباهي ويقوم بالتصفير.

قلت ل(جوفاني) وأنا أدقق النظر إليه:

- أسمعت ما سمعت؟

- ماذا سمعت؟

- لا شيء

- جيد، استمر بالمراقبة.

غاص (جوفاني) في بحر نشوة النوم وأنا مستيقظ أعاني سكرات الموت؛ تارة أسمع من ينادي عليَّ، وتارة أخرى يهتف أحد باسمي، وفي النهاية قلت: إنني أموت، ويستعدون للفصل النهائي من الرواية.

زاغت عيوني خلف صندوق، تظل تلعب حوله وتختفي (أميرة) وهي تحاول إثارة انتباهي بكل شكل، وأنا لا أبالي، وبكل ثقل جسدي خفيف؛ يكاد يكون ريشة عصفور تائه، لم أستطع حمله فهويت على ركبتي جانب (جوفاني)، وأنا أنظر إلى ذلك الصندوق القريب، ورغم اكتشافي أن الصندوق صغير جدا إلا أن (أميرة) كانت تختبئ خلفه، فهرعت زاحفا إليه، وكأنني جندي في الجيش، وسألتها: كيف تقلصت إلى ذلك الحجم؟

- أنا سوف أكبر ويزيد حجمي بشرط أن تقول لي إنك تحبني.

- أولا تدرين حتى الآن بمدى حبي لك؟

- فقط قلها.

- فصرخت فجأة: أحبك يا (أميرة).

تلك الصرخة أيقظت (جوفاني) من ثباته، وأحضرت (ريتا) من الداخل، وهي تقول:

- ماذا حدث؟ ومن (أميرة)؟

اقتربا مني وحاولا إيقاظي بشتى الطرق، ورغم أنني أحاول أن أستفيق، أحببت ألا أفيق، وإن كانت رغما عني تدفعني لأن أكون معها في ذلك الحلم، وأخيرا فتحت عيني رغما عني، فوجدت كليهما يصيح:

- (طارق)، (طارق).

- إنني بخير، فقط مرت ذكرى مؤلمة.

نظرت إلى وجوههم وكأنني عائد من الموت.

– لقد أقلقتنا عليك يا صديقي؛ لقد اصفر وجهك وحاكى وجوه الموتى، من (أميرة) التي تشبثت بها ولا تريد أن تتركها؟

– قصة مصرية قديمة.

التفتت لي (ريتا) وقالت باهتمام شديد:

– هل تريد أخبارا عنها؟

– أتمنى ذلك.

– أعطني اسمها بالكامل ومكان سكنها.

فنظرت إليها بخيبة أمل، وقلت لها:

– لا أعرف، لكنني أعرف مقر عملها إن كان حقيقيا.

– جيد جدا، أعطني إياه وغدا أحضر لك كل المعلومات المطلوبة.

– أشكرك.

– القهوة في الداخل هيا.

– فعلا أحتاج إلى برميل من القهوة.

قالت وهي تضحك على مظهري المذري:

- أظن ذلك.

أثناء تناولنا القهوة يصدر أزير دراجة بخارية خارج الكوخ، فتخرج (ريتا) وتحضر ما أتى به ذلك الفتى الذي أثار زلزالا داميا في قلب ذلك الهدوء بموتور تلك الدراجة البخارية العقيمة.

نظر (جوفاني) لها بامتنان، وقال:

- حلوتي المفضلة. انظر إلى ما أحضر الفتى.

أجدها بعض الحلوى وعلبة أيس كريم وبعض الكعك، وأندهش للهفة (جوفاني) عليها، وأنظر إلى علبة الأيس كريم، يحتوي أسفلها على شعار نبتة القنب.

قلت ل(ريتا) والكعك يملأ فمي:

- ما كل تلك الحلويات يا (ريتا)؟

- جميعها مصنوعة بأفخر زيوت الحشيش يا صديقي.

قلت لها وأنا أبتلع وملامح وجهي تنم عن أنني أبتلع رغما عني:

– ألا يوجد أي شيء هنا سوى المُصَنَّع بالحشيش.

– نعم يوجد.

– ماذا؟

– قهوتي.

فشكرتها على المعلومة، نظرت لها وقلت:

–هل ستحضرين أنت العشاء؟

– ولماذا أنت مهتم كامل الاهتمام بالطعام؟

– ألا تهتمون به؟

– من يعيش حياتنا رغم ذلك الثراء، فليعلم أنه عندما يخطو ذلك الباب لن يفكر مثل البشر الطبيعيين، وقتما يشتد عليك الجوع تأكل، وعندما تفكر في الماء لا تجده، نحن لا نقرر غالبا ماذا نفعل تحديدا، تجبرنا الظروف على ذلك؛ في المداهمات نحضر ما تشتهيه أنفسنا علّها تكون أخر مداهمة، في الأفراح لا نأكل كثيرا، فقط نريد الاستمتاع باللحظة، نأكل في الجنائز ما كان يحبه المتوفى ظنا منّا أنه يستمتع بمشاهدتنا ونحن نأكل ما

يحب. نعم، الطعام أساس البدن وما يجعلنا نحيا، لكن ليس شيئا مقدسا، أفهمت؟

ورددتها أكثر من مرة ظنا منها أنني فهمت.

- نعم.

- نهاية الحديث، ماذا ستحضرين لنا على العشاء؟ أريد أن آكل من يديك الجميلتين.

نظرت لي وابتسمت.

سمعت صوت (جوفاني) من خلفي يقول: وذلك يعد مغازلة؟

- نعم، أنا أغازل ما دام غيري لا يريد أن يفعل.

فتبسم لي وقال موجها حديثه إلى (ريتا):

- حقيقي يا (ريتا) ما الذي سوف تحضرينه للعشاء؟

فنظرت له بدهشة وابتسمت، قالت والابتسامة لا تفارق وجهها، وعيناها لا تفارقان عيني (جوفاني):

– سوف آخذكم في نزهة، وبعدها نفكر في العشاء والغداء والفطور أيضا.

تجولنا بالسيارة لفترة بين طواحين الهواء الأثرية رائعة الشكل، ونهر (زان)، وحدائق زهور في كل مكان؛ إنه الريف الهولندي البديع ما تتمنى أن تراه عينك هنا وترتاح من جميع همومك، بعد فترة من الإرهاق واللهاث قررنا البقاء الليلة في كوخ (ريتا) حيث الليل به أروع من النهار. أضاءت (ريتا) مصابيح الكوخ وكل منا على مقعده يحمل غليونه الخاص بالحشيش، نعم لقد أصبح فردا من العائلة لا نستغني عنه، أحضرنا بعض المعلبات حتى أحضر لهم عشاء مصريا أصيلا، وقفت في المطبخ ظنا مني أنني سوف أصنع عشاء رومانسيا، وأحضرت الشموع ذوات الرائحة، لكنني توقفت برهة؛ قلت: سوف أصنع الفول بطريقة لا يتخيلونها، لكن ما إن فتحت علبه الفول حتى وجدتها غير المعتادة ورائحتها غير جذابة بالمرة؛ تكاد تكون غذاء!

فغدوت أنادي (ريتا)، وعندما قرأت ما هو مدون على العلبة قالت لي بكل سخرية:

– أنه لا يستخدم أدميا؛ إنه للخيل والبغال فقط. فابتسمت، وقلت لها:

– الرجاء الاتصال بأحد مطاعم البيتزا من فضلك، ولا تخبري (جوفاني) بشيء.

لم ننتظر كثيرا حتى عاد ذلك الفتى بالدراجة البخارية مرة أخرى، ناولنا بعض الأطعمة المغلفة وذهب، قالت:

– ثوان ويكون كل شيء جاهزا.

نظرت إليها وقلت: أشكرك.

وهز (جوفاني) رأسه هزة بسيطة تنم عن قبول ما قالت بكبرياء.

دخل خلفها إلى المطبخ، سمعها تردد بالإيطالية: أنا أترك كل شيء: الإخوة والتهريب والقتل؛ لأكون معه.

وهو يهز رأسه بكل فخر، وأدارت جسدها لتجد (جوفاني) خلفها يقول في حنان بالغ:

– جئت لمد يد المساعدة إذا تحتاجين لشيء.

– أشكرك دون (جوفاني)، كل شيء على ما يرام.

هنا تركت كل شيء في يديها واقتربت منه وهي تنظر لعينيه:

– ترى هل لاحظت أنها أول مرة نتقابل هنا في أمستردام وتقضي كل ذلك الوقت برفقتي، بسبب ذلك المصري؟

– (ريتا) أنت تعرفين القوانين، وكلانا منذ فترة يعلم أن الآخر يحاول الضغط عليه، أنا بمن أنتشي معهم وأضاجعهم وأنت بمن تصرين إن أراك تتلاعبين بمشاعرهم وترغمينهم على مضاجعتك تحت ناظري، كلانا يريد أن يثبت للآخر أنه نسي، وكلانا تزيد أحقاده على الآخر حتى يتمنى أن يراه وهو في قمة نشوته مع أي طرف ثالث، صدقيني لن تفلح العلاقة بيننا.

مسكت رأسها وقالت:

– أنا أعلم لماذا تفعل ذلك منذ البداية، وأعلم ما إن يعلم والدك بأنك على علاقة بي سيرسل (مينو)على الفور برجاله ليقتلني، ستصبح كل ذرة رمال في هذه البلد تتبع أثرى لتقتلني وعائلتي بلا رحمة.

نظر لها نظرة وهي تكاد تسقط منها دمعة لكنها تمالكت نفسها ولم تستطع تمالك مشاعرها وهي تهب وتعانقه،

أخفى جوفاني رأسه في رقبتها وأردف قائلا:

- لن تفلتي بفعلتك هذه من العراب الجديد.

رفعت رأسها وابتسمت، نظرت له ظنا منها أنه سوف يقبلها، لكنه أشاح بوجهه وقال:

- لقد جعت وضيفنا أيضا.

- أتعترف أنه منزلك الآن؟

- لا.

- أذن فأنتم الآن ضيوفي.

ودارت بجسدها وشرعت في إكمال ما بدأت، فوجدت (جوفاني) يحتضنها من ظهرها ويطبع قبلة على رقبتها ويرحل، تنهدت في أرق وأطلقت العنان أكثر لزفيرها أن يخرج حمما بركانية من صدرها.

وكأنها تصرخ على أطفال، نادت (ريتا) بكل ما أوتيت من قوة وحزم بأسمائنا بأن العشاء جاهز، وكأنها تنادي على طفلين يلعبان في الحديقة.

كان (جوفاني) يجلس بجانبي وقال:

- ماذا ترى ما إن كنت تزوجتها حتى؟

كانت ستجري خلفي بالعصا في شوارع (باليرمو)، وذلك الحين ما كنت لأكون عرابا.

علا هتافه بصورة طفولية:

- نعم، نحن قادمان. (وضحكنا سويا.)

انضمت إلينا سيدة المنزل مع وضع أخر لمسة جمالية منها على طاوله العشاء، وهي إضاءة الشموع.

نظر لها (جوفاني) في حالة من الاندهاش وقال:

- هذا عشاء لضيفين وأنثى تجلس وحدها في كوخ خشبي.

- (في نبره تنم عن الحدة) أنا أعرف جيدا كيف أدافع عن نفسي.

فقلت لهم بنبرة تدل على توتر بالغ:

- أما أنا فلا أعرف كيف أدافع عن نفسي.

فانفجر الجميع ضاحكا من قولي، كانت الطاولة تعج بجميع أنواع الأسماك والقشريات المتواجدة في هولندا ومن البلاد الأخرى، وأعتقد أن البعض تم استيراده، لا يوجد خبز، طبعا العشاء فقط ما هو إلا سمك وقشريات، إلى أن انفجرنا.

مر وقت طويل جدا حتى بدأت أنا بالحديث:

- أشكركم؛ لقد انفجرت ولا أستطيع رفع يدي عن الطعام، تحياتي لمن أحضر الطعام وحضّر الطعام. وأنا أبتسم (لريتا).

ونظرت ل(جوفاني) وقد تلاشت ابتسامتي، وأردفت: ومن أكل الطعام، وهو ما يزال عابث الوجه بسبب دلالي المستمر (لريتا).

أمضينا باقي الليلة جالسين في مدخل الكوخ، ننتشي بالحشيش وتعلو ضحكاتنا حتى غلبنا النعاس، قلت لهم:

- لا أستطيع التحمل أكثر من ذلك، تصبحون على خير. واتكأت على السلم الخشبي للدور العلوي حيث هناك سريري أنا وجوفاني، أنه سرير معد لأطفال؛ حيث أعتقد أن (ريتا)

كانت تؤجر ذلك المنزل أحيانا لأسر لديهم أطفال أو أن لها أمنيات أخرى، إنه صغير لكنه يفي بالغرض.

استقبال الشيطان...

ظلّ (مينو) في انتظار (عيسى) حتى يترجل عن الطائرة، هو واقف كالصنم، ويهمهم في غيظ:

- يتركنا في برد الليل ويتمهل في النزول من الطائرة، ذلك الشيطان كم أتمنى أن أحرق تلك الطائرة وهو فيها، ليس فردا مِنَّا ويتعامل على أنه صاحب حق.

ما زال (عيسى) في الطائرة، يتحدث لأحد الزملاء ويهتف وعلى شفتيه زهو الانتصار، ويقول:

- نعم يا (جوزيف)، تأكدت من الثلاثة عناوين التي أرسلتها لك؟ هل أنت متأكد من ذلك؟ حسنا أشكرك ولك واحدة عندي، طاب مساؤك.

ترجل (عيسى) عن الطائرة وهو ينظر (لمينو)، وقال له:

- هل تأخرت؟

- أبدا، أبدا يا لورد (عيسى)، مرحبا بك متى تشاء.

كان يسير خلفه كالقرد يركض خلف من يرقصه في الأسواق، انتظر(عيسى) حتى يفتح له (مينو) باب السيارة، ورمقه بنظرة حادة لتأخره.

انطلقت السيارات، وقال (عيسى):

- خذ هذا العنوان أعطه إلى السائق، اجعله يوصلني إليه، وأحضر ١٢ سيارة وتمركز بهم حول ذلك العنوان، دون أن يشعر بكم أحد تماما، وما إن خرجت برفقة العراب تضاء المصابيح وتبدأ عملية نقله إلى صقلية.

تردد (مينو) وتلعثمت العبارات في حلقه وهو يقول:

- تقصد دون (جوفاني)؟ هل دون (جبرائيل)؟

قاطعه في صرامة:

- هل سمعت ما قلت لك؟

- نعم دون (عيسى).

نظر له نظرة اشمئزاز.

- آسف لورد (عيسى).

انطلقت السيارة وحمل (مينو) هاتفه في توتر، وهو يقول لشخص ما يتحدث إليه بأهمية:

- يتم تجهيز كل السيارات وانتظاري في هذا العنوان حتى يتم التمركز في أماكننا لحماية العراب، هل فهمت؟

أقول العراب، يستيقظ الجميع، أمستردام كلها تستيقظ، هل جننت يا رجل؟

أغلق المكالمة في توتر وكتب العنوان بيد مرتعشة في رسالة نصية، ثم أرسلها للجميع بينما يهمهم: إنها الليلة التي يتم فيها تنصيب العراب الجديد، فلا نوم فيها لأحد، وإن كان الشيطان نفسه.

على ضفاف نهر (الزان) وقريبا من كوخ (ريتا)، يقترب (جوفاني) من (ريتا) رويدا رويدا حتى لا يزعجها، تهمس (ريتا) وتقول:

- (جوفاني).

- هل جفاك النوم مثلي؟

- وهل ما زلت تذكرين خطواتي؟

– وأنفاسك أيضا أحصيها، وكل خطوة تطبعها داخل إيطاليا وخارجها أتطفل عليها، وكل إنسانه نامت بجانبك وهتفت لها باسمي أعرفها، وكل ذرة دم تنتفض من قلبك أراها أين تذهب في جسدك.

– إنني مراقب؟

– لا، إنني داخل قلبك، أسمع ما يخط به قلمك، وما يُلفظ من فمك، وما تخفيه أنبيك به وقتما يحدث.

ابتسم في حنان وضمها إليه برفق، وقال:

– وماذا أيضا؟

اقتربت منه أكثر، فلم يبتعد، ثم اقتربت وطبعت قبلة على شفاهه، وارتمت بين ذراعيه تمرر رأسها على صدره وتقول:

– ليتني أموت ولا أجد أخرى تحصل عليك، ولو لنظرة، ازددت عنفا في الفترة الأخيرة بسبب التفكير في ذلك الموضوع.

– حتى لقبوك بالوحش؟

- نعم أنا وحش وكاسر لكل من تقترب منك دون إذن مني، جعلتني وحشا، أصبحت أنتقي الفتيات اللاتي تضاجعهم بنفسي، وأحرص على أن يكن غاية في الروعة والجمال لأختبر مرة بعد مرة حبك لي، هل نقص أم يزيد؟ أنت من حوّلني إلى وحش وليس غيرك أحد.

- وهل تأكدت؟

- نعم تأكدت، وكنت أتمنى أن تكون قد أهنت ذكراي وهجرتني ونسيت حبي، حتى أحول الإخوة إلى منظمة وأبتلع المافيا بالكامل.

وارتفع صوتها للصراخ وهي تقول: وأحرق نفسي إن لزم الأمر.

- اهدئي يا مجنونة، سوف توقظين العالم.

- وهل ينام العالم وقلبي ينبض باللهب؟

بخطوات رقيقه كفراشات في قلب بستان عاد (جوفاني) و(ريتا) إلى الكوخ ببطء شديد، يكاد الريح في مروره يسمع خطوات قدميهما بكل رقة على ذلك العشب الذي يملأ المكان، ظهر أمامهما شبح إنسان واقف في مكانه متحجر كالصنم لا ينبس

ببنت شفة. بسرعة وما إن رأى (جوفاني) هذا الشبح حتى أشاح (لريتا) أن تكون خلف ظهره، وسأله: من أنت؟

فقرب ذلك الظل وقال له:

- هل تعرفني الآن يا (جوفاني)؟

ارتسمت ابتسامة على وجه (جوفاني) عندما سمع الصوت.

- بلسان من تتحدث؟

- بلسان العراب.

- ومن العراب؟

- قال إنه اسم لسان الوحي من الرب.

اقتربا مسرعين إلى (عيسى) يضماه، ومد (عيسى) يده وهو يقول: (ريتا) صغيرتي.

أضاءت (ريتا) أضواء المنزل احتفالا بالذئب العجوز، الذي حضر لزيارتهم، حيث أيقظتني الجلبة من نومي ونزلت من الدور العلوي، لأرى ما تلك الجلبة، فقد رأيت (عيسى) يقول لهم: من هذا؟

قال (جوفاني): هذا صديق مصري سوف أعرفك عليه، في يوم واحد أنقذ حياتي مرتين؛ لقد أصبح تميمة الحظ لي، مرة من موت محقق ومرة فداني بنفسه.

- هل تأكدت من أنه ليس له أي علاقة بأي جهاز أمني؟

- أؤكد لك، إنه رجل أعمال مصري مرموق.

- مرحبا بك يا ولدي، تشرفت بك.

- الشرف لي.

- لقد أديت لنا خدمه لن ينساها لك العراب.

ردي أصبح مفعما بالحيوية، قلت:

- من دواعي سروري عندما أقابله.

- أنت قابلته بالفعل، وأستأذنك، أريد العراب على انفراد لدقائق.

خرجت وأنا لا أفهم، يقول لمن العراب؟

خرجت أنا و(ريتا) لا نفهم شيئا، وظهر عليها القلق واضحا، قلت لها:

– ما بك يا (ريتا) يصرخ وجهك وانفعالاتك قلقا؟ ومن ذلك الشخص؟

– إنه صديق الدون (جبرائيل) من الطفولة وما دام لمّح بأن (جوفاني) هو العراب، ذلك معناه شيء واحد فقط.

– ما هو؟

– خسارة (جوفاني) للأبد.

جلس (جوفاني) أمام (عيسى) كالتلميذ النجيب ينصت إلى أستاذه حتى بدأ حديثه وقال:

– دون (جوفاني) يؤسفني ويعتصر قلبي أن أبلغك بأن الدون (جبرائيل) يصارع الموت في باليرمو، وقد أرسل لك المجموعة حتى يتمكن من الحديث إليك عبر الهاتف، لكن المجموعة فشلت وكنت برفقته حتى أذن لي بإحضارك، وأوصى بأن إذا كان ما يزال حيا إن يذاع خبر وفاته وأن تنصب كعراب (الكوزا نوسترا)، وإن وافته المنية يكون قد تم تنصيبك.

- هيا نذهب له.

- أولا نذهب للبيت، ترتدي حلة مناسبة وصدرية واقية ويتم تتصيبك أمام الجميع، ثم نذهب، لا تنس ما تعلمته، لقد أصبحت العراب.

- وماذا عن (طارق)؟

- نشكره ويذهب. (أشار بيده علامة الأموال.)

- لقد أرغمته على البقاء حتى أرد دينه ثلاثة أضعاف كما تعرف، لم يطلب شيئا لنفسه بتاتا، سوف أناديه بصفتي العراب واسأله بنفسك، ماذا يريد؟ إن له دينا لا بد أن يقضى.

خرج (عيسى) خارج الغرفة واستدعاني، دلفت معه للغرفة وقال لي:

- العراب يريد سؤالك شيئا.

- (جوفاني) ماذا حدث؟

قال (عيسى) في نبرة صارمة واهتمام بالغ:

- دون (جوفاني) وليس (جوفاني).

- سيد (عيسى) لقد تعرفت على ذلك الرجل دون أن يتحتم عليَّ أن ألقبه مستر أو دون أو أي شيء، فصدقني، لا أعرف ما هو العراب وماذا يفعل؟ وعلى أي حال قل ما لديك يا دون (جوفاني).

قال (جوفاني) بكل كبرياء:

- يا مستر (طارق)، إن لك ثلاث أمنيات لم تتحقق بعد، فهل تذكر لنا إحداها؟

- أمنيتي من مستر (عيسى) وليست منك.

نظر (عيسى) لي بدهشة وتعجب وقال:

- مني أنا! حسنا كم المبلغ المطلوب؟

نظرت له نظرة شفقة، وقلت له: لقد أنعم عليَّ الله بوفرة في المال، ولدي أكثر مما أحتاج، كم تساوي حياة عرابك بنظرك؟

- الدنيا ومن عليها.

- وهل تستطيع كتابة الدنيا ومن عليها بشيك لحامله؟

نظر لي بدهشة وتلعثم في حديثه وهو يقول: ماذا؟

– لا تستطيع، لا أحد يستطيع، تعلمت عندما أعد أوفي، هل توفي بوعدك لي الآن؟ وطلبي الآن أبسط من الدنيا ومن عليها بكثير؛ إنها دنيا تزين بها حياة عرابكم الذين تدفعون الملايين لحياته، هنا على عتبة ذلك المنزل تقف امرأة أشهد على جسارتها التي لم أرها في امرأة، وقلب لم يحب مثلما أحبت ذلك الشخص. تسمونه العراب، تسمونه دون، لا أكترث لذلك، هل من طريقة يجتمع بها القلبان حتى لا يعيشا مفطوري القلب؟

لك أن تتخيل منذ وطئت قدمي ذلك البلد، لم أر حبا كهذا، تعلمت من ذلك الرجل المعنى الحقيقي للسعادة وتعلمت منه أسمى معاني الحب والإخلاص والالتزام، وأوفر تضحياته من أجل الآخرين، أرجوك يا مستر (عيسى) أن تجد حلا لذلك، وبهذا تكون قد أوفيتني حقي وبكرم.

نظر (عيسى) ل(جوفاني) وقال له:

– قلت لي إنه صديقك منذ كم يوم؟

– ثلاثة أيام.

نظر إلى (جوفاني) ثم تركنا وخرج من الغرفة،

سأل (ريتا): أحضري لي سكينا.

جحظت عينا (ريتا) وهي تقول:

- سكين!

- نعم.

وبسرعة أخرجت مطواة صغيرة من أسفل ردائها وأعطته إياها.

فقال لها: صدق ذلك المصري.

دخل (عيسى) ومد يده في جيبه وقال لي قف أمام (جوفاني)، فوقفت، وأدخل يده في معطفه وأخرج محفظته وأعطى صورة ل(جوفاني)، نظر (جوفاني) باندهاش شديد من أفعال (عيسى) وقال له:

- ما هذا؟

قال لي (عيسى)، وهو يمسك يدي بقوة:

- أعطني إبهامك.

لم أفهم مغزى الموضوع! فجرح يدي بلا شفقة، لكنني حافظت على رباطة جأشي أمامه، وقطر على الصورة في يد (جوفاني) بضع قطرات من دمي وأعطاني منديلا وقال: احبس تلك الدماء.

وقف خلفي وقال:

- ردد خلفي ما أقول.

- أقسم بأن أكون وفيا (للكوزا نوسترا).

- أقسم بأن أكون وفيا (للكوزا نوسترا).

- وإذا كنت سأخونها.

- وإذا كنت سأخونها.

- يجب أن يحرق لحمي كما تحرق الصورة.

- يجب أن يحرق لحمي كما تحرق الصورة.

وأخذ (جوفاني) القداحة من (عيسى)، وأحرق الصورة وكلانا غير مستوعب لماذا حدث ذلك؟

نظر لي (عيسى) نظرة فخر وقال:

– وإن وجدت شخصا مثلك وأنا في مثل عمرك لاتخذته صديقا، (طارق) لست أدرى إذا وافق العراب على ذلك الاقتراح، نظرا لطلبك سوف يمنح العراب الجديد العفو عن المنبوذين، في انتظار قرار منه بالعفو عن فئة تم نفيهم خارج البلاد، لوجود خلل أو خيانة من ذويهم، وبنفس الوقت ستكتب في وصية (جبرائيل) بأن يتزوج (جوفاني) من (ريتا) في حال العفو عنهم من قِبل العراب الجديد، وبذلك أكون حققت أمنيتك الأولى، هل أنت سعيد؟

ذهبت نحوه واحتضنته رغم عدم معرفتي به، وقد وجدته بادلني ذلك العناق رغم صرامة وجهه وعصبية حديثه، وقف (جوفاني) مسبهلا ينظر لي وكأنه قد وجد كنزا للتو،

تقدم ناحيتي واجتذبني لصدره وقال:

– وإن كنت في آخر الأرض وأنا في أولها واستنجدت بي لوجدت يدي تصلك قبل يدك الأخرى.

قال (عيسى):

– يكفي عواطف، هيا نذهب إلى بيتك وترتدي حلتك، لأننا سوف نتأخر ووالدك بالانتظار، وأنت يا (طارق) لا تحك شيئا ل(ريتا) عما حدث هنا منذ ثوان، ولا تنس، لقد حلفت قسم (الكوزا نوسترا).

خرج (عيسى) ل(ريتا) وقال لها:

– سوف تحضرين خلفنا بسيارتك إلى منزل العراب، أنت تعرفين القوانين، لا يستقل العراب سوى سيارته.

أشاحت بوجهها علامة الفهم وفي عينيها دمعة تكاد تسقط أمامه، انتظرت حتى رحل من أمامها وسقطت (ريتا) على كتفيي والدمعة تسقط من عينيها. التفتت ورأت (عيسى) يتحدث في الهاتف، ثم تضاء الحديقة من حوله وكأنها الواحدة ظهرا، علمت بأن اللحظة قد حانت، وأن العراب في طريقه للخروج إلى النور وذهاب بلا عودة.

خرج (جوفاني) من غرفته مهموما على والده، حنت (ريتا) رأسها وهي تقول:

– دون (جوفاني).

أما أنا فقدت السيطرة على نفسي وأنا أرى الليل قد تحول إلى نهار فجأة، وطائرة هليكوبتر تركز أضواءها على المنزل.

خرج (جوفاني) على عجل وقال لنا:

- هيا سريعا، وافوني إلى المنزل.

قمت بالرد عليه في لحظة وقلت:

- حسنا دون (جوفاني).

ابتسم من فرط تلك الصرامة النابعة مني وذهب.

ذهبت عيون (ريتا) خلفه، لم تتحمل الصدمة، بأن الوقت الذي كان يزعج نفسها قد حان، وبمرارة الدنيا أخذت تبكي خلفه، رددت وهي على صدري: لقد ذهب، لقد ذهب. وأنا أردد في ذهني: أتمنى إن أقول لك صديقتي غير أنني أخاف ألا أصدق معك قولا، ويحدث شيء معاكس. ونظرت خارج الحديقة وهي تظلم من جديد.

يعدل أساور قميصه، يرتدي فوقه صدريه سوداء اللون بنفس لون الحلة السوداء، يلبس جاكيت بذلته ويقف عند باب الغرفة، ينفث عن غضبه ويكتم انفجار صدره بإحساسه بفقدان والده، يخرج إلى طاولة المؤتمرات بالغرفة، يجلس على رأسها، ويشير بيده للجميع بالجلوس. قام اللورد (عيسى) وقبل أن يبدأ حديثه نظر إلى (جوفاني) كنوع من الاستئذان بالحديث، فأشار له بوجهه، فبدأ حديثه: نرجو من الرب أن يتقبل دون (جبرائيل) برحمته ونتمنى من الرب أن يحفظ لنا عرابنا الجديد، إنه باسم الرب خالقنا ومخلصنا ورازقنا ومفرج كروبنا له العزة والوقار سلطان السلاطين، أعلن لكم رسميا دون (جوفاني جبرائيل) عرابنا الجديد، وأخرج من جيبه علبة بها خاتم من الذهب عليه شعار بسيط يرمز لمافيا صقلية، (سرحت مخيلة (عيسى) وهو يضع الخاتم على الطاولة كيف أعطاه (جبرائيل) إياه، وهو يقول له: إذا وافتني المنية وذلك ليس ببعيد، فليكن هذا الخاتم معك للتصرف، والحذر مما قد يحدث من وراء ظهورنا، و(عيسى) يرد عليه: لا تقلق).

ارتسمت ابتسامة شكر على وجه (جوفاني) حين فتح علبة الخاتم ووضعه في إصبعه، فقام (عيسى) والباقون والتفوا حول (جوفاني) في دائرة مهيبة يقبلون خاتم العراب الجديد.

انتظرت و(ريتا) في الغرفة المقابلة لغرفة الاجتماعات، يخرج (جوفاني) خلفه (عيسى) وخلفهما باقي أفراد العائلة، وتتجلى مظاهر الجمال والأناقة (لريتا) خلف ذلك الرداء الأسود والقبعة السوداء التي تغطي جزءا من وجهها، وأنا بحلتي السوداء ورباط عنق أسود، إحدى حلل (جوفاني) من غرفته،

نظر لي وابتسم بينما يضع يده على كتفي، قال لي:

- (طارق)، لن أستطع أن أوفيك حقك طوال تلك ثلاثة الأيام المنصرمة، وكيفما تعلمت مني كذلك تعلمت منك كيف تكون الصداقة بلا مصالح أو رياء، تعلمت منك كيف أساعد من حولي في إيجاد طريقهم للسعادة، حتى الآن وأنا أفكر كيف أترك لك فقط ذكرى بسيطة مني، لم أجد سوى ذلك المنزل بما فيه لك، إنه أول مكان تعارفنا فيه وبما أنني أصبحت العراب فمن الآن لن أستطع أن أجد اللذة في الهروب وإضاعة الوقت، كما كنت في الماضي، إنها هدية متواضعة، رغم كل المغريات التي

وضعتها أمامك لكن عفت عينك أن تتمنى ما هو ليس بحق لك، إنه حق الصداقة (وأشار بيده للمحامي خاصته في هولندا)، فقط تلك الأوراق عليك أن تطبع إمضتك عليها ويكون ذلك المنزل المتواضع لك رمزا لتضحياتك في سبيل إنقاذ حياتي، ورمز لصداقة مستقبلية عميقة.

نظر لي مرة أخرى وقال لي بصوت خافت:

- الآن.

فهمت أنه يريد إمضائي على الورق، أخذني المحامي إلى أقرب طاولة للإمضاء.

بينما وقف أمام (ريتا)، تنهد وقال:

- رفيقة الدرب وصديقة الطفولة.

أخذت وجنتا (ريتا) في الاحمرار، ومنخارها تحول من اللون الأبيض إلى اللون الوردي، حبست أنفاسها ودموعها قدر المستطاع. وأكمل قائلا:

- قد لن يدعني القدر أوفيك حق صداقتك وخدماتك المتكررة للعائلة.

وبدأ في رفع نبرة صوته قليلا، وقال:

- في أقرب وقت سوف نحاول إيجاد سبيل لرفع العقوبة عن عائلتك وجميع العائلات التي كانت عند العهد، ونفذت أوامر

(الكوزا نوسترا) حقا، وإصدار قرار العفو عنهم، وعودتهم إلى ديارهم في أقرب فرصة.

لم تتمالك (ريتا) مشاعرها وهي تسمع أخر جملة، وأرادت أن تطلق عنان حبها يفيض على شفاه (جوفاني)، وتملأ وجهه بقبلات حبها وتختبئ في صدره، ولكن التقاليد تمنع ذلك. عدت من الطاولة لأجد عينيها تفيض من الفرح ووجهها كضوء فجر قد أشرقت عليه شمس الصباح.

وأردف قائلا في حماس:

- من الآن فصاعدا وأمام الدون (عيسى) حلف الدون (طارق) القسم، وهو واحد منا وتحت مسئوليتي الشخصية، وأوامره فقط من البيت الكبير، ونظر للجميع وقال: هيا بنا.

بكل رفق حمل (عيسى) معطف (جوفاني) ووضعه على كتفيه بكل إجلال، أشار (عيسى) للحراسة بتحويط البيت وإخلاء المجال لتأمين العراب خارج المنزل، وخرج الدون (جوفاني) من المنزل كعراب جديد (للكوزا نوسترا) ولصقلية.

في خروج مهيب، ليموزين العراب تقف عند باب المنزل، واثنتا عشرة سيارة لمرافقته إلى الطائرة، حيث عودته للوطن، بمغادرة آخر سيارة من الطريق، أطاحت (ريتا) باليافطة المعلقة "للبيع" التي وضعتها قبل سابق، وأطاحت بقبعتها بعيدا في الهواء، وأخذت تصدر أصوات فرح غريبة مع قفزها كالبالون لأعلى وأسفل، وقالت وهي تحضنني:

– أسمعت؟ سمعت ما قال؟ سمعت؟

وأنا أضحك وأقول لها:

– نعم، سمعت.

– ما أسعدني بذلك الخبر، وإن مت الآن لا يهمني شيء، لقد صدر حكم العفو.

- لا، ليس الآن، فقط يذهب إلى صقلية ويتفاهم مع المعارضين ثم يتم قرار العفو.

فنظرت لي باستغراب شديد ومال وجهها بينما تنظر لي، وهي تريد أن تقول شيئا ما، يعلن هاتفها عن تلقي رسالة نصيه من (جوفاني) فحواها: صغيرتي الجميلة، فقط أطيح بمن يعارض ذلك القرار، وسوف يحضر قرار العفو لك وللأسرة، لا تندهشي مما سوف أقول، لكن كل الفضل يعود (لطارق)؛ لقد وهبني حياة جديدة، لا أعلم من أين ظهر؟ هو من ضغط على اللورد (عيسى) ليقترح ذلك الاقتراح العظيم، أراك قريبا في منزلك، أراك في بيتنا الكبير.

- كنت تعلم منذ البداية، أليس كذلك؟

- أعلم عن ماذا؟

- عن ذلك المخطط وذلك الإعفاء؟

وارتمت تعانقني في حرارة وقالت:

- أنت ملاك حبنا الحارس، وأعتذر عما بدر مني منذ وصولك.

- لا عليك، ولكن الآن أنا دون مهيب في (الكوزا نوسترا).

- نعم، أراك غدا.

- إلى أين أنت ذاهبة؟

- لبيتي.

- ظننت إنك سوف تسكنين معي هنا؟

- سأحضر غدا بعد السادسة، ها قد قربت أن تشرق الشمس.

أوقفت السيارة أمام باب المنزل وقالت: أي باب من الأبواب فقط لتفتحه يمكنك استخدام أربعة أصفار.

- هكذا فقط!

- نعم فقط.

تمنت لي نوما هادئا، وذهبت.

لم أتمالك نفسي وجسدي يصرخ احتياجا للنوم، دخلت تلك الغرفة التي قامت (ريتا) باغتصابي فيها، وضعت جسدي على المخدع ونظرت لسقف الغرفة، وقلت: تصبحين على خير.

وضعت رأسي أسفل الوسادة وذهبت في ثبات عميق.

هاتف المنزل يرن ويرن وأنا أعتقد أن ذلك إنذار حريق في أحلامي، أنظر للساعة: الثانية ظهرا، أرفع سماعة الهاتف لأجيب:

- ألو.

قالت (ريتا):

- صباح الخير دون (طارق).

- صباح الخير.

- ما زلت نائما؟

- طبعا، وسأستمر بالنوم إن لم يوقظني أحد.

بصوت عذب:

- تلك إهانة لا أقبلها.

- أقصد كصوتك طبعا.

- أتغازل زوجة العراب؟

- فقط أجامل أختي صاحبة صوت العندليب.

- سوف أكون عندك بعد الغروب.

- حسنا، في انتظارك.

قمت من مرقدي وكأنني نائم في كهف منذ ألف عام، وأنا في تكاسل شديد. اليوم الرابع لي في تلك البلدة وكأنني عشت قرنا من الزمان، لا شيء في مطبخ ذلك المنزل سوى بعض العصائر والمعلبات، التفت حولي، ومن سيطبخ في مثل هذا المنزل؟ خطرت ببالي غرفة الخزنة: ماذا بها؟ رحت أتجول في أرجاء المنزل ووقفت أمام غرفة الخزنة، قلت: فقط هنا أضع ل(جوفاني) كل اللوح الثمينة والأغراض الباهظة إن احتاج شيئا وجده، وأضع أيضا أغراضي الشخصية، فقط أربعة أصفار وفتحت الغرفة أمامي لأجد الأموال ما زالت بداخلها، وكأن شنطة السيارة الممتلئة بالأموال لم تؤثر عليها في شيء، يا ترى كم يبلغ ذلك المبلغ؟ بتلك المساحة وذلك الارتفاع؟ كيف حصل على ذلك المبلغ؟ وكيف تم نقله إلى هنا؟ وبما أن... وجحظت عيناي مرة أخرى وأنا أنظر للمال وأتذكر صوت (جوفاني) وهو يقول: (ذلك المنزل بما فيه). ذلك المجنون، كم كان سيكتب (عيسى) في

دفتر شيكاته؟ خرجت من الغرفة أجر بابها خلفي، أخرج من غرفة وأدخل أخرى، غرفة (جوفاني): أحذية وجوارب، أشكال مختلفة من الملابس، نظارات وساعات وخزانة كاملة من الألعاب الجنسية التي شاهدتها في تايلاند، صورة العذراء وصليب كبير على الحائط، خزانه أخرى تفتحها يخرج منها حوض صغير ومعدات كاملة للحلاقة وتمشيط الشعر، وكل متعلقات التدخين وكمية كبيرة من المخدرات متناثرة في كل المنزل، وإن كان القانون الهولندي يبيح تدخين الحشيش فإن ذلك الوزن داخل تلك الحقيبة يدعى (اتجار) ويتم القبض عليَّ بتهمة الإتجار غير المشروع. لملمت ما تبقى ووضعته في الخزانة، حيث إنها تعد خزانه شخصية، وفي الوقت نفسه عند مغادرتي هولاندا يكون الحشيش قد نفد، وابتسمت وأنا أكمل مشاهدة المنزل، وقد راقت لي غرفة الشر، فذهبت أتفقدها؛ ذلك المكتب الرائع ذو الزخارف الذهبية، إنها (ريتا) ملكة الأناقة بلا منازع، فتحت أحد أدراج المكتب لأجد كاميرا رقمية وحاسوبا محمولا، أحد موبايلات نوكيا الحديثة (كومنيكيتور)، تلك أشياء ما زالت جديدة، وذلك الهاتف فتحته يعلن أنه مشحون وبه خط محلي، والكثير من الرسائل تأتي، كمبيوتر محمول جديد أيضا، أخذني الفضول لأرى ما فيه

وتركته يعمل وأكملت باقي الغرفة: مجموعة من البنادق والمسدسات ذات الطابع التاريخي، وأظن أنها مصنوعة من الخشب فقط ومزركشة بقطع من النحاس، تابلوهات حربية وأسفل تلك التابلوهات الفنية وجدت لوحة برمز سري وضعت بها أربعة الأصفار فلم تستجب، مرة وأخرى فتركتها وذهبت إلى الحاسوب المحمول مرة أخرى فلم أجد أي برامج عليه سوى عين، وكأنها عين سحرية، فتحت تلك الأيقونة عسى أن يكون بها شيء مسل، رأيت الشاشة قد تقطعت قطعا صغيرة، وكل منها كاميرا فيديو عن المنزل ووجدت بها صورة تتحرك، تبا إنه أنا! وهل هناك كاميرا في تلك الغرفة وكيف وصلت هنا بدون أسلاك؟ نعم إنه أنا وأتحرك عجبا، ما هذه التقنية إنها مذهله وبدون أسلاك، بالتأكيد أحد اختراعات (ريتا)، المنزل محصن بزجاج ضد الرصاص، والغرف أيضا، أحسست بالضجر وحدي وأنا أتحدث مع نفسي أمام أعظم غرفة في المنزل، إنها صالة رياضيه متكاملة بها أربعة أجهزه تشمل كل مناطق الجسد، من الرقبة حتى الفخذين، والسمانة ومجموعة كاملة من الأوزان الخفيفة والثقيلة وباب مكتوب عليه جاكوزي، وأخيرا وجدت المكان المثالي بعد أن قارب جسدي أن يصرخ طلبا للتمرين، لا أدري

كم من الوقت مر عليَّ؟ إنما في أخر رفعة من تمرين الصدر تأوهت لكنني لم أجد من يرفع ثقلي ويساعدني، عليَّ وضعها مرة أخرى، تحاملت على نفسي ووضعتها وحدي، كادت تسقط، وقلت في قرارة نفسي: هل أنا من اخترت قربها يومها أم هي من كانت تقصدني؟ طبعا، يا لغبائي؛ لقد كانت تحاول لفت نظرك إليها، ألن تأكل شيئا؟

تكاد معدتي تعتصر طلبا للغذاء، ذهبت مرة أخرى للمطبخ أنظر إلى المعلبات والعلب المرصوصة، الذرة الشوفان.

آخذت بعض الذرة والقليل من الحليب وشرعت في تناولهم بكل نهم حتى أجد السبيل إلى التهام وجبة جيدة، ألا يوجد مطاعم حلال في هذا البلد؟

ومن غيرها (ريتا)؟ بحثت عن ذلك الهاتف مرة أخرى، عسى أن أجد رقما ل(ريتا) به، وأنا أقلب في تلك الأرقام وجدت (جوفاني) قد وضع لقب "حبيبتي الصغيرة"، فتأكدت أنه رقم (ريتا) بلا منازع، ضغطت على ذر الاتصال وفي سرعة ولهفة وجدتها تقول لي:

- امممممم لقد وجدت الهاتف بسرعة.

- نعم، ولدي العديد والعديد من الأسئلة لك، أولهم ونكتفي به، الآن أين أجد مطاعم حلال عربية؟

- هناك مطعم مصري ومطعم تركي أعرفهم،

أحدهم (مرام) والآخر (كورنر إن)، وإذا كنت تفضل أيا كان، أعتقد أنك تضورت من الجوع،

الآن انتظرني سوف أحضر إليك ونأكل سويا، لن أتأخر.

انتظرت (ريتا) خارج المنزل كطفل يبحث عن أمه لترضعه، وقد اشتد بي الجوع ونال ما نال من معدتي،

وجدت سيارتها بارزة من بعيد، ابتسمت لي وقالت:

- لا بد من شراء سيارة لك حتى تستطيع التنقل من مكان لآخر خلال فترة زيارتك.

- أنا لا أعرف شيئا هنا، أرجوك تحركي؛ أكاد أن أموت جوعا.

- عند (مرام)، لن أخيب ظنك.

خلال ثلاث دقائق كنا نترجل عن السيارة ذاهبين إلى ذلك المطعم الذي تشبه رائحته مطاعم الأسماك في الإسكندرية.

لم تستطع اللحاق بي وأنا ألتهم الغذاء التهاما، وتنهدت في نشوى؛ كنت قاربت أن أموت جوعا.

- أوصلك وأعود أنهي مداهمة، ثم أعود إليك.

- مداهمة بكل تلك البساطة؟

- نعم، أنا أديرها من مكتبي، يوما ما سوف أعلمك كيف تدير إحداها.

نظرت لها وأنا أبتسم وقلت:

- يكفي أنك تفعلين، واتركي لي ذلك البيت السحري، أريدك بشده أن تقولي لي ماذا أفعل بكل ذلك البيت؟ وتوجد أموال بغزارة خلف ذلك الباب المصفح، من أين؟

- إنه إنتاج الملهى في كم عام مضى.

- كم يبلغ هذا الجنون؟

- لا أعلم، قرابة المليار ونصف يورو.

– كيف سنعيدهم ل(جوفاني) في صقلية؟

– لقد ترك لك المنزل بالكامل، فلا يستطيع أحد أخذ قشة واحدة منك، إنه لك كما قال بالكامل.

–ذلك حقا جنون رسمي، ذلك المبلغ لإنقاذ حياته.

– بل ويدفع أكثر من ذلك.

– ذلك درب من الجنون حقا.

– لا تهتم، أنت لا تعرف كم تساوي حياة عراب (الكوزا نوسترا).

– أشيد بتلك الديكورات والأثاث، أنت حقا إنسانة رائعة، أعتقد أنك من صمم ذلك المنزل.

– أربع سنوات وأنا أضع كل شيء فيه بعناية شديدة، إنه لدون قلبي بلا منازع، عذرا يا (طارق) لا بد أن أذهب، أتحب أن أقلك إلى المنزل؟

– لا، سوف أتجول قليلا.

– هل تعرف العنوان؟

- لدي هاتف الآن، سأهاتفك إذا ما تهت.

همت بإخراج مال من حقيبتها.

- ماذا تفعلين؟

تبسمت وأشرت لها بيدي أن تذهب؛ أنا دون الآن، لا يصح، فابتسمت ورحلت.

أنهيت كل طبق من الأطباق، وكدت أمضغ الأطباق من فرط الجوع، ثم دفعت الفاتورة ورحلت. كم هي رائعة ورقيقة أمستردام؛ الزهور منتشرة في كل مكان، كل جسر تمر عليه يمتلئ بأزهار مختلفة الألوان، كان المكان ساحرا، فجلست على أحد الجسور قرب النهر، أنظر إلى تلك القوارب البسيطة ذهابا وإيابا، وجدت صوتا عذبا من خلفي ينادي: (طارق)، (طارق). التفت فوجدت آنسة جميلة تحاكي أميرات ديزني، لها بشرة بيضاء، وعيون ملونة، وشعر أحمر ثائر.

ما إن قربت إليَّ، قلت لها:

- أتقصدينني يا سيدتي؟

- (طارق)، ما بك؟

- أعتذر عن ضعف ذاكرتي.

- ألا تذكرني؟ (فيولا)، (فيولا ميلانو).

- (فيولا) ما هذا التغيير؟!

- هل للأفضل؟

- أكاد لا أعرفك، ماذا تفعلين هنا؟

- عملي هنا.

-على الجسر؟

تبسمت ضاحكة وقالت:

- أنا أدير حساب منتدى على الإنترنت، أعرض به منتجات محلات الأزياء، ويطلب مني الزبائن الأثرياء توصيلها لهم ولى نسبة من البيع ونسبة من التوصيل، بخلاف الضيافة، لا عليك جميل أنني وجدتك، ماذا تفعل هنا؟

- كنت أتجول في الأرجاء، ماذا حدث للون شعرك وما هذا التغيير الفظيع؟

- تعودت أن أضع كحلا تحت عيني في تلك السهرات حتى يجعل مظهري بشعا، وأيضا أتعمد ارتداء باروكة بشعر خشن ولون مناسب للعين، فقط من باب تغيير الشكل، تعرف بعد الانتشاء لا نعلم من صاف النية ومن سيئ.

لقد ذهبنا للشقة الخاصة ب(جوفاني)، صاحب المنزل قال رحلوا ولن يعودوا مرة أخرى، وباقي ل(جوفاني) أغراضه هناك، لا أعرف لكم هاتفا أو عنوانا آخر.

- إن رأيته سأبلغه بذلك، وإن أردت أنقل له رقم هاتفك.

- في الحقيقة لا، لقد ذهبت بحثا عنك؛ فقط لأشكرك وأعتذر عن فظاظتي في التعامل معك يومها.

- لا عليك، لقد كنا جميعا في حالة من الإعياء الشديد.

- أنا أجلس هنا كل يوم حيث أتناول قهوتي وأسرق من ذلك المقهى الرقم السري لشبكة الإنترنت الخاص بهم، وأنتظر زبائني، إلى أين أنت ذاهب؟

– للا شيء، فقط أتنزه.

– والعمل؟

– العمل؟

– نعم العمل!

– نعم العمل، أنا أعمل الآن في خدمة سيدة ثرية جدا، فاحشة الثراء.

– تقود سيارتها؟

– نعم، وأحضر متطلبات المنزل.

– هل الراتب جيد؟

– (وأنا أفكر) نعم الراتب جيد.

– لو لم يكن جيدا فلدي عمل لك.

– ما هو العمل؟

– في التوصيل معي.

- ذلك العمل أفعله فقط لك مجانا، حيث يصل راتبي في الأسبوع ألفا ومئتي يورو.

- (وهي مسبهلة) هل ربة عملك تطلب منك القيادة فقط وإحضار الأغراض أم شيئا آخر؟

- إطلاقا، إنها سيدة لطيفة، وزوجها رجل مهم جدا في العصابة، قصدي في الحكومة.

- حسنا بما أن راتبك أعلى من راتبي، أريدك أن تدعوني إلى العشاء غدا، ما رأيك؟

- أحب ذلك بالطبع.

- أعطني رقم هاتفك.

- (بخيبة أمل) لا أذكره، فقط انتظري. (أخرجت هاتفيي.)

- ما هذا؟

- الهاتف.

- كيف حصلت عليه؟

- في الحقيقة أنا مجنون تكنولوجيا؛ أضيع كل راتبي على الأجهزة الجديدة، وذلك جعلني مفلسا دائما.

- أليس لديك مال؟

- مفلس بنكيا فقط، إنما لدي مال والحمد لله وكثيرا.

ورددت في مخيلتي: أكثر بكثير مما توقعت.

- إذن هذا رقمي، أين تصطحبني؟

- أحجز أولا، وسوف أرسل لك رسالة نصية.

- حسنا، في انتظار رسالتك.

ذهبت بنور الصباح التي كانت تشعه بجانبي، لا أعلم لماذا واعدتها في ظل أنني أريد أن أتوغل في تلك البلدة وأشاهد محاسنها أكثر، ولا أريد أن أعيد قصة (سوشين) مرة أخرى، تكاد تلتصق بمخيلتي، كم العذاب الذي تسببت لها فيه، ولا أريد أن أكرر ذلك.

في المساء حضرت (ريتا) وقالت لي:

- كيف كان يومك؟

– ممتاز، فقط تعرفت إلى أنثى كانت قد سهرت معي يوما.

– أخجلت أن تقول إنها سهرت معكم؟

– ناهيك عن تلك الكماليات، فأنا من تعرف بها.

– الفخر أن تكون صديق زوجي يوما من الأيام يا (طارق)، أنت تحاول ألا تجرح مشاعر الآخرين ولو بكلمة، ها قل لي ماذا حدث بينكم؟

– أخاف أن أمضي معها فترة وتتعلق بي كما حدث مع (سوشين)، ولا أستطع تحمل ذلك أيضا.

– تقصد (فيولا ميلانو)؟

فنظرت لها في دهشة، عقدت حاجبيَّ تلقائيا، وسألتها: كيف علمت باسمها؟!

– (وقلبها يحترق) كل فتاة كانت تأتي في سهرات (جوفاني) كان لا بد أن أعرفها، فلم تخط عتبة (جوفاني) واحدة إلا وأعرفها. إن (فيولا) واحدة منا، وقفت على باب المنزل بتردد خوفا من رد فعلي.

وقالت فيولا بصوت ينم عن الترقب والقلق:

- أنا هنا.

- هنا لتلبية جميع رغباتك واحتياجاتك إلى أن تترك هذا البلد، لن أتركك بدون رفيقة يا صديقي، (فيولا) صديقة قديمة ووفية، هي فقط تخرج في الأعمال الخاصة بي وتعد ذراعي الأنثوي في أمستردام، وصديقة عزيزة، حتى إنها شاركتني في تصميم هذا المنزل، صدقني يا (طارق) كنت فقط خائفة على (جوفاني) من المشاكل والأمراض، أتمنى أن تكون قد فهمت قصدي.

عندما حدثت (فيولا) عن تلك المهمة، رحبت جدا وقالت إنك شخص عاقل ورزين، وأحيانا تجبره الحياة على فعل ما لا يريد من داخله، وأتمنى أن أكون بقربه ما دام حقق لنا كل ذلك، تقصد ما حدث بينك وبين (جوفاني).

لا شك، فقد جف حلقي مرة، وأحاول ابتلاع ريقي مرة أخرى، فقد ظننت أنها اختارت بإرادتها قلبا طيبا، وأنها إنسانة طبيعية.

أعجبت بشخص، ظهرت ملامح قلبي على وجهي، استأذنت من (فيولا) وقلت (لريتا): أستأذنك في دقيقة يا (ريتا).

تحركنا جانبا وقبل أن أقول لها شيئا قالت:

- أنا آسفة يا (طارق)، كان يجب عليَّ فعل ذلك.

- أعلم.

- لقد ظهر على ملامحك علامات الغضب، صدقني عندما كلفتها بذلك كانت سعيدة وفي غاية ...

فقاطعتها وأشرت بيدي:

- هل اتفقت معها على مبلغ معين؟ أم إنها أوامرك فقط؟

- أقسم لك إنها هنا بإرادتها.

فقاطعتها أيضا:

- أعلم، وأشكرك وأشكرها على ذلك، هل سمعت ما قلته؟

- نعم وتعرف ب(سوشين) وما حدث في (تايلاند).

- جيد، هل تحبين أن أحدد أنا شخصيا أتعابها أم أنت؟

- حدده أنت بما تحب؟

- لها ألف يورو في اليوم.

- (طارق) ذلك مبلغ كبير.

- إنها من أصدقائك ومرشدة ليست أي شخص، أتمنى ألا أكون فظ القول معها.

- إنها لا تعلم عن المال شيئا، فقط عند مغادرتك اترك ما تترك لها من هدايا إن شئت.

عدنا من حيث أتينا، جلسنا بقربها، وشرعت في الحديث:

- آنسة (فيولا)، أنا أشكرك على تبرعك بمرافقتي وأن تكوني دليلي في هذا البلد الجميل، ولك حرية الذهاب للمنزل والحضور غدا وقتما تشائين حتى نقوم بجولة.

فنظرت إلى (ريتا) وسألتها:

- هل لديها سيارة أم لا؟

- لديها سيارة صغيرة.

- إذن هيا بنا.

- إلى أين؟

- نبتاع سيارة جديدة لي، ألديك مانع؟

- لا بالطبع.

- هل (فيولا) تعلم بالخطة الأمنية للمنزل.

- نعم، لكن لماذا؟

- أريد أن أضع في مطاعمي الخاصة كاميرات كهذه، المعلقة هنا.

قالت (فيولا) بنبرة صارمة تدل على حنقها:

- نعم أعرف، وأعرف من الشراء إلى كيفية تركيبها.

- ريتا من فضلك يوجد مربع لوضع رقم سري في تلك الغرفة لا يفتح مع أربعة الأصفار، هل لي أن أعرف ما هو؟

- إنها خطة وضع القنابل في المنزل وتفعيلها عن بعد بجهاز المراقبة والتصوير الحراري الموجود بالكمبيوتر المحمول خاصتك.

- ما رقمه؟

- صفر واحد صفر.

- حسنا، والباقي (فيولا) تعرفه؟

- نعم.

- إذن أستأذنكم ثوان قليلة.

دخلت إلى حجرة المال وأحضرت إحدى حقائب الظهر المعلقة، لا أعرف كم وضعت من مال في تلك الحقيبة، وأعتقد أن المبلغ فاق المليون يورو، وضعتها على كتفي وخرجت لهم، قلت: هيا بنا. كانت(ريتا) قد غادرت منتظرة في سيارتها، وأعتقد (فيولا) هي من طلبت منها ذلك، وبدأت بالحديث، قالت:

- دون (طارق)، أعلم أنك تكن في جوانب قلبك البغض لي، لكن صدقني، لولا أني أعلم أنك إنسان طيب القلب ونظيف ما وافقت على مرافقتك.

شكرتها على ما قالت جزيل الشكر وغادرنا حيث (ريتا) بانتظارنا في سيارتها عند باب المنزل.

كان سوقا رائعا للسيارات، وكانت عيني تعمل جيدا من حيث جودة السيارة وتصنيعها حتى وصلت أمام حبيبتي الأودي، ووجدت السيارة التي جعلتني أبتسم وبرقت عيني أمامها (أر ٨)؛ ظاهريا السيارة جميلة، أما من الداخل فأجمل بكثير. نظرت إلى(ريتا)

- (طارق) هكذا أنت تلفت الأنظار؛ إنها سيارة باهظة الثمن، كيف تشتريها نقدا وأنت مجرد سائح؟

- أنا لن أشتري سيارات؛ أنا لا أحمل رخصة أوروبية أصلا.

- ومن سيشتريها؟

- (فيولا) صاحبة السيارة.

- وبعد ذلك نقوم بشحنها لك إلى مصر.

- نعم. (وابتسمت)

- فكرة جيدة.

وجدت (فيولا) تقف أمام سيارة ميني كوبر تتفحصها جيدا، ورددت في سعادة: إنها سيارتي، رغم أنها تختلف قليلا.

- تختلف كثيرا.

- أتعقدين معي اتفاقا؟

- ماذا؟

- تعطيني سيارتك وتأخذين أنت هذه.

ضحكت ونظرت لي نظرة اللوم ظنا منها أنني أمزح؛ فسيارتها الميني كوبر أيا كان اعتناؤها بها، إلا أنها لا تساوي شيئا، حتى إنها منعت من السير في شوارع أوروبا منذ زمن.

نظرت إلى (ريتا) وقلت لها:

- هيا بنا.

- أين؟

- لشراء السيارتين.

- أنت مجنون.

- هيا، ألا تريدين أن تسعديني؟

- بكل تأكيد.

- تفضلا بالتعاقد على السيارتين، ودفع كامل المبلغ.

وعندما انتهينا، سألت (ريتا): متى الاستلام؟ قالوا لها: بعد غد.

- ماذا قالوا؟

- بعد غد.

- ولماذا لا نستلم الآن؟

- إنها سيارات العرض.

- أريد الاستلام الآن.

- مجنون أنت؟

- قولي له نستلم الآن، إما أن تعيدوا أموالنا ونشتري من مكان آخر.

- حسنا، حسنا انتظروني.

وقفت أمامي (ريتا) وأمامها (فيولا) غير مصدقة ما رأته.

- السيارتان ستأتيان الآن، كل منكما سيدخل سيارة ويتأكد من وجود حقيبة العدة، العجلة الإضافية، وشاحن هواء وهدية.

قالت ريتا في فضول بالغ:

- أين علمت ذلك؟

- مكتوب على تلك اليافطة، الدفع الفوري استلام فوري، ولا تنس جميع الإضافات بالهدية، مكتوبة بالإنجليزية، ونحن دفعنا فوري كاش عدا نقدا فلنا تلك المميزات.

حضرت السيارتان في التو واللحظة.

- هيا يا فتيات انقضوا على الفرائس.

ابتسمت الفتاتان وذهبتا فورا وتفقدتا كل شيء داخلها، أخيرا سألتهما عن طفايات الحريق؟

قالت (ريتا): هنا.

قالت (فيولا): لا يوجد.

نظرت إلى صاحب المعرض...

قال لهم: دقيقة واحدة.

اتفقنا بعد الشراء أن أقود الأودي وتقود (فيولا) سيارتها الجديدة.

قالت (ريتا): هيا سنذهب إلى المنزل أولا؟

قلت لها: نذهب أولا إلى (زينا).

قالت (ريتا):

- هذا مطعم؟

- نعم، مطعم مغربي قال لي أحد الزوار العرب عنه، وأنتم ضيوفي الليلة.

- هل توافقين؟

قالت(ريتا):

- نعم.

ونظرت إلى (فيولا)، فقالت وهي مبتهجة:

- نعم.

- لكن ينقصنا شيء؟

- ماذا؟

- عنوان المطعم، أنا لا أعرفه.

نظرتا الفتاتان لبعضهما البعض وضحكتا.

بعد العشاء وصلنا بالسيارات الثلاث أمام المنزل وأنا أسألهم:

- ما رأيكما بالعشاء؟

فقالت (ريتا):

- رائع حقا.

وقالت (فيولا):

- حقا استمتعت.

قالت ريتا:

- سوف آتي لزيارتكما.

- لزيارتي، لأن (فيولا) سوف تذهب إلى بيتها أيضا، وسوف تأتي غدا بدون سيارة حتى تستقل سيارتي في جولاتنا.

- حسنا، أشكرك دون (طارق) على السيارة، ستعشقها والدتي، ثم ركبت سريعا ورحلت.

وقفت (ريتا) وقالت:

– لماذا طردتها بكل سهولة؟

– لن أعيد ما حدث مرة أخرى، ستأتي لعملها المكلفة به لا أكثر، وذلك لعدم إحساسي بالذنب متى ذهبت من هنا، أنا هنا وحدي ولا أعتقد أنني سوف أذهب إلى مكان، لا تهتمي؛ فقد نلت حظي في الدنيا من إنسانة أحبتني لآخر نفس من عمرها ولا أريد تكرار المأساة. هيا لقد تأخرت؛ قد يقلق العراب من عدم اتصالك. (وأشرت لها بغمزة من عيني.)

فضحكت وركبت سيارتها، بينما تبتسم وتقول:

– من يترك (فيولا) ترحل، ليس إلا إنسانا مجنونا.

دخلت المنزل، فراغ بلا صوت، وتمنيت لو كانت (سوشين) هي من معي الآن، لكانت تعجب بالمنزل جدا، ولم أطمئن على (ناريسارا) حتى الآن! تعجبت كيف نغير المكان وتتغير فكرتنا عن أحبابنا يوما، هل هو الانشغال اللحظي؟ أم أن تلك هي رحلة البحث عن السعادة فقط؟ تجولت قليلا داخل المنزل ومما لا شك فيه أن الفراغ يفعل أكثر من ذلك، وجدت سيوفا وخناجر في حجرة السلاح وأوهمت نفسي بحرب أخوضها وحدي ضد

اللا شيء، قلت لنفسي: حتى تكتمل تلك الحرب تحتاج إلى تدخين بعض الحشيش. أحضرت البعض وشرعت في تدخينه، قطع كبيرة كانت لا تخرج دخانا، فتذكرت (جوفاني) كيف كان يقطعها أجزاء صغيرة جدا، وبدأت أتعلم كيف يكون الاستسلام للمخدر مرة في مرة، وجدت نفسي وحيدا جدا أترنح حول تلك الغرفة، فعقدت العزم على أن أذهب إلى النادي الليلي المقابل للمنزل وأدخل من نفس الطريق وأنا لا أدري ماذا أفعل؟ أخذت مبلغا من المال المتبقي في حقيبة ظهري ونزلت للطريق غير مبال ماذا يحدث أو أين أنا ذاهب؟ فَقط، قطعت الطريق وذهبت إلى ذلك المطعم لعلهم يمررونني للداخل كما حدث من قبل، ظننت أن المدخل من هنا طبِيعِيا، إِنَّما اتَّضَحَ أن صاحَبَ المَكان الجَدِيد فَقَطّ هُومِن يمكنه أن يدخل من هذا الباب، وأَشار لي أَحدهم كيْف أَسير، وجدت نَفسِي في ذلِك الشارِع الجانِبِي، الْذي خرَجنا منه سويا أنا و(جوفانِي) ليلتها، وأَمامي طابور طويل جدا لبلوغ الهدف، الكثير مِن البشر في انتظار الدخول، تركت الناس جميعا واقفة ودخلت على المسئول، أخرجت مِن جيبي بعض الأوراق النقدية، نَظر إِليها مليا وقد سال لعابه، قال:

- جيد جدا، انتظر هنا.

حضرت أنثى من الداخِل أشارت لي بالقدوم، دخلت معها، مررتني من باب لا يدخل مِنه الجمِيع، باب أعتقد أنه خاص بالمشاهير وذوي النفوذ، أشارت إلى طاولة منعزلة، أمسكت يدها وقلت:

- ابقي معي.

همهمت بكلمات لم أفهمها تماما، بما في معناها اصبر قليلا، جلست وحضرت أُخرى أَعتقد أنها تتحدث الإنجليزية.

- أُريد بعض الفتيات ومشروبا لهم أَيضا بالحجم العائِلي.

- حسنا.

ذهبت قليلا، ثم عادت مع شابين وحضرت معهم، قالت:

- هذا هو طلبك يا سيدي.

ووضعت على الطاولة خمس زجاجات من ألوان متعددة، وأعتقد أن لون الزجاج هو المشكلة! حيث إنني بدأت تنخفض حرارة جسدي، إثر هبوط في الدورة الدموية، وجدت ريقي يزداد تحجرا،

ووجدت شخصا آخر يحضر صندوقين، وأعتقد أنه شعير، خرج الجميع من ركني، ووجدتني أفتح إحدى زجاجات الشعير، وأتجرع منها كتائه في الصحراء في جو مكفهر، تحضر أنثى وتجلس بجانبي وتحضر أخرى وأخرى وأخرى حتى امتلأت زاويتي بفتيات الليل، غير مبال بمن تجلس أين أو ماذا تشرب؟ وكم من مال قد أخرجت من جيبي؟ أو ماذا حدث.

فقط صحوت من نومي لأجد (ريتا) و(فيولا) يقفان عند باب غرفتي، وتغادر بعض الفتيات الغرفة بعد قضاء الليلة معهن، ذهبن ووضعت جسدي في السرير أداري رأسي داخله، وضعت (ريتا) بعض المياه على يديها ومررتها على رأسي، وهي بجانبي على السرير، وقالت:

- كل ذلك بسبب (فيولا)؟

- ماذا؟ ما بال (فيولا)؟

وأصبت بخيبة أمل وأنا أقول لها:

- كيف فهمت ذلك؟

– نحن النساء نفهمكم أكثر مما تظنون وأنتم الرجال لا تجدون الفرصة لإرهاق عقلكم بنا.

– حسنا، نعم صدقت، أنا فعلت ذلك، هل في ذلك خطأ؟

– لا، إنما حاول أن تتمالك نفسك قليلا.

– الحقيقة، هل أنت معجب بها؟

وضعت رأسي مرة أخرى وأخفيته عنها بينما أقول:

– نعم، هل استرحت الآن؟

– قليلا، أنا ذاهبة إلى عملي، وهي الآن في الصالة في انتظارك.

– حينما تستيقظ، تكون قد جهزت لك الإفطار، حسنا.

– حسنا، سوف أحضر بعد قليل.

خرجت بعد قليل تائها لا أريد أن أراها أو أتعامل معها وخشيت في نفس الوقت أن تكون مجبرة على ذلك العمل.

– صباح الخير.

– صباح الخير دون (طارق).

– هل أنت من جهز ذلك الفطور؟

– نعم، جبن وزبد ومربى وقليل من اللبن مع كيك وكيك فواكه.

– هل هو جاهز وأنت حضرتِه؟ أم صنعت كل ذلك الآن؟

– هل ذلك صعب على أنثى أم كثير؟

– لا، لكن الوقت ...

– ما فائدة الوقت مع يد عابثة، وما أسرعه من البرق مع يد عاملة، أتود شيئا آخر دون (طارق)؟

– ألن تتناولي فطورك؟

– لقد تناولته باكرا، أشكرك.

– على الأقل شاركيني.

– حسنا تفضل.

جلست ساكنة لا تصنع شيئا، بينما ألتهم ما صنعت مع القهوة، سبحان الله ما ذلك الطعم اللذيذ! كنت أتضور جوعا، وعندما انتهيت...

- اعذريني لدقائق.

وعندما عدت وجدت أنها قامت بتنظيف صالة الطعام، غسلت الأطباق ووضعت معطرا للجو.

- هيا نبدأ الأعمال؟

- كما تأمر يا دون (طارق).

- (فيولا)، لا أحب دون (طارق)، دون (طارق)، أنا فقط (طارق)، اتفقنا؟

- حسنا.

- أعجبت والدتك بالسيارة؟

- في الحقيقة لقد قلت ذلك أمس بعد أن تم إحراجي لأبعد الحدود، وأحسست كم أنا في نظرك رخيصة، وكان من الأفضل ذهابي بأسلوب لبق، فاختلقت قصة أمي.

– هل كنت قليل الذوق إلى تلك الدرجة؟

– نعم.

رفعت عيني ونظرت لها بحزم.

– قليلا، قليلا فقط يا دون (طارق).

– عموما أريد أن أشتري كاميرات كهذه الموجودة هنا لكل مطاعمي، أريد أولا إن أعرف خطه المراقبة لمطعم مبدئيا، وثانيا كم واحدة نحتاج؟

– كم مطعم لديك؟

– سته في القاهرة، وثمان في باقي المحافظات، وأربعة في دول خليجية.

– إنها ثلاث في المطبخ، وأربع في كل صالة طعام، واثنان للحسابات، وواحدة أمام مدخل المطعم، بمعنى عشر كاميرات للمطعم الواحد، ولدينا ثمانية عشر مطعما، هكذا لدينا مئة وثمانون كاميرا نحتاجهم، ولهم ثمانية عشر مسجلا لمدة شهر

قابل للحذف التلقائي أو التخزين، بسعة خمسمائة جيجا بايت، وثمانية عشر راوتر.

– جيد جدا، متى نستطيع إحضارهم.

– كل شيء له ثمنه يا دون (طارق).

– أقرب وقت؟

– هل لديك حساب في أي بنك هنا في أمستردام أو خارجه؟

– بالطبع.

– أقل من نصف ساعة سوف أحضر لك ميعاد التسليم، والمبلغ المطلوب.

– حسنا، ولك أكثر من نصف ساعة؛ سوف آخذ حماما دافئا وأتمرن، ثم أوافيك.

– ما اسم المطاعم في مصر؟

– (أبو طارق).

– حسنا.

الوصية...

تهللت أسارير (ريتا) وهي تجيب على (جوفاني) وتقول له:

– خشيت أن تتساني.

– أنا أنسى العالم ولا أنساك.

– كيف لي ألا أحسد نفسي على تلك السعادة؟ بعد كل تلك السنين حلمي يتحقق.

– تلك مشيئة الرب.

– بدأت تتحدث كعراب، كيف حال عمي؟

– الوضع يزداد سوءا يوما بعد يوم، أتمنى لروحه الخلاص، إنه أمامي ولا أدرى ماذا أفعل؟ لقد أمر بإعلان وفاته وخصص مقبرة لنفسه في الحديقة، أتممنا الوضع على خير ما يرام، وكتبنا حتى نقدمها غدا أمام اللجنة بالعفو عن الجميع.

– وماذا عن الأعمال التي بدأناها هنا؟

– ستستمر، إن كنت تريدين ضمها قبلت، وإن وددت أن تكملي بها أيضا موافق.

- إنه جهد سنين لا يضيع هباء، وها هي منظمة صغيرة أديرها بدلا من الفراغ.

- كما تحبي يا صغيرتي، انتظري مكالمة أخبرك فيها أن كل شيء جاهز.

- وأنا أنتظرك ألف عام.

مر حوالي ساعة ونصف حتى أنهيت تدريبي، تأوهت كالعادة في أخر رفعة لتمرين الصدر، وجدت وجه (فيولا) أمامي تساعدني على رفع الثقل، وعندما قمت وجدت أن (فيولا) قد بدلت ملابسها ولبست إحدى الملابس الرياضية الخفيفة.

قالت لي:

- لا بد لك أن تخفف وزنا وتزيد العدد المرة القادمة حتى لا تصاب بتليف في العضلة، إثر تلك المعاناة كل مرة.

- من أين لك بتلك المعلومة؟ وكيف عرفت أنني أتحمل المعاناة كل مرة؟

– أخي كان في الجيش ويتمرن كثيرا، وكنت أشاركه أحيانا، وعلمني الكثير من اللياقة البدنية لرفع الأثقال.

– هل انتهيت؟

– نعم، انتهيت.

وهي تنظر إلى عضلات صدري وتراقب العرق النازف بشغف، وكررت في نعومة: نعم، انتهيت.

تناولت تلك المحرمة الموجودة جانبي ووضعتها على جسدي، فنظرت إلى عيني مباشرة وقالت:

– لقد أحضروا السيارة القديمة ووضعوها في الخارج، عندما تنهي حمامك تراها، الاتفاق اتفاق.

وهي تغادر الغرفة، رمقتني من أسفل إلى أعلى وغادرت،

"في قرارة نفسي سوف نتخطى تلك الأيام الصعبة، سوف نتخطاها".

ارتديت ملابسي وخرجت.

– أحضرت عناوين المطاعم وأرسلتها للشركة، كل ما علينا إرسال مبلغ ثلاثة وستين ألف يورو دون مصاريف الشحن.

– كم تبلغ مصاريف الشحن؟

– مع شركه الشحن إلى مصر والإمارات والبحرين وعمان، خمسة آلاف يورو، يكون المجموع ثمانية وستين ألف يورو.

– انتظريني دقائق، دخلت غرفتي، وجدت الشنطة فأخرجت منها مبلغ مئة ألف يورو، خرجت وأعطيتها إياهم.

– ذلك المبلغ يزيد انتقالاتك، الآن ستذهبين إلى البنك وتضعين المبلغ في حسابك ثم ترسلين المبلغ وتتأكدي بأنه وصل هاتفيا للشركة المصدرة، وباقي المبلغ اتركيه في حسابك سوف نحتاجه.

وأعطيتها ألفي يورو؛ تضع ألفا بالسيارة، وألفا تنفق منها على وقود السيارة ومستلزماتها الداخلية، في حال احتياج أي شيء.

– يوجد أي متطلبات أحضرها عند رجوعي؟

– برجاء شراء جهاز حاسب آلي محمول وإرساله أيضا إلى مصر، سوف تحتاجه أمي الفترة القادمة.

ذهبت وبدأت أتحدث في الهاتف لمسئولي المطاعم في مصر وخارجها، وأخبرتهم بأهمية التقنية الجديدة في إدارة المطاعم عن بعد، من خلال تركيب تلك الكاميرات بشكل مناسب ولا يضايق الزبائن في الوقت ذاته، وأوصيت في أقرب وقت بطلب دخول خدمه الواي فاي في المطاعم، حتى يتسنى لي مشاهدتها في أقرب وقت، وأوصيت بأن يتم التركيب بأيدي لها خبرة عميقة في هذا المجال مرارا وتكرارا، وفي النهاية تحدثت إلى أمي حتى أخبرها بذلك الأسلوب الجديد في متابعة الأعمال، وكم يكون مريحا لها في جميع الأحوال، وأوصيتها أن تهتم به وفي القريب العاجل سوف يصلها جهاز مبرمج تلقائيا عند فتحه لمشاهدة ما هو داخل وخارج مصر، واطمأننت عليها، فقالت لي شيئا لم أفهمه:

- ألا تريد أن تقول لي شيئا يا (طارق)؟

- كل الأمور بخير يا أمي بدعائك والحمد لله، عن ماذا يا أمي؟

- لا عليك، إنما أنا فقط قلقة عليك لا أكثر.

أغلقنا المكالمة وما أزال في حيرة، هل بدر مني أي شيء يستدعي أن تقول أمي هذا الكلام؟

إنني لا أخفي شيئا عنها إطلاقا، إلا شيئا واحدا لا أستطع إخبارها به! ما هذا الملل؟

لقد نسيت حقا (ناريسارا)، نقلت رقمها من هاتفي الأساسي واتصلت بها.

- ألو.

- عروستنا الجميلة، كيف صارت أحوالها؟

فصرخت وقالت:

- (طارق) أين أنت؟ لقد افتقدناك.

- لقد افتقدتك أكثر، كيف سارت الأحوال؟

- أنا في أفضل حال، ولقد أهداني الله (دانيال) من بعد مغادرتك، لقد ملأ عليَّ حياتي، و(سوشين) سوف تتزوج الأسبوع المقبل.

- رائع، تلك الأخبار أعادت لنفسي السرور، كنت أتمنى أن أكون بينكم حتى نفرح سويا، لا تنسي أن تخبريني بموعد الزفاف، هذا رقمي هنا، وأتمنى أن تظلي على تواصل معي.

- بالطبع يا بطلي.

- في رعاية الله.

وعندما أغلقت الهاتف، كانت قد عادت أمامي (فيولا) واقفة، شهقت من فرط المفاجأة وقلت: هه، "بسم الله الرحمن الرحيم"، لقد عدت؟

- نعم.

- لم يأخذ الإيداع والإرسال وقتا؟

- أنهيت الإرسال، وإليك نسخة من فاتورة التحصيل.

- حسنا، أين نذهب اليوم؟

- إذن هيا بنا إلى مفضلتي في المتاحف، متحف (فان جوخ)، سوف يحظى بإعجابك كثيرا.

- حسنا إلى هناك.

خلال تجولنا داخل المتحف...

– أين العائلة تقيم؟

– تقصد أبي وأمي أم الأسرة بالكامل؟

– لدينا الوقت الكافي.

– لقد ولدت هنا في هولاندا، أما عائلتي قد حضرت من اليونان منذ ما يقرب من الثلاثين عاما، واستقر أبي وأمي هنا وتوالت الأحداث.

– ألم تذهبي لليونان قط؟

– بالطبع نذهب كل عام أو عامين مع الأسرة في عطلة ونعود بعد أسبوعين على الأكثر.

– جميل.

وانا أتحاشى معها الكلمات المعسولة والأسلوب اللطيف خوفا من شيء تقع به ولا أستطيع تحمل جرح ذلك الكائن الرقيق، كان تجولا ليوم كامل ولم أحس بإرهاق، سألتها: أريد استخراج رخصة قيادة.

- حسنا، تريد الاستغناء عن خدماتي؟

- هل مهمتك معي القيادة فقط؟

- لا، لكنها إحدى المهام.

- لا يصح أن تجلس فتاة رقيقة خلف المقود وأنا أجلس بجانبها هكذا.

- وما الفارق؟

- حقا، وما الفارق؟!

وفي أثناء تناول الغداء قلت لها:

- الأنثى لدينا في مصر لها طابع رقيق لا يتحمل كثرة الأعباء والهموم، فنحاول بقدر المستطاع تلبية رغباتهن أكثر من أن تلبي هي الرغبات؛ يكفيها رغباتنا المرهقة.

- أنا أؤمن بالمساواة بين الرجل والمرأة في كل شيء، لكن في حديثك عبودية للمرأة حيث إنها فقط ملزمة برغبات الرجل.

- حينما تعشق المرأة، لا تجد اهتماما لها غير رجلها.

– صحيح ممكن، لكن ليس في كل الأحوال هو، ألا يوجد رغبات للمرأة؟

– رغباتها على عاتق الرجل في ذلك الوقت.

– هذا إذلال شديد للمرأة، حتى إن اعتماد المرأة الشرقية ينحصر في وجود رجل، ماذا إن لم يكن هناك رجل؟ كيف تعيش المرأة؟ أعتقد أنه تكاسل منها، أيضا فلا سبيل للمرأة إلا العمل والنجاح، وإن حضر الرجل فلا مانع.

وصلنا إلى المنزل، وترددت وهي تقول: هل سأذهب للمنزل اليوم؟

– (وأنا في قمة الخجل) كما تحبين، أنت تعرفين أنه مرحب بك في كل وقت.

– حسنا، ونزلت من السيارة متجهة معي إلى المنزل.

وجدت نفسي أمام أمر واقع، أنا مرغم على استقبالها، ولا حيلة، وإن كانت نفسي تميل لذلك.

– تصبحين على خير.

– سوف تأوي إلى الفراش في هذه الساعة؟

– كفاني سهرا ونوما متأخرا وعدم تمرين، أتمنى أن تعود لياقتي لسابق عهدها.

– أتمنى لك ليلة سعيدة.

– ما من خبايا هذا المنزل تعلمين؟

– كله.

– حسنا سوف أنهى حمامي سريعا وأحضر حتى نتمكن من فك لغز ذلك المنزل.

بحثت عنها في ذلك الفراغ الفظيع حتى أجدها، قد ارتدت ملابس النوم فقط، شورت قصير وقميصا إلى الخصر، عندما ظهرت أمامي سيطرت على أعصابي وكأنني أرى (استيفان روستي) في أحد أدوار الشر، حاولت أن أجعل للحزن طريقا نصب عيني، وزدت بعبوس وجهي أيضا.

– من أين نبدأ؟

– المنزل كما ترى هادئ وجميل، لنرى ما لدينا هنا أولا خلف تلك اللوحات.

– ما خلف تلك اللوحات؟

قربت إلى إحداها وحاولت انتزاعها، صدر صوت إنذار، فذهبت إلى لوحة المفاتيح وأطفأتها.

– خلف كل لوحة جهاز دقيق يرصد الحركة، إذا وضعت جرس الإنذار مفعلا لا تستطيع ذبابة التحرك داخل المنزل، إذا طارت ذبابه من مكان إلى مكان يتم تفعيل جهاز الإنذار، تلك الأضواء بالسقف يمكنك تفعيلها ببصمة الصوت، وذلك من خلال ذلك الجهاز فقط، تضغط على الزر وتنطق ما تقول تبرمج ذاتيا، هنا لدينا غرفة ذعر تحت الأرض، تعال معي خلف مرآة غرفة الطعام.

باب سحري صغير يفتح بأرقام سرية من أربعة أرقام، أعتقد أنت تعلمهم، أشاحت بوجهها ناحية فمي ووضعت أربعة الأصفار، فتح باب، دخلنا مع درج أنيق...

- هذه الشاشة تطابق الشاشة الموجودة بغرفة نومك وغرفة المكتب تماما، ومرتبطة بجهاز كمبيوتر، ولديك لوحة مفاتيح وفأرة للاستخدام البعيد، ومرتبط به ألعاب فيديو للتسلية، تستطيع أن ترى من هنا المنزل كاملا من خلال الكاميرات في جميع الأرجاء، وهناك سرير واحد في ذلك المكان، حيث مصمم فقط للدون (جوفاني) ومن تحضر معه، هناك في النهاية حمام صغير وبه كل الإمكانيات اللازمة، وذلك الباب غرفة خزين، حتى إذا ما أردت تفجير المنزل تجد مؤنا تكفي لمدة شهرين، هذا المكان ليس به ملاذ آخر للخروج.

قالت تلك الكلمات وهي تفتعل وعكة في قدمها من أثر صعود الدرج، فارتمت في أحضاني مباشرة، حاولت أن أهدئ من روعها ومع ازدياد الألم لم أجد سبيلا سوى إن أضعها على سرير تلك الغرفة، وعند وضعي لها وهي تتمسك بياقتي، وتقرب وجهي ناحيتها، فقط عيني في عينيها ومنخاري يقارب ملامسة فمها.

- ابق معي قليلا.

حاولت التملص من يدها بصعوبة بالغة رغم رغبتي الشديدة في تقبيلها.

– لماذا تعاملني بمثل هذا الجفاء، ألا تهتم لأمري؟

– بالطبع أهتم، لكن نحن صديقان، أليس كذلك؟ نطقتها وكنت أتمنى أن أقول لها عاشقان.

كيف يتولد ذلك الاهتمام بأنثى في القلوب، كيف تؤثر عليك الأنثى بتكبيل عاطفتك نحوها وكثير من التساؤلات قفزت إلى عقلي، مرة واحده أرخت يدها برفق عن ياقتي، لكن ظلت قامتي منحنية عليها بنفس المسافة، بل وإحساسي أنها تقل، هل إلى هذا الحد أصبحت ضعيفا أمام الأنثى! ابتسمت وهي تعطي قبلة لمنخاري كأمر من قائد جيش إلى جنوده بتحطيم أفخاخ العدو، حيث لن أستطيع تحمل نفسي في رغبتي بها ووجدت يدي تمتد على ملابسها الداخلية الرفيعة وأمزقها بأصابعي، وأتجول حول جسدها بإصبعي، وما يحدث عند احتكاك حجرين ملتهبين ببعضهما البعض، بالطبع تحدث شرارة، ذلك ما حدث أيضا لجسدين يتلهف كل منهما الأخر بحرارة الأنفاس التي تكاد تحسها في حرارة الغرفة. لن تحس بمتعة امرأة وأنت فوقها فقط، فقد كانت في كل مكان، بجانبي وفوقي وتحتي، لم تمل ولم أملها

ولم يمل لساني ارتشافها، ولم أتحمل نشوتي، ففاض داخلها بركان.

- ارتويت؟ لم ينطفئ البركان بعد؟

قامت مسرعة إلى الاستحمام بعد ما طبعت قبلة على وجهي، أصبت وقتها بخيبة أمل ونشوة في نفس الوقت، كانت قد شغلت تفكيري لفترة وأنا أحاول أن أبتعد عنها، لكنني فشلت ونجحت هي، فسارعت أنا أيضا بالذهاب إلى الحمام المجاور لغرفتي، وحينما بدأت في فتح الصنبور وجدتها خلفي مباشرة.

- ماذا تفعلين هنا؟

- ظننت أنك تريد المساعدة، ألست مساعدة جيدة؟

- أنت مساعدة جبارة.

أجبرت ظهرها على الالتصاق بالحائط، ورفعت كلتا أرجلها بيدي ونهداها أمام فمي، فتناوبت التقاط حبات العنب قبل الانقضاض عليها مرة أخرى، ما قد حل بي؟ وظل الماء ينهمر إلى أن هلكنا تماما، قمت بحملها من حمام غرفة نومي متوجها للباب.

- أين تذهب؟

- إلى غرفتك.

- لا، أريد أن أكون بجانبك على الأقل الليلة.

- قد لا ترتاحين بجانبي؟

- قد لا تستريح أنت؟

- كيف يكون البدر ملازما الأرض ويسخط الناس من ضيائه؟

- شاعر أيضا؟

- الشعر لا يوفيك حقك.

- إنني هالكة فيك إن اعتدت على تلك الكلمات.

نزلت أسفل الغطاء، رفعت رداء الحمام، ونامت عارية.

- ألن ترتدي شيئا؟

- تريد أنت أن أرتدي شيئا؟

فقط رفعت الغطاء ورمت رداء الحمام من يدها بعيدا، ونمنا ننظر إلى بعضنا البعض.

- الحياة في رضاك لها طابع وطعم أخر.

- كيف ذلك الطعم؟

- هكذا... (وطبعت قبلة على شفاهي.)

- ذلك عسل.

- هو كذلك، تصبح على خير. (وأغمضت عينيها برفق.)

فنظرت إلى الحائط الخلفي متمنيا النوم، وجدت صورة أميرة مطبوعة على الحائط.

- تمنيت خيانة زوجتك يوما وأنت منفصل عنها والأن تحبني وما رأيت امرأة إلا وخنتني معها؟

- (بصوت مسموع) ليس بيني وبينك شيء.

أفاقت (فيولا) على كلماتي...

- (طارق) هل من خطب ما؟

- أنا فقط مرهق وأهذي.

- لا عليك. (وضعت ذراعها تحت رأسي)، وقالت:

- كن قريبا مني.

وضعت رأسي على ذراعها وعيني مطلة على صدرها، فوضعت جانب وجهي فوق نهدها ونمت نوما عميقا.

استيقظت اليوم التالي وجدت نفسي في وضعيه الأمس، لم نتحرك، وأحسست أنني اقتربت منها أكثر من اليوم السابق؛ حيث التصق جسدي بها، هي في النهاية هزمتني، لم أستطع التغلب عليها. وأنا في عمق تفكيري، وجدت عينيها ترمقاني بقسوة...

- تريد أن تقوم وتخاف أن توقظني؟

- منذ متى وأنت مستيقظة؟

- منذ حوالي نصف ساعة الآن.

- لماذا لم توقظيني؟

- ما أجمل ما رأيت وأحسست! وأنت لم تترك جزءا من جسدي إلا ولمسته، لا أجد لذلك وصفا، هل أعجبت بي يا طارق؟

- لقد أعجبت بك منذ التقينا أول مرة؛ أحسست بيني وبينك تفاعلا.

- لماذا رفضتني؟

- خوفا من أن أخوض تجربة أخرى لا أقوى عليها، وأنت شخص رقيق جدا، أخاف أن أكسر قلبك، كما كسرت من قبل.

- لا تقلق يا (طارق)، فطريقانا مختلفان كل الاختلاف.

- تطبعين الطمأنينة في قلبي أم تجعلينني أخاف منك؟

- لا تخف، أين تحب أن تذهب؟

- أريد أن أزور مكانا فريد الطابع هادئا، أين نذهب؟

- أعرف مكانا قد يعجبك.

- أين ذلك المكان؟

- في القرية التي نشأت بها (جيثورن)، بلدة ريفية صغيرة، يطلقون عليها (بندقية) (هولاندا)، ما رأيك؟

- ما دمت ترعرعت بها ستكون الأرض خصبة جدا، وعلينا الذهاب إليها.

أحسست بانتشاء؛ وجدت نفسي دون مقدمات أحتضنها من الخلف، وبدون حديث أدارت جسدها معي وكأنها تعلم ما أريد، قربت منها قليلا بأنفاس ساخنة وجسد ملتهب، أتنقل في جسدها كبستان قطفت منه شتى أنواع الزهور، من بين نهديها مرة وحول رقبتها أخرى، كانت تحرك أنفها لتشم جسدي كلبؤة جائعة وقعت بين أنيابها فريسة، لا تهدأ ولا تستقر مكانها، كان لحم جسدها يزيد احمرارا ونضرة تجعلك تريد أن تزيد من ذلك البياض احمرارا، لم نغادر يومها، لم نستطع ذلك، وقد أخذنا وقتنا بهدوء وكأننا زوجان قضينا عمرا سويا، لا أذكر كيف تناولت ذلك الطعام النباتي الذي تحضره بيدها؟ وكيف كانت دقيقة وسريعة في ترتيب المنزل؟ أرسلت لشراء الزهور وملأت المنزل بعبقه.

- ما الذي تجهلين فعله؟

- الكثير.

قلت لها: أهمهم؟

- الحب ...

- كيف ذلك؟

جلست بالقرب مني وقالت:

- إنه كذلك، لا أستطيع أن أحب أحدا، هل تستطيع أنت أن تقود سفينة بحرية عملاقة؟

- لا، ليس تخصصي.

- وأنا كذلك، الحب ليس تخصصي.

رمقتها بنظرة متسائلة أنا نفسي لم أفهمها، لعلي كنت أريد أن تحبني، لقد أثرت فيَّ بشدة، لا أعلم إن كان غرورا أن تجد كل امرأة دخلت معها في علاقة تحبك، أم أنك بدأت تميل إليها بدون سبب؟ أم أنه غرور حب الانتقام داخلك من أحلام؟ تصب غضبك على كل امرأة. لقد كان جمالها صارخا، الذي يدعوك للاحتفاظ به إلى الأبد، لم أتمكن من إبعاد نظراتي عنها كلما تحركت، هل هو المثل الشائع: الممنوع مرغوب؟ أم أنني حقا وقعت في المحظور؟ مر اليوم وأنا تارة أراقبها وتارة تشرح لي كيف أتعامل مع يد التكنولوجيا التي تتوغل كالسرطان في العقول، وتسلب منا أغلب أوقاتنا. أجهل ماذا تقول، لكنها تشرح جيدا أو أعتقد أنني كنت أركز مع كلماتها جيدا. يأخذني الحنين

إليها، أضعها على قدمي وهي تشرح كيف بدأت منذ فترة تؤثر برامج التواصل الاجتماعي على المجتمع وتأثيره على الفرد، الذي خرج من براثن البريد الإلكتروني الذي كان بمثابة الرابط الأكبر بين الأفراد، أما الأن أصبح هناك روابط أكبر بين المجتمعات، قامت بعمل حساب لي على برنامج يدعى (فيس بوك) وأخر قالت لي بأنه أشد أهمية لرجال الأعمال والمهتمين بالسياسة يدعى (تويتر)، كيف كنت أجهل ذلك؟ رغم أنني في الألفية الثانية، إلا أنني إنسان حجري، كيف كنت صباحا أذهب إلى الشركة وأبدأ بالسفر إلى المحافظات لمباشرة الفروع وأنتظر التقارير عبر الإيميل من السكرتارية؟ وأنا أستطيع أن أتجول طوال النهار من خلال مكتبي بالقاهرة في المطاعم داخل وخارج مصر في ثوان معدودة، كيف أراقب أداء العاملين من خلال تعليقات الزبائن على صفحة الفيس بوك، رغم عدم انتشاره بالصورة الكافية بعد على حد علمي، وبما أنني لم أسمع به من قبل فأنه غير منتشر حتى الآن، كنت أحس عندما ألمسها وكأنني لامست أشواكا أو أنني أضع يدي على شيء ليس من حقي، فتتضاعف شهوتي وآلامي حيث إنها لا تكن لي أي معزة خاصة، وأحسست من جانب أخر أنها تقول ذلك الكلام لإرضائي

حتى أستمر بعلاقتي معها، وتعود لي ذاكرتي تغلب على شهوتي تجاهها كلاهما يتشاجران، خير وشر، شهوة وهدوء يتضاربان داخلي ويبدأ الشيطان يتحدث ويقول: أنت تدفع لها ما تأخذ، خذ ما شئت من ذلك الشباب النضر، وإن لن تكن تحبك فأنت تشتهيها، اقطف ما شئت من شجرة التفاح، كل متى تشاء. ويقول الملاك بداخلي: إنها ليست رجولة ما يحثك إليه، حتى إن كانت غانية وتعطيها حقها وتأخذ ما تريد، يرد الملاك: إن كونك أنسانا فقط تستغل احتياج أنثى للمال، فيرد عليه الشيطان: لقد أخذت أكثر من حقها، لقد اشتريت لها سيارة. ويقول له الملاك: إنها أموال حرام، ويرد الشيطان: وما بك؟ هل تصرفها يمينا ويسارا؟ ويقول له ويرد عليه: وهذا؟ ويرد عليه: ذاك. أفقت من ذلك وهي تقول: (طارق) أنت معي؟

- معك أكثر من اللازم.

- ماذا تعني؟

- لدي تحفظ.

- عليَّ أنا؟ ماذا يدور في ذهنك يا (طارق)؟

- على علاقتنا.

- ما بها؟

- أحس بأنني إنسان غير سوي عندما أضع يدي عليك أو أحاول إغواءك وأنت تتقبلين ذلك من أجل شيء أنا أجهله، هل لي أن أعرف لماذا؟

- (وكأن السؤال له إجابة منذ ألف عام) أنتم العرب عاطفيون وأنانيون.

- عفوا؟

- تريد المرأة أن تهيم بك عشقا وفي نفس الوقت إن شئت هجرتها، (طارق) خذ الأمور ببساطة أكثر من ذلك، أنت معجب بي بلا شك، أرى تلك النظرات في عيونك، وإن كنت تريد أن تبعد عيونك عني، تصرفاتك تفضحك، هل هذا به عيب؟

- لا، الإعجاب شيء جميل.

- أنا معجبة بك جدا، حيث كنت أراقب الفتيات وهم داخلون وخارجون عليك ذلك اليوم في المرحاض، وكنت أتمنى أن أكون

منهم، ولكن كان لدي عمل أخر وهو مراقبة (جوفاني)، فلم أحظ بفرصة، هل أيضا الإعجاب عيب؟

- لا.

- فإن ملت علي ووضعت يدك على جسدي وتحسسته بشغف كل دقيقة، هل هذا يعني بأنك تهينني؟ إطلاقا؛ أنت تشبع رغبتي كأنثى بأنني مرغوب فيَّ، حتى بعد ممارسه الحب سويا، تجد في جسدي ما يلهمك للمزيد، وهذا يعطني انطباعا آخر أنثويا بالفخر، فلا تجعل هالات الحب والغرام في القصص تطغى على مخيلتك، وننسى أن الهدف الحقيقي لبقائنا معا هو الشهوة.

لقد أثرت بي كلماتها بشكل كبير، وأفقدتني ذلك التوتر الذي لطالما جعلها أمامي نبتة من نباتات الصبار، فما كان عليَّ سوى أن أرفعها بيدي على الطاولة وأجردها من ملابسها الداخلية بكل قوة، تمنيت أن أفجر بها شهوتي، التصقت بها ووضعت وجهي في صدرها، وهي تقول مداعبة: ماذا تفعل يا مجنون، فقط أنتظر. بأسلوب يجعلني أكثر جنونا من ذي قبل، ارتشفت من شفتيها ما يروي ظمئي، وكأنني لم أمارس معها الجنس من قبل.

- ما رأيك بالإحساس الجديد؟

- لا، إنه أحساس قديم قد انفجر.

فضحكت ضحكة مدوية ذكرتني في لحظة ب(أميرة) ودلالها وضحكتها التي لم تفارق خيالي، ولم يلهب مشاعري سواها إلى ذلك الحد.

جيثورن...

انطلقنا في الصباح الباكر بعد ما أنهيت تمريني اليومي وأنهيت حمامي المعتاد إلى الطريق، حوالي التاسعة، تساءلت في فضول:

– كم تبعد بلدتك؟

– قرابة الساعة والنصف.

– اعتقدت أكثر من ذلك.

– سوف تحبها.

– أكثر من ذلك؟

– ماذا تعني؟

– تكفي أنها بلدتك لأحبها.

لم تمر ساعة وعشر دقائق حتى وصلنا إلى منزلهم، وعرفتني بوالدها ووالدتها، وعرفتهم عليَّ كرئيسها في العمل، قادم للنزهة، وأمضينا يومنا الأول بالمنزل، اعتقدت في الحقيقة أنها صدقت بالفعل، حيث هدوء المكان يتحدث ببديع خلق الله: خضرة أينما

نظرت، هواء رائع، النهر يتحرك من أمامك ومن خلفك، وسيلة الانتقال في البلدة قارب له ماتور صغير لا يخرج أي ضوضاء، تعجبت لشكله الرقيق كيف يدفع الماء!

أحاطت ظهري بذراعيها وقالت:

- بماذا تفكر؟

- أن أكمل باقي حياتي هنا.

- برفقة من؟

نظرت لها ولم أكمل ذلك الحديث، سألتها:

- هل نستطيع تأجير منزل هنا؟

- لأي مدة؟

- حتى تقولي لي: غادر.

وابتسمت ولا أعلم لماذا، قلت ذلك ولا أعلم من خبايا المرأة حينما تبتسم ولا تتحدث ماذا تريد، أو ما رد فعلها الحقيقي!

لا تدري فالمرأة بحر ليس له بداية أو نهاية، ولا يعلم له من شيء سوى رب العزة.

- (ريتا) كيف حالك؟

هكذا بدأت مكالمتي عندما وجدت رقم ريتا يتصل:

- بأفضل حال.

- هات ما عندك؟

- أنا ذاهبة إلى إيطاليا أخيرا.

- مرحى؛ لقد تجددت الدماء في عروقي الآن، وما حاولنا جميعا به لن يضع هباء.

- لا، لقد كنا كالقشة في مهب الريح، ما قمت أنت وحدك بعمله، لن أنسى لك ذلك، لا بد أن تحضر حفل زفافنا في صقلية، أشتاق إلى رؤياكم أنت و(فيولا)، أين هي؟

- في منزل والديها وقادمة حالا.

- قد أسافر الغد أو بعد غد، وأريدها لاستلام زمام الأمور.

– في تعجب! زمام أمور ماذا؟

– المجموعة، فهي من تدير مجموعة الإخوة في غيابي.

– فيولا؟

– نعم.

– ستوافيك حينما تطلبين، لكن ما عمل (فيولا) في المجموعة؟

– ما بك يا (طارق)؟ إنها كلتا ذراعي، ومؤسسة للإخوة.

جلست إلى أقرب مقعد وجدته، ولم أستطيع الكلام سوى في النهاية نطقت كلمة: السلام. وقع الهاتف من يدي وأنا أردد: ليست عاملة؟ ولا سكرتيرة (لريتا)؟ وإنما زعيمة منظمة!

وجدت صوتا خلفي يقول:

– نعم يا (طارق)، هذا ما ترددت في أن أخبرك به مليا وها قد عرفته.

تابعتها تتحرك أمامي بينما أتفحصها جيدا، لقد علمت ماهية (ريتا) وجربت جبروتها وقوه بأسها، لكن أنت أيها الكائن الرقيق كيف؟

– لقد رأيت ذلك الرجل الطيب الذي يجلس خارج منزله ويدخن غليونه بهدوء، هو عراب (جبل الليل) المافيا اليونانية أنا لم أتخرج في جامعة ولم أدخل المدرسة يوما، فلا أعرف معنى للتعليم، فقط القراءة والكتابة، ما تعلمته: رماية، حصر السلاح، عدده وأنواعه، زراعة المتفجرات وتفكيكها باستخدام الدوائر الكهربائية، القناصة ورصد وتحديد الأهداف، استخدام جميع أنواع الأسلحة الخفيفة، والقتال بالسلاح الأبيض.

– من بالمنزل الآن؟

– زوجة أبي؛ لقد توفت والدتي منذ تم حرق منزلنا في اليونان، تعرف لماذا؟ لأنني فتاة ولست صبيا، كيف لعراب (جبل الليل) أن يدرب فتاة على أعمال الزعامة ويطورها؟ كيف تصبح الزعيمة من بعده؟ فقالوا نقتلهم جميعا وننهي تلك القصة، حاولوا قتلنا، لكن كانت أمي الضحية التي وقعت بين براثن خلافات الزعامة بين الزملاء في العمل، وضعف نظر والدي حتى لم يعد يستطيع إعالة نفسه، هل علمت لماذا لا أستطع أن أحب أحدا؟

نظرت لي بعينها ورأيت كما وصف (جوفاني) (ريتا) عند لقائنا الأول بأنها وحش، نوبة من الغضب الاجتماعي، قد أثارت

عاصفة من الحقد على الذكور وجعلها تكره المجتمع الذكوري بالكامل وتتمنى الانتقام منه، وما اعتقدته أنها تظل معي فقط لإرضاء (ريتا) ليس أكثر.

بدت والتوتر يزيد على وجهها والدموع تتزاحم في عينها وبدون زيادة حرف منها، قمت أخذتها في أحضاني وقلت لها:

- أرجوك أن تهدئي، انفعالك أصبح زائدا.

بصعوبة بالغة، استطعت أن أجعلها تهدأ قليلا، قلت لها:

- إن أحببت أن نغادر الآن، لك الاختيار.

قاطعتني بصوت متهكم وقالت:

- أعتذر على ما بدر مني، وأتمنى أن تسامحني. أعلم أن ليس لك ذنب في حياتي، لكن فقدت السيطرة على انفعالاتي.

- لا عليك، أعتقد أن العمل يحتم عليك هجري، فلا تنزعجي لذلك.

- لماذا؟ سوف يأتي المكتب إلى هنا.

فرددت نفس الكلام بتعجب: كيف يأتي المكتب إلى هنا؟

-عندما تغادر (ريتا) ستفهم كل شيء.

بعدها قامت بالاتصال ب(ريتا) ودار بينهما حوار طويل، يتضمنن الأعمال، المال المقترض، العمليات المخطط للقيام بها شهريا، تنظيم جدول المواعيد من خلال جهاز (حاسب آلي محمول) يضم كل الأعمال غير المشروعة التي تقوم بها الإخوة، من تجارة مخدرات، والعمل كوسيط لتجارة السلاح. وعندما أنهت حديثها قالت:

-غدا سوف نذهب بسيارتك ونحضر المكتب إلى هنا، ثم جلست على ركبتيها وأردفت: ما زلت غاضبا؟

- بالطبع لا، فأنت معذورة بما رأيت، لكن لماذا تسلكين ذلك الطريق؟ زهرة شبابك اليانع وجمالك الفاتن، ألا تستطيعين بدء حياة أكتر أمانا واطمئنانا؟

- ذلك الجمال هو الهوية الشخصية للنفاذ من أي موقف قد يعوقني في الحياة، لا تستطيع أن تعرف كم خدمني ذلك المظهر البريء في حياتي.

- لم تقولي لي: ماذا قد تم معهم؟

- للأسف، لقد ماتوا جميعا.

وظلت لفترة عيناها كبرق قادم من السماء في ليلة ممطرة،

لحظات لا تنسى. انطلقنا بأقصى سرعة إلى مطار (سخيبول)، أكثر المطارات قربا من أمستردام، حيث الطائرة الخاصة بالعراب قادمة كي تنقل عائلة (ريتا) إلى إيطاليا، بعد إصدار قرار العفو عنهم.

قلت ل(فيولا) والدماء هاربة من عروقي:

- لم العجلة؟ ما يزال هناك ساعة إلى وقت الإقلاع.

خفضت سرعتها وقالت:

- أعتذر يا (طارق)؛ فهذه طريقة قيادتي للسيارات.

- لقد كنت تقودين برفق عن ذلك.

- عندما كنت (فيولا) تلك الفتاة الرقيقة التي سلبت عقلك، أما الآن فأنا أتصرف بحالتي الطبيعية.

- فقط قفي جانبا إذا سمحت.

- لماذا؟

- أرجوك.

- حسنا.

ترجلت عن السيارة، رحت خلف المقود، وقلت لها:

- انتظري.

وصل عداد السيارة إلى مئتين وثمانين كيلو مترا بالساعة، وتزيد بزيادة الوقت.

- ماذا تفعل يا مجنون؟

- لست الوحيدة هنا التي تقود بجنون.

- الآن لا تريد رخصة؟

- إنني دون في صقلية، ولدي في السيارة رئيسة عصابة الأخوية، وتعتقدين أني أبه إلى سيارات الشرطة؟

- (في إعجاب) أنت تتعلم بسرعة.

- الفضل لمعلمتي.

- كنت أنتظر تلك اللحظة منذ زمن.

انزلقت أسفل المقعد وأرخت حزام بنطالي وأسقطت سحابته، قلت لها:

- يا مجنونه، ماذا تفعلين؟ أنا أقود بسرعة جنونية.

- فقط ركز أنت في القيادة واتركني أستمتع هنا.

لا أدري كيف وصلنا إلى هنا، لكنني حقا فعلتها، فقد كانت أعصابي تتهاوى وتستفيق في الدقيقة مئة مرة، حتى إني لوهلة أحسست أني طائر ولست أقود سيارة.

بعد أن ودعنا (ريتا) مع وعد بحضورنا حفل الزفاف في إيطاليا، حيث إنه يوم سوف تتألق إيطاليا بالكامل لأجلهم، ثم غادرت الطائرة بسلام.

- ماذا تحب أن تأكل.

- أكلك أنت.

- قد يتسمم جسدك!

- وهل تسمم الزهور الأبدان؟

ذهبنا إلى المنزل لإحضار بعض الأموال، وجدت حقيبة الحشيش، فوضعت بعضا منها في حقيبتي؛ لقد اشتقت له فعلا، خرجنا من المنزل حيث ننتظر السيارة الأخرى، وقالت:

- هيا بنا.

- أين السيارة؟

- ها هي.

أعطتني بطاقة تعريفية باسمي مكتوب عليها: (طارق الدمنهوري) مراسل صحفي، وأعطتني بطاقة هوية هولندية بها نفس الاسم والعمل ورخصة قيادة مركبات، كانت سيارة من سيارات المراسلين الصحفيين، في قمة السيارة نوع من أنواع باعث الإشارة التي يستخدمها المراسلون الصحفيون، لكنها أكبر قليلا من تلك التي تستخدمها الصحافة.

عندما عدنا إلى البلدة، وأنا في انبهار شديد قلت لها:

- ما هذا؟

- هيا، في الداخل سوف تفهم كل شيء.

صعدت بها، وجدت ثلاثة مقاعد خلف شاشات تليفزيونية من الطراز القديم، وجميعهم مرتبطين بكاميرا تصوير احترافية، وبعض مكبرات الصوت وسماعات الأذن بميكروفون، ثم أردفت:

– إنها شبكة قناة تليفزيونية خارجية.

– نعم، ولكن خارج تلك السيارة، ذلك الجهاز للاستقبال وليس للإرسال.

– تلك الشاشات ليست قديمة؛ إنها خصيصا من أفضل

شركات تصنيع الشاشات في العالم وتقنيتها عالية الجودة.

– جيد جدا، ماذا تفعلين بكل ذلك؟

– غدا مساءً، شاشات التليفزيون والكمبيوترات التي أمامك ستصنع معجزات، ابق معنا. (وضحكت)

فقلت لها مازحا ونحن نسير سويا عائدين إلى المنزل:

– آه، أتمنى أن يكون هناك سيارة داخل المنزل.

– لماذا؟

- لأقودها بسرعة جنونية.

- فهمت قصدك، حسنا، قبل إن نبدل ملابسنا دعنا نشاهد أسلوب قيادتك.

- معي رخصة الآن.

- حقا!

وخيم الليل علينا.

استيقظت من الصباح الباكر إلى المساء في التجهيز للعملية، وتشغيل أجهزة التنصت، والتدقيق في المواعيد، ورصد كاميرات مراقبة وتحليل، أحاديث وردود من أشخاص في محل صغير لتلميع الأحذية. في ذلك الوقت وأنا جالس إما معها أو أدخن بعضا من الحشيش خارج السيارة، وليس لدي ذرة خبرة واحدة عما يحدث.

في نصف ساعة فقط، عملية اقتحام لأحد محال الأحذية لإحضار مقبض درج المكتب العقيم الخاص بإيرادات ذلك المحل، وأنهت المحادثة بينها وبين ثلاثة أفراد من المقتحمين بكلمات غير مفهومة تماما.

حيث قالت:

- أرسل الطرد مع الأطفال للمنزل، تحياتي.

- كل تلك الأهمية لإرسال طرد لمنزل؟

ضحكت من قلبها وقالت:

- هل تجد ما أفعله مرهقا؟

- بكل أمانة؟

- نعم.

- أرسليني وأحضري لي مفكا صغيرا وسأحضره لك دون عناء.

علت ضحكاتها في نشوة فائقة بسلسلة ضحكات مميزة أصدرتها من القلب، وقالت بجدية:

- (طارق) إذا كان هناك أحد يهددك بشيء ما، وواضع ذلك الشيء مع تنين مجنح، كيف تحضره؟

- رغم أن التشبيه غير عقلاني، لكنني سوف أحتاج جيشا لإخراج ذلك الشيء.

– هل تعلم كم شخصا نفذ هذه العملية؟

– نعم، ثلاثة.

– خطأ؛ لقد نفذ تلك العملية عشرون شخصا ولست أنا من ضمنهم، الجميع يتحدث معي إن طرأ شيء وأنا أعطي الأوامر وخطة التنفيذ. أما عن الطرد فقصته كالآتي: بعض الحكومات تحتاج لمن يقوم بدلا منها بأعمال غير شرعية، وإن تم أي خلل تنفي علاقتها بالموضوع، وأما الطرد؛ اتصلت بي أحد المؤسسات العسكرية تبلغني أن هناك طردا داخل أحد المنازل الآمنة مخفي، يحميه ثلاثة من رجال المخابرات على أعلى مستوى تدريب حتى يتم بيعه بمبلغ كبير جدا لتلك الدولة، فنأخذ نحن مبلغا صغيرا، نتعقبه، نجده ونرسله.

– تقصدين أن ذلك الإسكافي الذي تراقبينه من أول اليوم هو ضابط استخبارات ومن معه؟

– نعم.

– عمل موفق، وكم سعر ذلك الطرد؟

– طلبت عشرة وتناقشنا في ٢، يتبقى ثمانية مليون يورو.

- عمل يوم بثمانية مليون يورو؟ مربحة طبعا.

- بالطبع لا؛ أنت لا تعلم كم أجر الثلاثة المقتحمين يكلفني، والعدة المستخدمة والاتصالات والتأمين، نحن نتعب جديا بدون مقابل.

- بدون مقابل؟!

نظرت لي وابتسمت، ثم أغلقت السيارة وقالت:

- هيا بنا، لقد جهزت لك مفاجأة.

- ماذا؟

- أرسلت السيارتين إلى مصر.

- السيارتين؟

- نعم.

- لماذا؟

- سوف نستعمل سيارتي.

- أي سيارة؟

- التي كان يتحرك بها (جوفاني).

- تلك سيارتك؟

- لا، إحداهم فقط.

- وأين السيارة الآن؟

- في الطريق، ستكون هنا بحلول الصباح.

- حسنا، سوف أتصل بالمحامي وأرتب معه.

- من؟

- (فوزي) المحامي الخاص بي.

يرن الهاتف النقال فارد عليه، يأتيني الجواب: وما فائدة تلك الصداقة إن لم تتصل تسأل عن عرابك؟

- (جوفاني) (وداخلي تملؤه البهجة) كيف حالك؟

- بخير ما يرام، كيف حالك أنت؟

- كل شيء بعدك ممل، عدا وجود (فيولا) في حياتي.

- من (فيولا)؟

- قصة طويلة.

- وأنا أحب قصصك يا صديقي، سوف أرسل لك الطائرة خلال أسبوع، لا تتأخر.

- لا أستطيع التأخر عن عرابي، وأيضا طائرة؟ ذلك كثير.

- لا شيء كثير عليك يا صديقي، لن أطيل عليك، انتظر مكالمة من الطيار، اتفقنا؟

- حسنا، في انتظاره وأغلقنا الهاتف على وعد بلقاء بعد أيام.

على مدار يومين لم نخرج من المنزل سوى بالنظر إلى الشاطئ والعودة إلى الداخل، حكينا كثيرا سويا وفي إحدى لحظات التجلي وأنا أمازحها سألتها: ألا تذهبين إلى الكنيسة يوم السبت وتتضرعين إلى الله أن يرزقك بشاب وسيم مثلي؟

نظرت لي مصححة المعلومة وقالت:

- المعبد وليس الكنيسة.

توقفت ابتسامتي فجأة وكأنني أرسم على شاطئ البحر قصرا من رمال متخيلا أنني باستطاعتي أن أسكن فيه فتأتي موجة قاسية

تطيح بذلك القصر الذي شيدته ووضعت به أحلامي جانبا مرة أخرى. عدت للحياة وهي تقول لي: (طارق)، (طارق). حاولت تمالك نفسي وقلت لها:

- ألم تقولي: معبد؟ هذا يعني أنك هندوسية أو بوذية؟

قالت وهي تضحك تلك الضحكة وكأنها تجامل طفلا صغيرا قال لها نكته ولا تريد إحراجه:

- بل يهودية.

ازدادت ابتسامة وجهي وكادت تلتصق بأذني إثر الكلمة، لكنني حاولت قدر المستطاع أن آخذها ببساطة متناهية، لثلاث مرات يحاول فمي إخراج الكلام، لكنني أعود أسكت مرة أخرى دون مبرر واضح لذلك، قالت:

- هل أكلت القطة لسانك؟

- لماذا؟

- أراك لا تستطيع الكلام!

أحسست أنه قد بُنيَ حالا جدار سميك بيني وبينها، حاولت جاهدا الخروج من تلك الأزمة بانتصار، قلت:

– هل تذهبين إلى المعبد وتدعين الله أن يرزقك بأي شاب محترم؟

– (طارق)، أرجوك خذ الأمور ببساطة أكثر من ذلك، إن مشكلتكم مع صهاينة إسرائيل، أما باقي يهود العالم المنتشرين في الأرض أغلبهم لا يهمه ما يدور في الشرق الأوسط تماما، فلا تجعل أي شيء يؤرقك.

لم تمر تلك المعلومة منها لذهني على خير، بما أنها ذكرت أن الكثيرين لا يعلمون ماذا يحدث هناك، لكن ما يهمني الآن أنها تعلم، وأعتقد أنها تعلم جيدا، نظرت إليها نظرة تحدٍ وقلت لها:

– أنا لا أسأل الآن عن سياسات أو حروب، أنا أسأل عن شيء آخر تماما، هل لديك إجابة عنه؟

نظرت لي نظرة تنمر، قالت:

– وهل يحلم شاب مثلك بالزواج من فاتنة مثلي؟

- لا طبعا، فقد تغير الحال منذ زمن.

- ماذا تقصد؟

- متى آخر مرة نظرت في المرآة؟

قالت بغضب:

- لماذا؟

- تلك التجاعيد التي ظهرت على وجهك ورقبتك.

بحركة لا إرادية وضعت يدها على رقبتها، وقامت مسرعة تنهال عليَّ بالضرب من كل اتجاه، وأنا أهرب منها ونجري خلف بعض في الحديقة، تعثرت وهي تجري خلفي منذرة بقتلي، حاولت أن أعود أدراجي وألتقط يديها، ولكن فات الأوان؛ قد سقطت على الأرض وانحنيت خلفها مستلقيا بجانبها نضحك على ما قلنا، اعتدلت من نومي على الأرض

لأنظر إليها وأقول:

- أتمنى أن أراك في سن السبعين، لأنه حتما سوف يزداد جمالك جمالا.

تلاشت ابتسامتها من وجهها وقامت مسرعة داخل المنزل، ذهبت خلفها مسرعا حتى أرى ماذا جرى...

- (فيولا) هل ضايقتك بشيء؟

نظرت لي وقالت:

- ألسنا أصدقاء؟

رنت الكلمة في أذني وكأنني أسمعها بأذن (سوشين)، التي أرادت بشتى الصور إرضائي، ولكن كانت إجاباتي لها جافة، وتصرفاتي معها خالية من العاطفة، رغم تظاهري دائما بلطف معها، ولكن كنت أنانيا لأبعد الحدود وقاسيا، لم أجاوبها وهممت واقفا متجها إلى شرفة المنزل المارقة للحديقة، التفت لها بينما أنظر لعينيها وقلت:

- لا، للأسف لسنا أصدقاء، ولن نكون يوما.

ظل نظرها عالقا بي لدقيقة مثلا، قامت واقتربت مني مسرعة وفي غصون ذلك كنت أتقدم نحوها أيضا مسرعا والتفت ذراعي حول خصرها وتشبثت بذراعيها حول رقبتي، لا أعلم من ينهال على الآخر بالقبلات، وكأن شفاهنا صديقان يتقابلان بعد عمر

من الاشتياق، فما زالت شفاهنا تعانق بعضها البعض، ووجدتها تدفعني إلى الأرض وتفترش جسدي كوسادة، وعلى صدري تتمايل برأسها وكأنها تمسح وجهها في جسدي، لا ندري إذا كان الجيران معنا أم أننا وحدنا، فقد كانت مشاعرنا ما يحركنا، وبغض النظر عما علمت، وجدت نفسي أنجذب لها، رغم علمي بأن ارتباطنا يوما من سابع المستحيلات إلا أنني تيقنت أنني أحمل لها ما لم أستطيع حمله ل(سوشين) ولا لأحلام، وأن الأيام القادمة سوف تحدد ما عليَّ وما أستطيع تحقيقه فعليا.

توقظني بدلال غير معهود وعلى وجهها ابتسامة عريضة وتقول:

– هيا يا (طارق)؛ سوف أتأخر على العمل، أحتاجك في تلك المداهمة.

تحجرت عيني عليها، قلت:

– ماذا أعرف أنا عن المداهمات؟ أنا رجل طعام ولا علاقة لي بذلك.

قالت بدلال: أرجوك، لأجلي يا حبيبي.

– ماذا قلت؟

قالت: ماذا قلت؟

– قلت: حبيبي.

ترددت في كلماتها وصرخت:

– نعم، إنها كلمة دائما في فمي، وغالبا ما أقولها لمساعديَّ لا أكثر.

– مساعديك، تقولين لهم: حبيبي؟

ابتسمت ابتسامة ماكرة وقالت:

– نعم.

قفزت من السرير واقفا وقلت لها:

– ما هي طبيعة ذلك العمل؟ وما عليَّ أن أفعل؟

– كل ما عليك أن تراقب الطريق لمنفذي العملية وتدلهم على الاتجاهات المؤشرة بالخريطة حتى أعود.

– ماذا تقولين؟

- لديَّ لقاء مهم لا بد أن أذهب حالا، فهيًا لتقم بتجهيز عملك.

- لن أستطع عمل ذلك من دونك.

- لا، أنت تستطيع.

لن ترتجل شيئا، والخطة بالكامل منتهية، وبعد إرشاداتك سأتابعهم على هاتفي، لا تقلق؛ عملك لا يتعدى النصف ساعة كحد أدنى.

- وكحد أقصى.

- ساعة.

- كثير، كم سأتقاضى على عملي هذا؟

- اليوم طوال الليل سوف أضمك بين ذراعي.

- حسنا، اتفقنا، سأخرج من الحمام وأكون جاهزا.

تناولت فطوري بعد الحمام وخرجت لها حتى أستلم عملي الجديد، وجدت كل شيء مهيأ لي، قبَّلتني وهي تقول:

- لقد تأخرت كثيرا، أنا ذاهبة.

– ماذا أفعل؟

– لقد شرحت لك قبل ذلك، دلهم على الطريق المرسوم بالخط الأحمر.

تركتني أواجه ذلك العمل وحدي وهربت، لكن لا بأس، وكأنني أعمل في مطاعمي وأعطي التعليمات، أفتح عيوني وأراقب الجودة في المطاعم، وكله عمل إشراف، فلا يهم إن كان نادلا أو طباخا أو سارقا؛ الكل سيان وقت العمل.

أمسكت السماعة وتأكدت من تشغيل الميكروفون، ثم بدأت أقول:

– "بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين" صباح الخير للجميع.

نظر شخص بتعجب وأمسك هاتفه مقربا إياه لوجهه وهو يقول: صباح الخير!

نظر شخصان مدججان بالسلاح لبعضهم البعض وقالا: صباح الخير (بدهشة)!

وآخر جالس في متنزه ويضع سماعات رأس، قال: من هذا؟

من أنت؟

قلت لهم بكل حماس:

- معكم (طارق الدمنهوري)، ونبدأ العملية بإذن الله، أكرر: الطريق مفتوح من جهة اليمين، عند العد ثلاثة سوف نبدأ بالتحرك.

يهمهم أحدهم: العد لثلاث؟ هذه جديدة!

تتحرك (فيولا) باتجاه النهر حيث يقف شخص ما من بعيد وتتلفت يمنة ويسرة ثم تذهب إليه.

يدير اللورد (عيسى) ظهره ويلتفت ل(فيولا) قائلا:

- (فيولا) ابنتي، كيف حالك؟

ابتسمت بتواضع ووضعت عينها في الأرض، ثم قالت:

- بخير يا لورد (عيسى).

- (بتعجب) كيف تقعين بخطأ كهذا يا (فيولا)؟

- أي خطأ؟

- كيف تديرين عملية على قارعة طريق عام؟

- لقد كنت داخل السيارة فقط كنت مع ...

قاطعها بحزم شديد:

- مع (طارق)، ماذا فعل ذلك الشاب بكم؟ هل به سحر ما أنا لا أعرفه؟

- إنه شخص طيب القلب، وشاب رائع.

- لأول مرة أجدك تتحدثين عن شاب أساسا، ماذا فعل طارق يا ترى؟

نظرت إلى الأرض وقالت:

- إنه فقط ضيف (ريتا) وأنا لا أستطيع أن أرفض لها طلبا.

- هراء! هذه ليست (فيولا) التي أعرفها، بغض النظر عن أنني أرى أمامي عاشقة، إلا أنني أردت أن أراك وأقول لك إن خطتك قد راقبوها وعرفوا من وراءها تماما، وقد تكون حياتك في خطر، أعتقد أنه لا بد أن تتواري قليلا الفترة القادمة، ولا أعمال في قارعة الطريق، اتفقنا؟

- لا تقلق سيدي، وأشكرك على القدوم بنفسك لتنبيهي.

– كنت أتمنى أن أرى (طارق) أيضا، ولكن وقتي ضيق هنا، أين هو (طارق) الآن؟

العملية...

- أحسنتم جميعا، وأشكركم على حسن التعاون.

آخر ما نطقت به وأنا أنهي العمل المكلف لي، وكانت لحظات ممتعة حين بدأت هذا العمل الرائع.

سمعت صوت (فيولا) تقول:

- ماذا فعلت؟

- لقد أتممت العمل المطلوب على خير ما يرام.

- نعم أعلم ذلك، هل تعلم كم اتصال تلقيت حتى الآن من المجموعة؟

- كم اتصال؟

- ما يقرب من أحد عشر اتصالا، حتى الآن.

- لماذا؟ هل أخطأت بشيء؟

- لا، يريدون أن تعمل لصالحهم وليس لصالحي، تلقي الفكاهات المرحة، تهتم بمشاعرهم، وتقول: أشكرك وصباح الخير وأحسنتم،

الكثير من التحفيز وذلك نادر في إطار عملنا، أن يلقي أحد دعابة، أو يتمنى حظا موفقا في سرقة.

– صدقيني، ما زال أمامكم الكثير لتتعلموه مني.

– حقيقي، أنت الآن لديك ثلاثة عروض لمجموعات إن لم تعمل لصالحي.

ابتسمت لها برفق وبدأت ألمس يدها:

– ألا تفكرين في شيء أكبر من العمل؟

ترددت في ابتسامتها بينما ظهر عليها علامات القلق وقالت:

– سوف نرسل السيارة إلى أمستردام، وأعتقد أن عليَّ الذهاب للعمل نهارا والعودة ليلا.

تبسمت في عجرفة وقلت لها:

– نعم، تخافين الآن مني أن أتزعم المجموعة ويتم طردك، لا تخافي، سوف أجد لك عملا أهم من ذلك.

قالت بغضب وملامحها قد تبدلت:

– ألا تفضل المرأة العاملة؟

أمسكت وجهها وقلت لها:

– أفضلها بأي وضع إن كان اسمها (فيولا).

أين نأكل اليوم؟ أنا أتضور جوعا، هيا بنا.

– ما رأيك في الأسماك والقشريات؟

– كنت سأقول لك ذلك الآن.

وخيم علينا الليل في أجواء شاعرية، أراقبها في صمت، تنظر لي، وتقول:

– ألا تتوقف عن الحملقة فيَّ قليلا، وتأتي هنا لنرقص سويا.

– هل ستعلمينني الرقص؟

– رجل أعمال كبير ودون مهيب في الكوزا نوسترا، وعضو بأهم المنظمات في أوروبا، ولا تعلم كيف ترقص؟

– حياة الجريمة والأعباء المتراكمة على عاتقي لم تسمح لي بتعلم الرقص.

– (في تعجب) ماذا تستطيع أن تفعل؟

قلت لها وأنا أقف متجها نحوها بسرعة وهي تجري من أمامي:

– أشياء أهم من ذلك بكثير.

ارتميت عليها وسقطنا أرضا، وقبلتها قبلة طويلة، يكاد الليل يطلع عليه الصباح وهو يرانا نقبل بعضنا البعض.

شمس مشرقه وصباح جميل، لم أجد (فيولا) جانبي، ذهبت لأبحث عنها في كل مكان، لم أجدها؛ من الممكن أن تكون ذهبت للاطمئنان على والدها وسوف تعود أثناء تمريني.

وجدت باب المنزل يغلق بعنف و(فيولا) تدخل سريعا إلى الحمام، لم أكترث وأكملت باقي التمرين حتى أنهيته، ذهبت أتفقدها، وجدتها تجلس على سرير النوم وقد تغير لونها من الأبيض إلى الأصفر، قالت لي: (طارق)، وابتسمت ابتسامة باهتة تخلو من البهجة التي تحاول أن ترسمها على وجهها:

– لدي عمل هام في (أمستردام) وسوف أعود بعد ساعات قليلة، لا تتحرك من هنا؛ سوف آخذ سيارة والدي الخاصة.

- عمل بتلك الأهمية؟ هل أحضر معك؟

- لا، لا يصلح ذلك الآن تماما، استرخ وخذ حمامك الساخن سوف تجدني أمامك، اتفقنا؟

وأعطتني قبلة سريعة، ثم أردفت: لن أتأخر، اتفقنا؟ وذهبت بسرعه حتى إنني لم أستطع قول شيء.

ألم يعتصرها، وتحاول أن تركب السيارة بسرعة حتى تداري دموعها المنهمرة، لقد كانت تنتظر تلك الكلمة أن يرددها طفل يقول لها: (أمي)، نعم لقد حلمت بذلك الحلم المستحيل في ظل عملها البشع إلا أنها الآن ذاهبة لإجهاض ذلك السد الذي جعل ارتباطها بشخص لا يثق بها ممكنا، وإن تركت ذلك الطفل تعلم بأنها تقضي على أحلامه وهي لا تريد ذلك من كل قلبها، أخذت تبكي وتكاد ترى الطريق بعينها، وكلما زادت دموعها زاد ضغطها على ضاغط الوقود.

هل لتلك الدرجة أصبح وجود امرأة في حياتي شيئا مهما؟ لكنها ليست أي امرأة؛ إنها قطعة من حوريات الجنة تلهبك وتشعلك وتطفئ نارك في وقت واحد، سيدة أعمال وربة منزل رائعة،

إنسانة قوية تتحمل معك آلام الحياة، وفوق كل ذلك زعيمة عصابة، وما كانت لتحضر بكل ذلك الجبروت لولا أنها تحبك، تلك الكلمة جعلتني آخر، قاعد على حافة السرير لأجد أمامي شيئا قد رأيته قبل ذلك، ولا أتذكر، لكني أعرفه جيدا، هل كما أظن أم أنه ليس كما أظن؟ مسكته بيدي، نعم هو مؤشر تحليل الحمل، هل هذا معقول؟ بالطبع لا؛ إنه غير معقول، كيف حدث ذلك؟

حتى ولو حدث، لن يظهر الآن، بحثت عن هاتفي، اتصلت بها وأنا في حالة ذعر، لماذا بعد ذلك التحليل تهرع إلى "أمستردام"؟ بالتأكيد هناك سر.

يرن جرس الهاتف منذ زمن؛ أريد منها جوابا على سؤالي.

- ألو (فيولا)، أين أنت؟

تحاول أن تخفي نبرة صوتها قدر المستطاع، ركنت السيارة جانبا وقالت: كل شيء بخير.

- خففي من سرعتك، لا أستطيع سماعك، الهواء شديد، هل ما أعتقد صحيح؟

- ماذا تعتقد؟

- هل أنت حامل؟

- لقد عرفت، أنا ذاهبة لإجهاضه، إنه بالتأكيد من رفيقي السابق، لا تقلق.

- وإن كان مني أنا؟

- مستحيل أن يحدث ذلك بهذه السرعة، لا تقلق ليس ابنك.

- هل هذا قرارك؟

- لا أستطيع أن أتخلى الآن عما وصلت له، لا تقلق استرح وأنا قادمة.

أغلقت الخط معها، قلبي يقول: هناك شيء غير سليم، وأخاف أن أصدق وهمي فيصير حقيقة وأندم.

خيّم المساء بخيوط الليل، تنسجها الشمس عند مغيبها، وكأنه ليل حزين، لم أستطع التفكير حتى في طعامي وشرابي، فقط جلست أدخن غليوني غير مبال بشيء، وماذا إن كان ذلك الجنين طفلك؟ هل تركتها لأنك متأكد بأنها لا تخصك كليا؟

أم أنك إن حدث شيء سوف تضع رأسك في الرمال؟

- ذلك اللعين يجعلني أفكر كثيرا، ماذا حدث لي؟

انتهى ذلك الحشيش الذي في جعبتي وذهبت لأحضر المزيد، ينادي صوت ما خلفي يقول:

- مستر (طارق)؟

استدرت بلطف وعيناي مغمضتان تماما، قلت له:

- نعم، إنه أنا.

- نريد لحظة من فضلك.

- تحت أمرك، ما الخطب؟ هل أساعدك بشيء؟

- أستأذنك لأخذ أقوالك في جريمة قتل.

نظرت له وأنا أعتقد أن الحشيش قد وصل لمنتهاه، وقد بدأت في الهلوسة:

- أي جريمة؟ وماذا تقصد؟

قال لي بأسلوب عزاء:

– نحن علمنا أنك كنت تقضى أيامك الأخيرة مع القتيلة هنا في هذا المنزل، وقد ذهبت صباحا بسيارة والدها.

– عمن تتحدث؟

– الآنسة (فيولا ميلانو).

وكأنني سقط على رأسي أمطار عرق جعلت جسدي يتجمد من فرط ما أحسست به من فزع ورهبة، استأذنت من المفتش حتى أغير ملابسي وأذهب معه إلى المخفر.

أدليت بشهادتي وأنا في ذهول، حاولت سؤال الضابط المختص عما حدث، قال لي:

– من المحتمل أن يكون حادث دفع للسيارة لتنفجر

بذلك الشكل لولا اكتشاف المحققين وجود مادة (تي إن تي) في السيارة، حيث وضعت لها.

– كان بسياراتها ديناميت؟

– لا، هذا خطأ شائع؛ هناك فرق بين (التي إن تي) والديناميت يا مستر (طارق)، (التي إن تي) بنزين حلقي مع مجموعة ميثيل،

بالإضافة إلى النايترو المسئولة عن الخواص الانفجارية، أما الديناميت فهو نايترو جلسرين مخلوط بمادة تجعله يستقر داخل أنبوب، وإذا قلنا من الناحية العملية فإنه عمل احترافي وقد اكتشفته الكلاب أولا، ثم قمنا بمسح السيارة بتلك الحساسات البصرية، ومن ثم تأكدنا من ذلك، وأتمنى إن تكون إجاباتك كلها واضحة وصريحة للغاية حتى نتمكن من استبعادك، حيث هناك شهود بأنك كنت متواجدا مع القتيلة خلال الأيام القليلة الماضية.

في حالة ذهول قلت له:

- نعم، إنها صديقة عزيزة، قمت بالاتفاق معها عند لقائها في أحد المقاهي أن ترافقني في زيارتي حتى يتسنى لي التجول في البلد وزيارة معالمها، فأحضرتني إلى تلك البلدة الجميلة، كقضاء وقت ممتع.

نظرت إلى الضابط وسألته: أين الجثة؟ هل أستطيع أن أراها لآخر مرة؟

- جثة؟ عن أي جثة تتحدث؟ لقد صارت أشلاء صغيرة حيث الأسرة لن تدفن سوى بقايا.

اعتصرت قلبي كلماته وأحسست بدمعة فرت من عيني رغما عنّي، وكأنها تريد الهروب، لا إحساس نهائيا بقدمي سوى أنني أستطيع فقط النهوض والتحرك، أشار إليَّ أحد الضباط وقال لي:

- أين تحب أن يقلك الشرطي؟

- بصوت منخفض يفتقد للقوة، إلى نفس المكان من فضلك.

أوصلني الشرطي إلى أقرب طريق للمنزل، حيث السيارات لا تدخل القرية، وهناك مسافة من موقف السيارات إلى المنزل، حاولت الذهاب إلى والدها حيث يسكن بالقرب منَّا، وجدت فقط زوجه أبيها، قالت لي:

- لقد استلم بقاياها وذهب إلى اليونان ليدفنها.

- كيف تم ذلك بكل هذه السرعة؟

- إنها مجرد بقايا ليس إلا، عندما بلغه الشرطي صباحا بالأمر ذهب لمكان الحادث وحتى لم يأخذ حقائبه وأغراضه معه إلى هناك.

فسألتها:

- هل لديك عنوان لهم؟

- لا.

تلقيت العديد من الاتصالات من (ريتا) و(جوفاني)، للاطمئنان على حالتي، حيث سوف يرسل لي (جوفاني) طائرته الخاصة، حتى تقلني إلى حفل الزفاف الذي تم تأجيله ثلاثة أيام حتى تنتهي (ريتا) من فترة الحداد على (فيولا)، تشتت الإحساس والانفعال لديَّ حتى أصبح كل شيء من حولي باهت اللون، إن كانت تحدثت معي ولو قليلا كان من الممكن إن يكون من حملت به ولدي أو ابنتي، وقد ماتت بعدما وافقتها على الذهاب لإجهاض الطفل، هل يعقل أن أكون قد قتلت طفلي بغير وعي؟

لم أجد السبيل لوحدتي سوى الاتصال بأمي، والتحدث إليها بعد السلام والتحية والسؤال عن صحتها، سألتها:

- يا أمي، كم أخذت من الوقت حتى علمت أنك حبلى بي؟

استغربت أمي من السؤال كثيرا، وقالت:

إنها لا تتذكر كيف كان إحساسها، وإنني كنت الطفل الوحيد ألذى أنجبته، وإنها تعتقد أنه من بعد أسبوعين أو أكثر من زواجها بوالدي قد ذهبت لطبيب النساء وأخبرها بأنها حامل، وقد يأخذ الموضوع وقتا أطول للبعض لا أقل من ذلك.

ربما كان الطفل ليس لي؛ لقد كانت أول ممارسة لنا على الأقل منذ خمسة عشر يوما فقط، لن يكون أي شيء قد ظهر، وأخذت رأسي تدور في دوائر لا حصر لها، هل قتلت ابنك؟ هل كانت هي حزينة؟ أم أنها أرادت التخلص من الطفل وتركت الذنب على عاتقها حتى لا أشعر بالذنب؟ يجعلني أفكر كثيرا وأنا وحدي وأرى مشاهد منذ وقت وقوع الحادث، هل يمكن أن يكون ذلك؟

لا أستطيع تمييز الألوان، فقد كانت بهجتي، وليست كأي بهجة؛ تضفي على المنزل روحا لم أجدها في أنثى،

لم أتمكن من العيش مع الوضع أساسا، أخذت أمتعتي وشرعت في الذهاب إلى منزل (أمستردام)، وعند خروجي من القرية في محاولة لالتقاطي أي مواصلة، حيث أجهل تماما سوى سيارات الأجرة، وجدت سيارتها واقفة على بعد من موقف السيارات، وكأنها كما تركها (جوفاني)، وكما قالت لي إن السيارة سوف

تحضر غدا، اقتربت من السيارة وكأنني أتحسسها بشوق يقتلني، وقلت وأنا أنظر فيها وأسألها: لماذا أخذت سيارة والدها وتركتك، لماذا؟ وبعد دورة كاملة حول السيارة، وجدت المفتاح داخلها، وملتصق به ورقة صغيرة تقول: (طارق) تركت لك السيارة إذا ما أردت التنقل، بكيت وكأنني أتعرف على الدموع لأول مرة، نزعت تلك الورقة ووضعتها في محفظتي، أدرت المحرك وذهبت وأنا تحت تأثير المخدر وليس لديَّ رخصة قيادة، سرت في طرق خاطئة ولم أبال، لم أكترث لشيء وأعتقد لم تعد البلدة تكترث لي. وصلت أمام المنزل ولم أكترث إن كنت ركنتها بالفعل أم لا، جلست داخل المنزل لا أريد الخروج، فقط الغليون بفمي أدخن الحشيش، وأنزل إلى الغرفة السرية أتذكر ما حدث بها، ثم أخرج أتجول في أرجاء المنزل. أعود إلى غرفة الخطر مرة أخرى، إذ وجدت هاتفي يرن، لقد كان الطيار الخاص ب(جوفاني) يبلغني بحضوره، وأنه في انتظاري. حينما أردت المغادرة، ارتديت ملابسي وأنا في بطء لم أعهده من قبل، ذهبت ووضعت بعض المال في حقيبتي وأعددت ثيابي. تركت كل شيء كان يخص (فيولا) كما هو، لم أحرك شيئا من موضعه.

أغلقت البيت وأشرت إلى سيارة أجرة، قلت له:

- المطار من فضلك.

أنهيت إجراءات المغادرة من صالة كبار الزوار، ثم اتصلت بقائد الطائرة، قال لي: هناك سيارة ليموزين منتظرة باسمي. صعدت على متن الطائرة، كانت أكبر من طائرتي بكثير وبها بعض المسليات المختلفة: شاشة ضخمة وشاشة أخرى للألعاب وبار كبير ملحق به مطبخ لعمل المأكولات البسيطة. نظرت إلى كل ذلك وأنا أراها وكأنها تسافر معي، لم أتحدث إلى أحد، ولم أتعامل مع أحد؛ إما نائم أو شارد، لقد كانت

الرحلة طويلة لدرجة أنني مللت، وذهبت إلى ذلك البار، قلت للمضيفة:

- ما لديك؟ أريد أن أنام.

أحضرت لي كوبا من الفودكا، فشربته، وضعت الكوب، فأحضرت غيره، فشربته، أربع مرات على هذا الحال، فقلت لها:

- متى تتوقفين؟

- عندما تقول: توقفي.

- حسنا، توقفي.

وبالعكس بقيت مستيقظا لا أدري لماذا! رغم أن عيني تثاءبت. أخيرا وصلنا، لا أعلم كيف ذهبت أغراضي إلى مروحية خاصة! ومنها إلى قصر عائلة (جوفاني)، من الوهلة الأولى اعتقدت أنني في أحد الأفلام السنيمائية القديمة، بذلك الثراء الفاحش، واعتقدت أنني سوف أجد كل من يقابلني يرتدي الشارلستون والبذات ذات الألوان البراقة، هبطت الطائرة ورأيت من بعيد (جوفاني) و(ريتا) تمسك بيده، ما إن اقتربا أخذ (جوفاني) بيدي ليلقي التحية، وجاء دور (ريتا)، بكيت ومن فرط رهافة الموقف، بكت هي الأخرى إلى أن وقعت على الأرض من فرط الإعياء، لي حوالي ثلاثة أيام لم أنم، وفجأة أردت النوم للأبد.

استفقت في صباح اليوم التالي، وجدت بجانبي ممرضة، هرعت إلى الباب تجري حينما أفقت، وجدت (جوفاني) بجانبي بعد دقائق معدودة، وهو يقول:

– ماذا حدث يا صديقي؟ لقد طارت عقولنا حينما رأيناك، أعلم أن الصدمة كانت ثقيلة عليك وعلى (ريتا) أيضا، فكما تزعم أن (فيولا) كانت أقرب لها من أخت.

لم تفت الثواني حتى وجدت (ريتا) قادمة وعيناها تملؤها الدموع، قالت لي في إعياء وهي تمسك بيدي:

– ليس الذنب ذنبك يا (طارق) صدقني، ليس الذنب ذنبك، هيا قم معنا.

أشارت للتمريض أن تزيل ذلك المحلول الملحي من يدي حتى أتحرك، قمت معهم وذهبت لزيارة الدون (جبرائيل)، جلسنا في حديقة واسعة جدا.

في الحديقة، بدأ جوفاني حديثه قائلا:

– الطبيب قال إنها صدمة نفسية أثرت عليك، وكمية المخدر في جسدك كادت تودي بحياتك، ماذا كنت تحاول أن تفعل يا (طارق)؟

نظرت إلى (جوفاني) وعيني يملؤها الدموع:

– كانت الوحيدة التي انتويت أن أطلب يدها للزواج يا (جوفاني)، كنت أفكر في تحطيم التقاليد والتعاليم التي تربيت عليها في سبيل أن تقبلني.

ردت (ريتا):

– وهذا كانت سوف ترفضه يا (طارق)؛ لأنها لا تستطيع الزواج بمسلم.

– على الأقل كنت سألتها لتجيب: لا. لقد ذهبت الآن.

– هوّن عليك يا (طارق).

– هل كان لها صديق قبل أن أعرفها؟

فقالت (ريتا):

– لا؛ (فيولا) لا تندمج في أي علاقة بسهولة، إلا إذا كانت تميل للشخص، وليس لها تجارب أيضا كثيرة؛ كان العمل شغلها الشاغل.

فدمعت عيني من جديد، وقلت لها:

– قالت لي (فيولا): إنها ذاهبة لإجهاض طفل من حبيبها السابق.

فاتسعت عينا (ريتا)، و(جوفاني) أغمض عينيه ونظر إلى الأرض، وأغمضت عيني ونظرت إلى السماء تاركا وجهي لأشعة الشمس وأنا أحاول السيطرة على نفسي، فقامت (ريتا) من مقعدها وقالت لي: هوّن عليك يا (طارق).

انسابت الدموع من عيني دون إرادتي، فاحتضنتني (ريتا) ومسك (جوفاني) بيدي وأنا أبكي، وأظلمت الحياة في عيني أكثر فأكثر.

احتفلنا بزواج العراب في زفاف مهيب، يكتظ بأصحاب البذات العسكرية والسيارات الحكومية والهيئات السياسية، ولها طابع إيطالي خاص، حيث كان العازفون أوركيسترا وليس فريقا، وأيا كان المطرب تعزف الأوركيسترا ألحانه. في لحظة صفاء وقت الغداء، سألت (جوفاني) باهتمام:

– أين اللورد (عيسى).

- إن له أهمية دولية ولن يستطيع الظهور في هذ الكم من الناس، قد وعدنا أن يزورنا لاحقا وسوف يتابع تأمين الزفاف بنفسه من خلال كاميرات القصر، لذا في أي كاميرا تنظر لها تستطيع إرسال تحياتك له.

مر يوم يقال حقا إنه من ألف ليلة وليلة، ولسوء الحظ لم يشهد دون (جبرائيل) ذلك، لأنه وللأسف أصبح ميتا سريريا، وفي انتظار إما أن يكتب له عمر جديد، أو يقوم الأطباء بنزع تلك الأنابيب والخراطيم، ويكف فريق من الأطباء عن متابعته، وفريق تمريض عن الاعتناء به. وأظن أن (جوفاني) لن يقوم بنزع الأجهزة والأسلاك.

كنت قد حددت موعد رحيلي بعد الزواج مباشرة، وها أنا راحل إلى حيث أكمل ما بدأته، لكنني لست الشخص الذي خرج من (مصر) منذ بضعة أشهر تماما.

ارتديت تلك البذلة السوداء التي حضرت بها زفاف (جوفاني) وأنا ذاهب، حيث وجدت الجميع يرتدي البذات ولا أحد منهم يرتدي الجينز أو الكاجوال، وانتقيت رباط عنق أنيقا من غرفة

العراب، حتى أذهب بها، حيث طلبت من كابتن (مروان) موافاتي في إيطاليا، حتى آخر محطة من رحلتي.

دق الباب وسمحت بالدخول لمن يقف خلفه، الخادم في هيبة بالغة يبلغني قائلا:

– الدون (طارق)، المروحية ستكون بانتظارك بعد عشرين دقيقة.

فشكرته وأشرت له بالانصراف.

أخذت حقيبتي وقد صارت كل ما أملك؛ بها كل ملابسي، وبها أموال وبها مخدرات، وبها كل ما أريده، فقط في حقيبة ظهر، استعجبت من تدابير خلق الله؛ منذ سنة فقط من كان يقول لي أنني سأتجول بحقيبة تحمل على الظهر، كنت طلبت له مستشفى الأمراض العقلية من دون تفكير. حينما وصلت إلى المروحية وجدت بداخلها(ريتا) و(جوفاني)، فتهللت أساريري رغم ما أنا عليه.

– لماذا جئتم؟

– حضرنا لتوديعك، والمروحية سوف تعيدنا مرة أخرى إلى قصر الجنوب.

كان لوجودهم الأثر الطيب في نفسي، حيث كانت أحاسيسي متضاربة، حتى إنني فكرت مليا في الرجوع مرة أخرى إلى (القاهرة)، رغم إقناعهم لي بأن السفر الآن أفضل بكثير من العودة للوطن، وأن أحاول أن أنشئ مجتمعا جديدا من حولي. حين وصلنا إلى المطار كان كابتن (مروان) بانتظاري، حينما هبطت المروحية قدمت التحية ل(جوفاني) و(ريتا)، ظلا متعلقين بي كأب يترك أبناءه ويسافر، وهو يرمقني بعينيه منذ هبط من الطائرة، عاقدا حاجبيه ووجهه عليه علامات القلق والبلاهة، ووجد أحدهم يأخذ مني جواز سفري وأوراقي لينهيها وحارسا شخصيا يحمل لي الحقيبة، وأرتدي صدرية واقية من الرصاص، وبذلة يبعثرها هواء المروحية، وتبرز المسدسات العالقة تحت السترة، حتى وصلت إليه:

– مرحبا يا (مروان)، ورددت بسرعة: التغيير مطلوب، أليس كذلك؟

– نعم صدقت، مطلوب.

– سنبدأ الرحلة عندما يحضر جواز سفري.

- ألن أحصل على إذن الإقلاع؟

- تستطيع الإقلاع عند وصوله، لا تقلق؛ فإن صاحب المطار هو من كان معي، وقد قال لي أذهب على بركة الله، سوف تنتظر الطائرات هنا حتى نغادر أولا.

- حسنا.

وعاد إلى كبينته، وجد البرج يطلب منه المغادرة وقتما يشاء، ابتسم في بلاهة وقال:

- الجواز حضر يا مستر (طارق) ونحن مغادرون.

- على البركة.

بدلت بملابسي ملابس رياضية، وتركت زوج الأسلحة معلقا في أحد الأركان، وجلست بحرية شديدة، نظرت للطائرة وقلت: لا، لا، إنها تكفيني وأكثر.

لم أتوقع أن يكون تأثير موت (فيولا) قد حطم الكثير بداخلي حتى إنني أستغرب نفسي عندما أنظر إلى المرأة، كادت تنسيني ما هربت من مصر أساسا بسببه.

البرازيل...

مطار (ريو دي جانيرو)

"سانتوس دومونت"

نظر لي سائق السيارة الأجرة وقال:

- مرحبا، أهلا بك في البرازيل.

ألقيت عليه التحية وقلت:

- أقرب فندق إذا سمحت.

- غني أم متوسط أم متواضع؟

- وسط، ويكون مريحا، أرجوك.

- أول مرة في البرازيل.

- نعم، إنها الزيارة الأولى.

- سياحة أم عمل؟

- عمل.

حتى لا أظهر أمامه بمظهر الزبون الذي يريد إنفاق أمواله على الخمور والنساء.

- ذلك الفندق أسعاره متوسطة وخدمته ممتازة، أتمنى أن تجد راحتك عندنا.

- آسف جدا؛ هل تقبل العملة الأوروبية؟

- لا مانع.

بحثت في الحقيبة وأردفت:

- هذا يكفي؟ وأعطيته خمسين يورو.

- إنا في خدمتك دائما يا سيدي إن أردت أي توصيلة، فقط قل للمكتب الأمامي: اتصلوا ب(ريكو).

فشكرته ورحلت.

فندق جميل، لا بأس به تماما، رغم أنه لا يحمل أي إبهار تماما، إلا أنه يفي الغرض، لا مزيد من حياة الترف؛ مللتها. أُخرِج من جيبي الهاتف؛ أقوم بمشاهدة الصور واحدة تلو الأخرى، ثم وضعته جانبي، ونمت.

استيقظت صباحا وسألت عن الإفطار، قالوا لي: السابعة والنصف إلى التاسعة في مطعم الفندق، وحسب رغبتك تستطيع الاتصال بخدمة الغرف للإفطار إن أردت، مع إخبارهم بفاكهتك المفضلة.

وصلت إلى مطعم الفندق، التاسعة إلا عشر دقائق، وجدت الإفطار كما هو، اعتقدت أنه لا يوجد نزلاء بكثرة في هذا الفندق، فسألت النادل:

– هل هذا الموسم ليس للسياحة؟

– السنة كلها سياحة يا فندم.

– ألا يوجد أحد هنا؟

– مهرجان "كراميلا" قد بدأ أمس وجميع النزلاء نيام، لذلك أطلنا فترة الإفطار، وسوف يستمر المهرجان أربعة أيام أخرى.

شكرته على المعلومة، ثم تناولت فطوري وذهبت إلى المكتب الأمامي، سألت:

– هل يوجد مكتب للصرافة قريب.

– هنا لدينا تحويل عملات، كم المبلغ المطلوب؟

– ١٠ آلاف يورو.

– اعذرني لحظة.

فأشرت لها بامتنان، أحضرت مديرها، قال:

– أهلا بك يا مستر (طارق)، أتمنى أن تكون سعيدا بإقامتك معنا.

– أشكرك.

– سعر الصرف اليوم ١٢,١٢.

– جيد، لا مانع.

– دقيقة واحدة من فضلك.

أخذ المبلغ وبدّل لي المال، سألته عن أحد موزعي الخدمات.

- أريد شراء بطاقة اتصال وطنية.

- نهاية هذا الطريق يوجد مركز خدمة به مركز عملاء (أوى) تستطيع إحضارها منه هناك، وتعتبر من أفضل الشبكات لدينا.

شكرته وذهبت بعدما أخذت بطاقة للفندق، حيث إنه فندق صغير وإن ضاع اسمه من ذاكرتي سوف أتعذب.

عندما خرجت وجدت مظهره مميزا، تجولت في المكان، البلد جميل ومميز ورائع، ومشهد مهيب لتمثال المسيح يبدو واضحا وهو على قمة الجبل، وسلاسل من الجبال بمشهد رائع، ارتاحت له نفسي قليلا، من ذلك الاكتئاب المسيطر عليَّ، الشاطئ يعج بالناس رغم برودة الجو، الجميع رياضي، وإذا دخلت أزقته فالجميع بدين وسمين.

حين عودتي تجولت على الشاطئ قليلا، وأنا أتناول عصير جوز الهند، جلست على مقربة من شخص يبدو زيه كأزياء سكان الأرض الأصليين، بعض الريش على رأسه، يتقلد العديد من الحلي على رقبته، ويرتدي ريشا كثيرا أسفل ذلك البنطال القصير ألذى يرتديه من الجينز، فوجدت العديد من الناس يتهافتون عليه،

يجلس معهم قليلا، يعطونه المال ثم يذهبون، والغريب أن البعض لا يتحدث معه إطلاقا! انتهزت فرصة تواجد الكثير من الناس وذهبت كي أشاهد ماذا يفعل، وجدته يقوم بصناعة وبيع الغليون للمارة، نعم، فقط غليون، يصنعه بيده على هيئة أشكال غريبة ومميزة، ووجدت البعض يقولون له على الأشكال التي يحبذونها: فتاة ملقاة على ظهرها أو صقر أو طائرة أو أي شكل تتخيله، يستطيع نحته. فنان بحق؛ لا يأخذ منه الغليون أكثر من دقيقة، فنظرت له وسألته:

– كم شكلا لديك؟

لم يفهم تماما، انتظرت حتى يأتي أي شخص آخر يتكلم الإنجليزية، وفدت عليه مجموعه فسألتهم بالإنجليزية وسألوه، ضحك وقال:

– الآلاف.

– بكم القطعة؟

قالوا: يبيعها بعشرة ريالات، وإن كنت ستأخذ أكثر، يقلل من سعرها.

فقلت لهم: ترجموا له أن يصنع لي مئة وبنفس السعر.

فتهللت أساريره وأخذ يقفز في مكانه برقصات وطنية وقال لي كلمات لم أفهمها، جلست بجانبه وبدأ يصنع واحدة تلو الأخرى، وفي أثناء عمله، هتف مناديا على طفل يسير في الطريق يبدو مألوفا له، أعطاه ٥ ريالات وذهب الفتى، ثم شرع مرة أخرى في أعداد الباقي، حضر الفتى وفي قبضته قطعة ألمونيوم صغيرة، نظرت للطفل وهو يأخذ منه ريالا بشغف ويذهب، ونظرت مليا له وهو يخلط دخانه بذلك المسحوق الأخضر، أشاح لي بواحدة مما صنع بيده،

وضع فيها بعض التبغ وبعضا من ذلك التبغ الأخضر، وأعطاني قداحته، سألته مشيرا بيدي:

- ما هذا؟

قال لي بطريقة بها بعض الهذيان:

- مارجوانا.

- مرحبا بعودتنا.

لم أعرف لماذا تقبلت تدخينها أساسا، ولم أبد أي رفض لذلك، وهو جالس يكمل ما بدأ والسيجارة في فمه، والغليون بيدي منذ أول استنشاقها، وجدت ألوان الدنيا تغيرت، وسرحت بخيالي بعيدا جدا أيام الطفولة والتخرج، أعتقد أنني تذكرت أجمل أيام في عمري، ورغم ذلك أحسست بخمول شديد وإعياء فجأة، وضعت يدي أسفل رأسي ونمت، لا أعلم كم مرَّ عليَّ من وقت حتى استيقظت، وجدته يهمهم بكلمات بها فرح، وأعتقد أنه اعتقد أنني توفيت.

وجدت بجانبي علبة من الكرتون بها كل الطلب، وأشكال متعددة، هل نمت لفترة طويلة جدا؟ أم أنه شيطان وأنجز المهمة بسرعة؟ أعطيته ألف ريال، وحاولت سؤاله من أين يحضر تلك المارجوانا، لكنني فشلت، فأشرت له بأنني سوف أحضر مرة أخرى، ذهبت إلى الفندق، وضعت تلك العلبة وذهبت إلى المطعم، حيث إنه موعد العشاء. لقد نمت طويلا، اكتظ المطعم بالرواد حيث الجميع شبه عاري، اعتقدت في البداية أنهم قادمون من السباحة مثلا، فسألت النادل:

- هل اليوم يوم السباحة؟

– لا، إنهم يستعدون للسير في الكرنفال، ما طلبك سيدي؟

– هل لديكم بيتزا؟

– نعم.

– بالمحار والجمبري من فضلك.

بعد انتهاء وجبتي ذهبت خلف هؤلاء القوم لعلي أجد ملاذا من ذلك الملل الذي انتابني، ما تزال ذكرى (فيولا) مسيطرة على مخيلتي بالكامل، أحس باحتياجي العارم للبكاء الشديد، من حين لآخر، وأدفع نفسي بين الناس بالقوة، أحاول التأقلم على فكرة أنني أريد الاختلاط أكثر فأكثر، ذهبت إلى شاطئ (ريو دي جانيرو) أنظر إلى الجبال بعد المغيب، والأضواء المتلألئة في قلب الجبال، عرض عليَّ أحدهم مشروبا بثلاثة ريالات، فأخذته منه وشكرته، كان ذلك ماء شعير، كانت قارورة كبيرة جدا حيث لم أستطع إكمالها للنهاية. الجميع يرقص على طبول دقاتها في كل مكان، الجميع شبه عرايا، وفتيات السامبا يتجولن بذلك الرداء الريشي المزخرف، أنظر إليهن وإن كانت عادات وتقاليد جميلة، لكن بات كل شيء بالنسبة لي عاديا ولا يوجد انبهار، أحسست

بحنين جارف للرجوع إلى تايلاند لآخذ (سوشين) بين ذراعيَّ وأبكي.

وجدت أمامي مجموعة من الفتيان ذوي الشوارب واللحى الطويلة، يركنون أجسامهم القوية على دراجاتهم البخارية، فواتتني الفكرة، حيث لم أتذكر أين شاهدت تلك اللقطة، في أحد المسلسلات الأمريكية منذ زمن، أحضر مبلغا من المال، وأدخل عليه: مرحبا يا صديق، وأُعطِه مئة ريال، ثم يخرج كيسا به مارجوانا، هكذا تتم الصفقة، بكل ثقة دنوت من أحدهم وقلت:

- مرحبا يا صديق.

أشار بوجهه علامة على السلام، دسست له في يده مئتي ريال، ونظرت له فنظر لي بقوة وأشار بدون حديث بوجهه: نعم، فأخرج من جيبه كيسا به مسحوق أبيض ودلقه في يدي، قبل أن أدخله في جيبي نظرت له حيث من المفروض أن يكون حجمه أكبر من ذلك، وجدت به مسحوقا أبيض، صرخت من شدة الفزع:

- ما هذا؟ كوكايين؟

أشار بيده: اصمت، وبصوت خافت قال:

- هيروين.

- كنت أبحث عن المارجوانا.

نظر لي متحدثا بالإنجليزية، قال:

- بمئتي ريال تريد مارجوانا؟ "وضحك"

- نعم.

- إذن سوف تأخذ كيسا كبيرا، لن تستطيع السير في الطرقات به.

- لا أكترث.

فنظر لي من أسفل إلى أعلى وكررها، قال:

- أنت شخص مهم؟

- لا، شخص خطير.

نظر لي وقال باستهزاء عارم:

– ما دمت خطيرا إلى ذلك الحد، ومعك أموال، فقط استنشق نصف هذا، وخذ بالباقي مارجوانا، سوف تكون سعيدا، لا تقلق، هيا.

أخذ مني الكيس، وأنا شخصيا متردد؛ يدي ترتعش وكأنني دخلت إلى ثلاجة منذ ساعة، ازدادت ابتسامة وجهه في زهو وهو يقول:

– خذ لا تخف؛ أنت إنسان خطير جدا.

وضعه على يدي، فاستنشقته دفعة واحدة، وأخفى ذلك الكيس المفتوح ووضع في يدي كيسا كبيرا به مرجوانا وقال:

– أراك لاحقا.

سرت في الطريق لا أعلم ماذا حدث، لا أدرى لماذا فعلت شيئا أنا أمقته طوال عمري! ولا أحبذ فعله، لكنني فعلت وتجرأت، يمكن أن أكون لا إراديا أنتقم من نفسي لتركي (فيولا) وإحساسي بالذنب، وبدأ ذلك الإحساس يتلاشى، وحضر إحساس آخر مخيف، إحساس بالعظمة يفوق كل التخيلات، فقد صرت طائرا مثلا، أحسست بتلك الأجنحة تنبت خلف ظهري، وصرت أجري مع الكرنفال، أضحك وأنا أرى نفسي أطير في كل الأرجاء،

والناس تنظر لي باحترام مبالغ فيه، وكأنني ملكهم وهم الرعية، الجميع يضحك ويبتسم وأنا أبتسم لهم بكل فخر، حتى إن بعض الفتيات كن ينظرن لي وأدين التحية الملكية، فهززت لهن رأسي، وفي قبضة يدي وجدت فتاة بدأت أرقص معها، نظرت إلى وجهها فوجدتها (فيولا) والدماء متناثرة على وجهها، وتقول لي: لقد مت وابنك في رحمي، وتضحك، أهرب منها، لأجد (سوشين) تأخذ يدي وتقول بكل حب: أما زلت تريد أن تهجرني؟ فتظهر علامات الغضب على وجهها وتتغير ملامحها لغضب، واحمرار وجهها يقارب الانفجار، أجري وألهث في طريق طويل، أجد فتاة وحدها في الطريق وسكت كل شيء من حولي، تنظر لي وتقول بهدوء: أما زلت تلهث خلفي؟ وسوف تظل، خذ تلك القبلة علّها تكون الأخيرة، أتقدم منها لآخذ قبلتي، تصير دخانا في يدي، ولا أحصل على شيء، أسمع صوتها من بعيد يردد: استمر بالعدو ولا تقف استمر، لعل وعسى تجد من يدلك عليّ. أصرخ: حسنا، دليني عليك. ولم يعد أي شيء لحاله.

استيقظت من نومي فوجدت أنثى تنام بجانبي وتحتضني بقسوة، كانت غرفة صغيرة ذات سرير واحد، وبها مروحة حديدية قديمة،

يبدو أنها من مخلفات الحرب العالمية الأولى، ويبدو أن العنكبوت قد بنى صرحا من القرن الماضي، نظرت إلى الفتاة، أيقظتها وسألتها بقسوة:

- كيف حضرت إلى هنا؟ ومن أنت؟

همهمت بكلمات لم أفهمها، وشرعت في ارتداء ملابسي، وإنا أتحسس بنطالي وأقول:

- ما هذا؟ المحفظة؟ إنها هنا، كيف ذلك؟

لم أتمالك نفسي وأنا أصيح، وأصرخ في وجهها:

- أين المحفظة؟

وجدت أحدهم يدخل الغرفة، ويحاول أن يلكمني في وجهي فردعته، وقلت له بالإنجليزية:

- أرجوك لا تحاول مرة أخرى.

لكنه انقض عليَّ بجسده كله، تفاديته حتى إنه توجه برأسه إلى التلفزيون الموضوع أمام السرير، سقط على الأرض من أثر الصدمة، ودخل غيره فعلمت أنه لا مفر من القتال، أخرج مدية

من جيبه، فتحها بشغف للقتال، وجدت صوتا أنثويا حازما يأمره بالتوقف، نظرت له وقالت بعض الكلمات بالبرتغالية لم أفهمها، فأعدل عن التأهب وخرج ليقف خارج الغرفة، صرخت في وجهي بالبرتغالية وقالت كلاما كثيرا لم أفهمه تماما، فقلت لها بالإنجليزية:

- مهلا، إنا لا أتحدث البرتغالية أساسا.

- أنا لا أتحدث إليك أيها الغبي.

- الزمي حدودك.

- ولم لم تلزم أنت حدودك؟ غريب ورحبنا بك، لم الشذوذ في التعامل؟

- أي شذوذ؟

- لم تحاول ضرب الفتاة؟

- أنا لم ألمسها.

فقالت لها بالبرتغالية وبأسلوب منفعل:

– هل أصابك بسوء؟

– لا، فقط لم يجد محفظته فجن جنونه.

– طبعا.

نظرت لي وقالت:

– ما اسمك؟

– (طارق).

– تعال معي، لولا أنني نسيت أن آخذ حقيبة يدي، لكنت الآن في عداد الأموات.

– أشكرك.

– نحن لا نسرق أحدا، قبل خروجي مع أحد الزبائن أمس، حضرت وكانت حالتك صعبة للغاية، حتى إننا لم نستطع فهم لغتك، وأشرت إلى تلك الفتاة وأخذت تردد: (فيولا)، اعتقدت أنك هندي في بادئ الأمر، لكني علمت أنك عربي، لأنك تحدثت كثيرا بالعربية، فوضعت محفظتك، وبعض من مخدراتك في الأمانات، نحن لا نسرق أحدا؛ يمكننا خداعك في الفتاة التي

تطلبها بعدما تسكر أو نزيد علبة أو علبتين من المشروب على الفاتورة، إنما نسرق لا.

نظرت لها باندهاش وقلت:

- كل ما قلتِه هذا ليس سرقة؟

- نعم، تلك ضريبة السعادة.

- شكرا، أستأذنك؛ أنا ذاهب.

- لأين ستذهب؟

- إلى حال سبيلي.

- وتلك الفتاة؟

- هل آخذها معي؟ أنا لم ألمسها.

- ألم تقض الليلة بين ذراعيك؟

- نعم.

- تدين لها بليلتها مئة وخمسين ريالا.

- حسنا.

– وتحطيم الغرفة مثلهم.

فنظرت باندهاش وتساؤل وقلت:

– هم من تهجموا عليَّ سيدتي، قد حضرت طلبا للحرية واللقمة الحلال، فلا تحمليني أكثر من طاقتي.

– تريد لقمة طيبة وتشرب الكوكايين؟ أعطني ثلاث مئة ريال حالا.

– حسنا، حسنا، فقط اهدئي.

مثلت دور العاطل الذي يبحث عن عمل، لعلي أجد لذة في هذه الحياة البعيدة عن المال والراحة والرفاهية،

قلت لها باستجداء:

– سيدتي، ألا أجد لديكم عملا؟

نظرت لي من أسفل لأعلى وقالت:

– أي عمل؟ وما هو عملك؟

– أي شيء سيدتي: نادل، أو أنظف طاولات.

– مظهرك لا يؤيد ذلك، دعني أرى شيئا لك.

– أشكرك سيدتي.

– أستطيع تأمين عمل لك، لكن مع أول بادرة مخدرات، ستطرد، فهمت؟

– حسنا، ما اسمك سيدتي؟

نظرت لي من أسفل إلى أعلى مرة أخرى ثم ابتسمت في بشاشة وقالت:

– (ليلى).

ثم عقدت حاجبيها وكأنها انقلبت إلى شيطان وقالت:

– إنما مع الزبائن اسمي (نتاشا).

رغم عدم تقبلي في قرارة نفسي بأن من تبحث لي عن عمل غانية، إلا أنها كانت أفضل دافع لي لإنهاء أحزاني ونسيان ما أنا هنا بصدده، أعطيتها رقم هاتفي على أمل لقاء قريب.

رن هاتفي وأنا في الفندق، فتحت على صوت أنثوي يتحدث بصرامة:

- (طارق) أين أنت؟

- أنا قريب سيدتي.

- وجدت لك عملا عند صديقه لي، تعمل بمكان أكثر وقارا من الملهى الذي قابلتني به نهارا، مطعم وملهى ليلى، سوف أرسل لك العنوان في رسالة نصية، اذهب واسأل على (باتشي)، وقل لها: أنا صديق (ليلى).

قلت لها:

- أشكرك جدا يا (ليلى).

- لا، سوف تشكرني عندما تدعوني إلى وجبة من "ماك" من أول راتب، اتفقنا؟ وأغلقت الخط.

طوال الطريق وأنا أفكر بأنني طوال حياتي أحب رؤية الإعجاب في عيون الناس، أحب أن أكون مميزا في المعاملة، أحب أن يقول لي الناس: نتمنى أن نشبهك، رغم نجاحي في العمل وجدت أنني لم أصنعه، لكنني أفعل الشيء الأصعب، أحافظ على النجاح الذي بدأه والدي، لكن كانت شخصيتي مهزوزة، وأعتمد على أنني أمتلك وأنني السيد. دخلت المكان؛ مطعم أنيق جدا،

سألت عن الآنسة (باتشي)، إنها فتاة صغيرة، عمرها لا يتعدى الثالثة أو الرابعة والعشرين، إنها جميلة وليست غليظة كما (ليلى)، بدأت (باتشي) بالتحية، سلمت عليها، فقالت:

- تعال خلفي.

دخلنا إلى مكتب الأستاذ (إدوارد).

نظر لي وقال:

-(باتشي) حدثتني عن ظروفك ومعاناتك هنا، ورغم عدم وجود إقامة، ودخولك بتأشيرة سياحية، سوف تعلم أنه في حال انتهائها وعدم وجود أي إقامة لك، سوف أضطر إلى تسريحك، اتفقنا؟

- اتفقنا.

- حاول تعلم اللغة، لأنك سوف تجد الكثير من العراقيل في هذه البلاد، رغم جسدك القوي وسمار بشرتك الذي يوحي بأنك فتى سامبا، هيا يا فتى السامبا، أريد عملا.

الآن وبعد شهرين وجدت عملا ما، وصرت من الكادحين، في أحد نوادي ريو الليلية، إن عظمي اللين قد اشتد أما جرحي لم

يلتئم بعد، لدي زملاء نتحدث في خطط مستقبلية، ولدي أحلام اخترعتها في رأسي، يعرفني الجميع باسمي الحقيقي وقصتي، ولكن أسقط منها أنني فاحش الثراء، اعتقدت أن نزولي بفندق فخم قد يثير تساؤلات زملائي في العمل، حينما يسألني أحد: أين تقيم؟ أحاول التملص منه، وأقول له: إن محل إقامتي سر؛ لأنه متواضع وغير مشجع للبوح به، حتى وانتني الفكرة أن أستعين ب(ليلى) في ذلك الأمر، حتى أجد مسكنا متواضعا أقيم به، فشرعت بالاتصال بها، لتحل تلك المسألة، فقد توطدت علاقتنا في الآونة الأخيرة حين انتظمت في العمل، هاتفتها:

- ألو (ليلى)، مساء الخير، لدي مشكلة في السكن الذي أقيم به حاليا.

- ماذا يا (طارق)؟

- هل تستطيعين تأمين أي محل إقامة، حتى أجد شيئا آخر؟ لقد طردني صاحب المخزن الذي كنت أقيم به، وقال لي إنه سوف يؤجره، ولا مأوى لي الآن.

- أرسل لك عنواني وسنجد الحل.

ذهبت لها بحقيبة ظهري، قالت لي في تهكم:

- أهذا كل ما تملك؟

- نعم.

- ضع أغراضك في الداخل، وأنا ذاهبة للعمل، ولا تحرك شيئا من مكانه حتى أحضر وأرتب لك فرشتك.

- حسنا.

دخلت ومعي المفتاح أنظر إلى البيت؛ عبارة عن حجرة ومطبخ وحمام صغير الدش مع القاعدة، لكن ألوان الحائط والأثاث وكل شيء أنيق للغاية، تليفزيون عتيق لكن جمّلته بمفارش زاهية، رغم صغر المكان لكنها جعلته تلك العقربة جنة. كان يوجد في قاع الحقيبة قرابة المئة ألف ريال نقدا، لا أخاف أن تراهم (ليلى)، فبهذه الشهامة قد أدفع مقابلها الكثير، وإذا لم تكن مطمئنة لي وأنا شحاذ، ما كانت آوتني في منزلها، وتركت لي مفتاح ما تملك وهو بيتها، الذي يتحمل شخصا واحدا حتى أزيد من أعبائها أعباء.

اتصلت بي وقالت:

- أنا قادمة في الطريق.

- وأنا بانتظارك.

وجدتها قادمة تحمل مرتبة صغيرة الحجم، قالت:

- لماذا أنت هنا؟

- خفت أن ألوث المنزل؛ فملابسي غير نظيفة.

- بما أنك سوف تقيم معي وأنت تعمل نهارا، وأنا أعمل ليلا، فقط عليك غسيل الملابس كل يوم، الغسالات والمجففات أسفل ذلك المبنى، أما عن الطعام فلك ما شئت أن تأكل، أي شيء إذا وجدته، هذا إذا وجدته، اتفقنا؟

- أنا ممنون لك لاستضافتك لي.

- ذلك مؤقتا حتى نجد لك مأوى.

- حسنا.

وبمرور الأيام كانت علاقتنا تتوطد أكثر فأكثر، يوما ما قلت لها:

- هل هذا العمل مؤقت أم أنها رغبتك؟

نظرت لي وقد جرت على أحد خديها دمعة، ثم راحت تمسحها بسرعة وقالت وهي تنظر لي:

- بالطبع رغبتي، ألم تر أني امرأة لعوب؟

وأخذت تجري خلفي في الغرفة، دفعتني للحائط وأخذت تقبل وجهي وصدري وكأنها حالة اغتصاب، ضحكنا مليا وفي قرارة نفسي أعرف أنها ليست الحقيقة، قلت لها وفوقي تمثال للسيدة العذراء يتدلى من يدها صليب:

- قولي الحقيقة أمام العذراء.

فتوقفت وقالت لي ما حدث بينها وبين زوجها وكيف هي ضعيفة أمام جبروته، لا تستطيع عمل شيء سوى أنها علمت أنه يريد الزواج بأخرى، في النهاية، لعلها عندما تتذوق آلام القرب منه قد يشفى غليلها، لكن الآن هي عاجزة عن صنع أي شيء، وما يؤرقها ويبث الآلام في صدرها، فراق أولادها، حتى إنها لا تملك صورة لهم. قلت لها:

- ألم تحاولي الذهاب لهم المدرسة لتتفقدي أحوالهم؟

– حاولت، لكنه أخذ إقرارا من المدرسة أنه إذا تم ذلك، سوف يحملهم مسئولية فقد الأولاد، وطبعا إدارة المدرسة تعلم أنه سيئ السمعة ويستطيع تهديدهم بما يشاء، هيا فلنعد العشاء؛ (باتشي) على وصول.

– وأنا عليَّ المشروب.

– من أين لك المال؟

– ألا تتذكرين أنني أعمل في أفخم نوادي ريو وزبائنها أمراء لولا ذلك (الإدورد) اللعين ينظر لأيدينا بما نأخذ من بقشيش.

– حسنا، اذهب ولا تتأخر.

ذهبت وأحضرت الجعة (انتركتيكا)، المفضلة لدى (ليلى) و(باتشي)، وسهرنا يومها حيث لا عمل لنا اليوم التالي، جهزت الطاولة بثلاثة مقاعد في مدخل المنزل، جلسنا نحتسى الجعة ونتحدث، أحيانا يضيع مني التعبير بالبرتغالية، فأبدأ بلغة الإشارة، حتى قالت (باتشي):

– أنت جيد جدا يا (طارق)، في خلال شهر استطعت أن تلفظ الكثير من الكلمات.

- أغلبها سهل وبسيط ولا يحتاج لتعقيد.

- هل كنت تحب زوجتك؟

فنظرت لها ولا أعلم ما الذي ذكّرها بها الآن؟

قلت لها مازحا بابتسامة خبيثة وأنا أنظر لليلى:

- ما هذا الإحراج؟ لو أن هناك رجلا يحب زوجته ما كانت (ليلى) وجدت عملا.

فضحكنا جميعا، وحاولت الإفلات من هذا السؤال بأنني في الحقيقة لم أفكر يوما أنني كنت أحب أحلام أو لا.

قلت لها:

- وماذا عنك؟

تلعثمت وهي تبدأ قصتها قليلا حتى تبين أن الذكرى فقط وحدها تبدو مؤلمة جدا، لم ترحمها الظروف، بسبب وفاة والدها المهندس المرموق، بسبب إدمان الكحول حين طفح كيله من كثرة العلاج وعدم تقدم حالته الصحية، انتحر بسبب قلة المال، حتى تدهورت الحالة المادية من سيئ لأسوأ، فراحت تعمل نادلة في الملاهي

الليلية والبارات، مضايقات الزبائن، وعرض المال عليها لم يجعلها تضعف ولا تنجذب للعمل الجنسي مقابل المال، كانت تعيش في إحدى البنايات الفارهة في ريو دي جانيرو، إلى أن اضطرت لبيع ما تبقى لها، وتسكن في أحد أزقه كوبا كابانا، وضعت مالها في البنك حتى يدر عائدا لها، بخلاف العمل، تنتظر أحد أقاربها، لإيجاد عمل مناسب لها في إحدى شركات شبكات المحمول. ومن هنا خطرت لي الفكرة وكانت رائعة، لماذا لا يكون لي مطعم هنا؟ نعم هنا، ما الضير في ذلك الأمر؟

رغم أنه لم يمر على وجودي في "البرازيل" إلا شهور، فقد وجدت أنها أرض خصبة للاستثمار، وبما أنني اكتسبت

الأصدقاء والحياة التي لم أتخيل أن أجدها في بلدي، ولا أجدها أبدا في وسطي المرموق، فقد كان ليصبح حاجزا كبيرا بيني وبينهم الآن إذا تبين لهم أنني ذو نفوذ قوي ولي من المال ما يجعلهم لا ينظرون في وجهي مرة أخرى،

وجدت مأوى متواضعا وبفضل المال الذي ما يزال في الحقيبة ولم أمسه حتى الآن، إلا في المواقف الحرجة جدا، إلا أنني أردت أن أجعل منه جنة صغيرة كتلك التي تملكها (ليلى)، حيث

إنني أعربت عن إعجابي بمنزلها، وحينما يكون لدي منزل، سوف أجعله يشبه منزلها، بما أنني كنت مشغولا ليلا أمام حاسوبي، أباشر المطاعم، فكلما أنظر لذلك الحاسوب أتذكر (فيولا) وابتسامتها الرائعة، لم تذهب القصة من مخيلتي، ولم تكن بعد وفاتها سوى أيقونة لحرية المرأة وقدرتها على تحمل ظروف الحياة، أما الآن الأعمال تسير على نحو جيد، فحياتي التي أدرت لها ظهري ما زالت قائمة رغم بعدي، إن كاميرات المراقبة في مطاعمي تعمل بشكل جيد، ومديري المطاعم يرسلون لي بالبريد الإلكتروني تقاريرهم بشكل منتظم، فما هو المستحيل الذي أفكر به حين العالم كله يدار بضغطه زر من هاتفي النقال، أو حاسوبي الشخصي؟ لذا وضعت خطة، وطلبت من مدير المطاعم الخاص بشركتنا أن يحدد أكفأ خمسة سوبر فايزور من مطاعمي، للعمل في الخارج، شهادات جامعية، لغتين على الأقل، وعمل تأشيرات سياحية لهم وإرسالهم إلى البرازيل في أقرب وقت ممكن، في خلال ثلاث ساعات، أرسل لي أسماء أحد عشر سوبر فايزور، كي أنتقي من أريد منهم، حتى وقع اختياري على خمسة وطلبت إرسالهم إلى هنا. ارتديت ملابسي وذهبت إلى العمل في الملهى الليلي، تحدثت مع (ليلى) على

الهاتف عن مجموعة مصريين قادمين للبرازيل ويلزمهم سكن مميز، قالت:

- أتريد أن تدير عملا للدعارة خاصا بك؟

- لا، مستحيل؛ إنهم زوار.

ثم شرحت لها كذبة وتمنيت أن تتقبلها، قلت لها:

- إن لي قريبا مصريا يمتلك شركة ويريد فتح فرع هنا في البرازيل، ورجاله سيحضرون في القريب العاجل.

- حسنا غدا أراك ونذهب سويا.

- أخاف أن أتأخر على ميعاد عملي.

- لا تقلق، أراك لاحقا؛ إن وقت عملي قد حان.

أريك جونسون...

انتظرتها مليا، قلت لها:

- لماذا تأخرت؟

- أنا لم أتأخر، أنت عقلك يعمل كثيرا، ما بالك اليومين السابقين؟ لقد سمعت عن ذلك الشجار بينك وبين أحد الزبائن!

- أراد إن يتحسس مؤخرة (باتشي)، حين انقض عليها بيده حلفت أن يفقدها.

- لقد أصبحت عدوانيا بشدة، وبدأت أخاف عليك يا (طارق).

- لا تقلقلي؛ تلك أمور بسيطة، اقلقي إذا بدأت في القتل.

فأطاحت بكتفي بضربة قوية، فقلت لها:

- ما تزالين بصحتك، فكيف تكونين على الفراش؟

- تحب أن ترى؟

- لا شكرا، لقد توقفت عن ذلك منذ زمن.

دخلنا إلى مكتب مرموق جدا، انتظرنا مليا ليأتي ذلك السمسار، قالت لي:

– سوف أحصل لك على أفضل عرض بأرخص سعر هنا.

– المكان يبدو فاخر جدا، من أين لك ذلك؟

– إنه أحد زبائني، أذهب له المنزل كلما طلب، ويده سخية، لكنني لا أستغله، وأول مرة في حياتي أطلب منه شيئا.

– من هذا؟

– إنه (أريك جونسون)، أكبر وكيل عقارات في ريو بالكامل، يتمنى أن أطلب منه شيئا، لقد قال لي ذات مرة أن أترك العمل، وأتفرغ له وحده، لكن أعلم أن زوجته شرسة جدا، أحضر له نعم، إنما يجعل مني رفيقته ذلك معناه أنها سوف تقتلني، وترمي جسدي في القمامة.

تهللت أسارير (أريك) عندما رأى (ليلى)، وقال:

– مرحى سيدة (نتاشا).

أمسك يدها وقبلها، ثم نظر لي وقال بدون اكتراث تماما:

- أهلا بك.

- مرحبا.

قالت له في دلال جعلني أهيم بها عشقا:

- لدينا زوار قادمين من مصر، وأتمنى أن أجد لهم مقرا سكنيا فاخرا.

نظر إليها بحب ودلال، وقال:

- إن لم أجد لهم مقرا يليق، أضعهم على رأسي وألف بهم البرازيل كلها.

- أنت الأفضل دائما، لذا جئت إليك طالبة تلك الخدمة، حيث أريد شقة فاخرة بأفضل سعر.

- مجانا إذا أردت أيضا.

- كم أحبك يا لعوب!

فضحك ضحكة ارتجت لها الأرجاء، وقال لها:

- غدا أعطيك المفتاح والعنوان.

- لن نراها؟

- كلمتي كالسيف وسوف ترين.

أعطته قبلة بالسبابة والوسطى وقذفتها، فوضع يده على قلبه وكأنه التقطها داخله، وقالت:

- هيا بنا.

قال لها أريك في لهفة وشوق:

- أراك غدا.

- في نفس الموعد؟

- في نفس الموعد.

- (وهي تخرج) وبأفضل سعر يا (أريك).

رد وقال لها:

- وبأفضل سعر يا قلب (أريك).

تم تأجير شقة جيدة في أحد أحياء (ريو دي جانيرو) الراقية، وأبلغني مدير مكتبي أن الشباب سيصلون بعد غد، على خطوط مصر للطيران، تمنيت لهم رحلة سعيدة، وأرسلت له العنوان حيث مدبرة الشقة سوف تكون بانتظارهم حين وصولهم مباشرة.

أثناء عملي، توقفت ونظرت مليا لشاب وشابة يقبلون بعضهم، شرد فكري وذهب إلى الإسكندرية، موج البحر ووجه (أميرة) لا يفارقني، ورغم كل ذلك الحزن الذي عانيته، إلا أنني أحسست بحنين جارف لتقبيلها، مسكتي لأطراف شعرها، ودفئي بجانبها، لم يراودني شعور بأنثى مثلها، رغم ما عشته ورغم ما عانيته تمنيت أنها كانت بجانبي، أراها بعيني، ألمسها بقلبي ويدي، أفيق من ذلك، لأجد مدير الملهى يوبخني بشدة، التفت إليه وأكملت عملي بنشاط غير معهود، وكأن ذكراها تلهمني القوة على متابعة أي شيء، رغم ذلك الوحش خلف المدير، الذي أتمنى أن أضع إصبعي في عينه وأنظر له مليا. أكمل عملي وتراني (باتشي) فتضع يدها على قلبها، حتى أبعد عنه؛ إنه (روماني) ونعرف أنه خرج من السجن حديثا، ويهدد به صاحب المطعم العمال، وإذا لزم يلقن الذين لا يدفعون الحساب درسا

قاسيا جدا، ونعلم أنه بائع مخدرات، وقاتل مأجور، إلا أنني كنت أتمنى الظفر برقبته، لمضايقة (باتشي) مرارا وتكرارا، حتى إني أجدها تبكي بسبب ضغطه عليها في بعض الأحيان، كاعتراض طريقها، أو تقريب أنفه من رقبتها أو شعرها، في مرة من تلك المرات حرقت إصبعه بشموع الطاولات جزاء على تطاوله، لكنه لا يهدأ.

اللقاء...

حضر الشباب من السفر، وكانت رحلة شاقة عليهم، فجميعهم لم يخرج منهم أحد من "مصر" رغم أنهم نوابغ في أعمالهم، إلا أنني توسمت فيهم خيرا خارج البلاد أيضا. حضرت إلى الشقة، فتح أحدهم باب المنزل، تخبطت كلماته في اسبهلال وهو يقول: مستر (طارق)، ظلَّ الشباب ينظر بعضهم إلى بعض، لأنهم ببساطه لم يجدوا (طارق الدمنهوري)، لكن وجدوا شخصا مختلفا تماما، لا يمت لي بصلة، وبعد المصافحة والسؤال كيف كانت رحلتهم من مصر، بدأت أشرح لهم: لماذا أحضرتكم إلى هنا؟ حتى تنتهي المهمة المكلفة لكم هنا، وهي افتتاح فرع لنا هنا في البرازيل، أريد أن تتكيفوا مع البلد، هذا مسكنكم، كل أسبوع سيصل إليكم خمسة آلاف ريال لكل منكم، تأكلون وتشربون وتتصرفون بحرية كأي سائح في رحلة، لا ادخار، مال مرتباتكم الأساسية مستمرة في مصر إن طالت أو قصرت، المدة ستستمر بإذن الله إلى أن يتم العمل على أكمل وجه، أربعة هواتف نقالة. ماذا فعلتم؟ على من تعرفتم؟ المطاعم التي زرتموها؟ المهارات التي اكتسبتموها؟ سوف ننشئ مطعما هنا في بلد غريب، أي

الأماكن أنسب لعرض منتجاتنا على الطريقة التي تهم أهل البلد؟ ترسل المعلومات صباح كل يوم، نظرا لربما تأخرتم خارج المنزل، لا يوجد مواعيد عمل، الجميع يتصرف بحرية، هل من أسئلة؟

وجدت الشباب غير مصدقين لما سمعوا، تنزه وأكل ونوم مجاني؟ وسفر لزيارة دولة أجنبية بالمجان؟

وجدت (حسن) يهتف:

- ينصر دينك يا مستر (طارق).

ابتسمت ابتسامة عريضة، وقلت لهم:

- أتمنى لكم إقامة سعيدة في البرازيل.

وذهبت سريعا.

خالد وحسن ومحمد ومصطفى، ظلت تقاريرهم كل يوم تصرخ بأن اختياري كان في محله، الشباب يبحثون بضمير ودقة أحسدهم عليها، وتمنيت أن أكون في مثل ذكاء بعضهم، ذكر لي أحدهم أن كلمة حلال هنا تغرا الكثير من الناس، والغريب أنها تغري أكثر غير المسلمين لتفهمهم أن الأكل الإسلامي

الحلال مفيد أكثر من غيره، وأن أرقى المطاعم تقدم العصائر عوضا عن المشروبات الكحولية، والحكومة في بعض الأماكن لا تسمح أن تكون المطاعم الفاخرة في إطار مجمعات سكنية، نظرا لما قد تخلفه من إزعاج، والكثير والكثير من الملاحظات الهامة، وحان وقت اختيار المكان، بعد ثلاثة أسابيع من البحث، تم عرض الكثير من الأماكن حول "ريو دي جانيرو" وليس بها، لانخفاض أسعار المحال التجارية بها، "نيتروي" "سان فرانشيسكو" و"سانتا ديجو" و"سانتا ماريا"، وقع الاختيار على أفخمهم وكان في "سان فرانشيسكو".

مكان رائع راقٍ أمام الساحل والأشجار تحيط به؛ ترى من نوافذه "ريو دي جانيرو"، بأضوائها المتلألئة وجوها الصاخب، مزيج من ألوان وأضواء لياليها الساحرة، أنظر من نافذته، أجد وجه (أميرة) الحاني ينظر لي بحب وعاطفة، فتسيل من عيني دمعة لا أعلم إن كانت تلك الدمعة قفزت من أميرة إلى (فيولا)، أم أنني فقدت الإحساس؟ وأبكي على حالي، لكن الحنين إلى (أميرة) راودني بقوة تلك الأيام الماضية، ورحت أتحدث لنفسي: هل فقدت عقلي إلى هذه المرحلة؟ أنت حتى الآن لم تعلم من هي؟

هل تستطع مواجهة عمك بما حدث بينكما تلك الليلة؟ وأعود أوبخ نفسي بقسوة: أنت فقدت عقلك بالكامل. لم أكترث للعمل ثلاث ليالي، وفوجئت ب(ليلى) تتصل بي تتهرني على غيابي ثلاث ليالي متتاليات عن العمل، وتقول لي:

-(طارق) ماذا حدث؟

– مرحبا يا حياتي، تصدقين؟ أريد الاتصال بك لكني مشغول جدا.

– مشغول عني؟ حسنا، ولكن العمل، هل أنت مشغول عنه أيضا؟ لك ثلاثة أيام لم تذهب وذلك سوف يؤثر عليك بالسلب، المياه والغاز والإيجار والطعام.

– حسنا، فقط أخذت هدنة حتى لا يثير (روماني) المتاعب.

– اذهب لعملك وأيا كانت تصرفاته لا تتدخل أرجوك، لسنا بحاجة لمزيد من المتاعب، اتفقنا؟

– حسنا، اتفقنا. أراك في منزلك الليلة.

– عليك المشروب.

– حسنا.

انتهى وقت العمل و(ليلى) في اشتياق للقائي ونحر رقبتي بالكامل، فقط قلت عندما رأيتها:

– كيف حالك يا جميلة؟

ردت عليَّ بكل برود قائلة:

– بخير.

– هه، ببساطة وجدت عملا آخر.

– ألا تعلم أن إقامتك أشرفت على الانتهاء.

– نعم.

– وإيجاد عمل جديد يعرضك للخطر أكثر، قل لي ببساطة ماذا تفعل؟ أرى معك مبالغ مالية ولا تكترث للعمل، هل هو صديقك المصري الذي أرسل رجاله؟

ثم أردفت وعينها تفيض ذعرا وصوتها بدأ يعلو:

– تعملون في المخدرات؟

- لا، وكررتها أكثر من مرة.

وقبضت على فمها بيدي وقلت:

- الأمر مختلف تماما عما تظنين، هل تثقين بي؟

- طبعا.

- أراك بعد أسبوع ولك عندي مفاجأة، اتفقنا؟

- قانونية أم غير قانونية؟

قلت لها بكل حب، وأنا أتلمس خصلات شعرها:

- قانونيه جدا.

كانت قد انقطعت اتصالاتي ب(جوفاني)، رغم أننا سويا معا على الفيس بوك، أرى حياته تتقدم بشكل ملحوظ، وأن (ريتا) حبلى، وقد أثار فضولي ذلك الخبر، اتصلت به في تلك اللحظة، قال:

- فقط اتصلت كي تتحدث إلى (ريتا)؟

– في الحقيقة نعم.

تعالت ضحكاته وهو يقول بصوت عالٍ:

– إنها الآن ليست معي؛ في إحدى تمرينات الحمل، ستجد هاتفها مغلقا.

– أين أنت؟

وتتجلى الصورة والوضع أمامي، قال:

– أنا في مداهمة.

– وتجيب على الهاتف؟

– وإن أردت أن أنام قيلولتي قد أفعل، الحرب ليست أن ترتادها، الحرب كيف تديرها يا صديقي.

– لدي مشكلة، وأردت منك مساعدتي.

– أين أنت؟ وسوف أحضر حالا.

– ليست لتلك الدرجة، هل لديك رجال هنا في ريو؟

– بالطبع في (ريو دي جانيرو) بكثرة.

– حسنا وأنا في نتروي، هل لهم سلطة أو أحد لهم هنا؟

– خلال دقائق ولن تمر ساعة إلا قد وجدت اتصالا من أقرب الرجال إليك، كم رجلا تريد؟

– رجلا وأحدا؛ أريد أن أعرف منه كيف تسير الأمور هنا.

– واحد فقط؟

– مرشد للطريق يا صديقي، والباقي كما تعلم يصنعه المال وحده.

ضحك بشدة وقال لي:

– صدقت، حسنا انتظر مني مكالمة.

– هل لدينا محامٍ هنا؟

– لماذا؟

– أعتزم أن أفتتح مطعما جديدا هنا في البرازيل.

– مرحى، ألم يكن من الأفضل أن تفتتحه في بلدك الثاني إيطاليا؟

– طبعا الخطة القادمة بإذن الله.

– فقط أرسل العنوان وأنا أرسله لك فورا.

– أشكرك كثيرا يا (جوفاني)، أراك قريبا.

– أتمنى ذلك.

– ومن سيحضر ويبارك المولود أكثر من خاله؟

فقهقه ضاحكا وقال:

– نعم صدقت، إذن أراك قريبا يا صديقي العزيز، تحياتي.

اللقاء...

في أحد مكاتب الصرافة ب (ريو دي جانيرو) وقف شخصان يضربان أخماسا في أسداس ويتخبطون في بعض، يقول أحدهم للآخر:

– هل قال لك: إنه أحد أفراد (الكوزا نوسترا)؟

– نعم، قلت لك: نعم، ومتخفي، وذلك ما يثير قلقي، أتعلم أنها السنة الخامسة التي لم يزرنا أحد من صقلية؟ أتعلم ما معنى ذلك؟

– نعم، أخاف أن أفكر في الكثير من الدم والكثير من المحققين، ونحن بالكاد أعمالنا تنتظم.

– قال لك كم رجلا يريد؟

– قال إنه يريد رجلا واحدا.

– أنت متأكد من ذلك؟ ومتى يريده؟

– قال ليلا في (نيتروي).

– من ترسل؟ من؟

- (نيتروي)؟

فنظر أحدهم للآخر وقال: وجدتها.

قمت بالرد على الاتصال القادم من (جوفاني)، قلت له:

- هي معك، صحيح؟

- فعلا هي معي، خذ؛ تريدك.

قالت بغضب يجعل العالم في حالة حرب:

- هل سأجاوب دائما عليك من هاتف (جوفاني)؟ لماذا لم تتصل بي مباشرة؟ أم فقدت رقم (ريتا)؟

- أبدا، ليست تلك النظرية، أرجوك افهميني.

- لا تحاول أن تثبت لنا أنك الفارس العربي الذي يخاف على مشاعر صديقه من الغيرة، أنا لست أختك؟

- بالطبع.

- لن أتقبل منك أي مباركة سوى على هاتفي هه.

وأعطت الهاتف ل(جوفاني) مرة أخرى.

– هكذا هي أصبحت عنيدة أكثر من ذي قبل، وجميلة أكثر من ذي قبل.

– قصدك وشنيعة أكثر من ذي قبل.

– ويحك، إن سمعتك سوف تحضر للبرازيل وتقتلك بنفسها، أنت لا تعلم ماذا يحدث عند تغيير الهرمونات لدى المرأة.

– لقد تأكدت من ذلك بنفسي حالا، دعنا نغلق الهاتف، وأتصل بها أولا؛ إن الوضع مأساوي.

– جدا. (وأغلق الهاتف)

حبيبتي الصغيرة، حبيبتي الصغيرة، تمر الأرقام ويمر رقم هاتف (فيولا)، أنظر له وتلقائيا أضغط على ذر الاتصال دون قصد منى، وضعت الهاتف بسرعة على أذني؛ قد أسمع شيئا، يرن الهاتف على الجانب الآخر حتى يعطي إنذار عدم الرد، أغلقت الهاتف بحسرة، واستمريت في البحث عن (حبيبتي الصغيرة)، ردت عليَّ (ريتا) بكل أدب وقالت:

- مرحبا.

- صغيرتي الجميلة ستصبح أما.

- نعم، ومِن مَن؟ أجمل رجل على ظهر هذا الكوكب.

- بالطبع، كيف سارت الأحوال؟

- على خير ما يرام، حبيبي الغالي يوميا تتوسع إمبراطوريته، وكنت أتمنى أن تكون معنا، لم لا تستقر معنا هنا؟ (طارق) أنت واحد منا الآن.

- كما كان ل(جوفاني) حياة لا يستطيع التخلي عنها، فأنا أيضا لدي حياة لم أستطع تماما التخلي عنها.

- عند عودتك أتمنى أن تبحث عن (أميرة).

- وذلك أيضا شيء صعب.

- فليهدك الرب إلى ما تصبو إليه.

- أتمنى من قلبي لكم السعادة.

- وأي سعادة يا (طارق)؟ أتمنى أن تدوم للأبد.

– بإذن الله للأبد، هه الآن هل أتحدث ل(جوفاني) من هاتفك؟

– نعم، خذ (طارق) يريدك.

– اليوم في الجادة ١٨ ناصية "سانت لويس إدمون"، ستجد رجلنا هناك في انتظارك، لكن (طارق) أريد منك شيئا.

– قل لي يا (جوفاني) ما بداخلك؟

– في لقاءاتنا، لا ينفع أن نرتدي الجينز، أنت الآن برتبة كما هي عندكم جنيرال على الأقل.

– أفهم ذلك، سوف أخرج قبل الميعاد، وأبتاع بذلة جديدة وطاقية ومعطفا طويلا.

– حقا أنت رائع.

– أنت الرائع يا صديقي؛ أنت عرابنا.

فابتسم (جوفاني) وقال:

– أنا عراب الجميع، إلا أنت صديقي.

أغلقنا الهاتف على موعد مع أحد أفراد العائلة.

الصدمة...

أجاب (روماني) بغير اكتراث على هاتفه وقال: نعم، ثم فجأة اعتدل في جلسته ووقف وقال للمتحدث: هل أنت متأكد؟

قال له المتحدث على الجانب الآخر:

- نعم إنه أحد القادة وهو متخفٍ في نتروى منذ شهر وأنت أقرب شخص إليه الآن.

قال له (روماني) في توتر:

- ألم يقل لك ماذا يريد؟

- لو كنت أعلم، لكنت أخبرتك أيها الغبي.

- حسنا، حسنا لن أسيئ التصرف، أعلم جيدا ما معنى ذلك المال الوفير والدم الوفير أيضا، لا تقلق، نعم "١٨ سانتا لويس إدمون"، حسنا، حسنا، سلام، انتظر: ما اسمه؟

- الدون، اسمه الدون، وهل هؤلاء الناس لهم أسماء أيها المغفل؟!

دخل (طارق) في ظلام (سانت لويس إدمون) مرتديا ذلك الزي والحذاء ذا الكعب الحديدي، حيث صوته وحده يرن في أرجاء البنايات، وجد شخصا من بعيد يرتدي نفس الزي، لكنه يبدو عليه القدم والمظهر الرث، أخذا يقتربان من بعضهم البعض حيث ظهرت ملامح (روماني) ل(طارق)، فاندهشت وقلت بداخلي: ذلك الشيطان له أيادي كثيرة، اقتربت منه بعيني التي تلتهب من لذة الانتقام، نظرت إليه وتعلقت عيناه وجحظتا في نفس الوقت، بدا فمه المفتوح كمظهر شخص نائم مغناطيسيا، فأمسكت ذقنه وأغلقت فمه بيدي وقلت له:

- أغلق هذا.

نظر لي قائلا: أنت؟!

أعتقد أنه تحاشى أن يلفظ اسمي.

- الدون (طارق) من (الكوزا نوسترا) هل لديك اعتراض؟

- لا يا سيدي.

أخذته بيدي، وأنا أقبض على كتفه مرة أخرى قائلا:

– ليس هذا وقت الغباء يا (رومانـي)، استفق.

– نعم يا سيدي.

– استمع بعناية فائقة لما أقوله لك، وحكيت له ما أريد ساعة كاملة.

بعدها قال لي:

– أمرك يا دون (طارق).

– (في شغف) والأخبار في أسرع وقت ولا تثر جدلا ولا تثر شكوكا حولك.

أخرجت من معطفي خمسة آلاف ريال وقلت له: كل أخبار جديدة بمثلهم، اتفقنا؟

– حسنا يا سيدي، أخبار جديدة بأقصى سرعة.

في خلال يومين وافاني (روماني) بأخر التطورات، رغم ذلك انتظرت منه أخبارا تنهي عمليتي على أحر من الجمر، ولا أطيق الانتظار لحظة، رغم أن العمل يسرق مني الوقت،

والتجهيز بشراء المتطلبات يأخذ الحيز الأكبر من تفكيري. عندما عاد (روماني) حيث أثرت الجلبة في المطعم، حيث بدلت طلبات الطاولات وأحدثت مشكلة مع صاحب المطعم، خرجت لروماني خارج المطعم، وأخذت الظرف الذي يحمله من يده الذي به صور وبعض المستندات، نظرت إليه سريعا وأنا أعطيه إياه ورزمة أموال، خرجت خلفي (باتشي) و(روماني) يقول: أمرك دون (طارق)، وجدت وهي تنتظر لنا (روماني) ينحني لي، وقال لها:

- آنسة (باتشي). (وهو يضع يده على صدره تحية لها)

- ماذا يحدث؟ ماذا فعلت مع صاحب المطعم؟ هكذا أنت خسرت وظيفتك.

أمسكت يدها وقلت:

- يا صغيرتي لا تقلقي من أي شيء.

- ما علاقتك ب(روماني)؟

- فقط أراد أن أقرأ له بعض التحاليل ما دمت أقرأ الإنجليزية.

– تقرأ تحاليل في ربع دقيقة ويغادر أيضا.

أمسكت يدها، قبلتها، وقلت لها:

– من اليوم فصاعدا لن يضايقك أحد، وإن حدث، (روماني) سيتولى قطع يده، لا تقلقي عليَّ.

على مدار أربعة أيام لم ينم أي منا سوى ساعات قليلة، حتى ننتهي من ديكورات المكان، وانتقاء ألوان المفارش وحجز التذاكر لأفضل الطهاة الذين يعملون لدينا، ولعمل افتتاح مهيب يليق باسم (الدمنهوري) لغزو البرازيل، (الدمنهوري)

لا يصلح، لا يصلح اسم (أبو طارق)، من سلسلة مطاعم (الدمنهوري)، نريد اسما يغزو العقول ويكون محببا، ظلت الأفكار تراودني كثيرا حتى توقفت عند (ميرا كازا)، بيت ميرا بالبرتغالية، حاولت أن أبعدها عن ذهني وحتى في العمل لم أتوقف عن التفكير بها إطلاقا، لكن وجدت الاسم محببا ولا مانع منه، ورغم أنني لا أعلم ما أنا بفاعل حقيقية، لكن قلبي تشبث بالاسم.

مساءً، تجلس (باتشي) في شقة (ليلى)، يحتسيان أكوابا من الجعة معا، وتذكر (ليلى) (طارق):

- كيف سارت أحواله في العمل؟

- أنا خائفة عليه كثيرا.

- لماذا؟

- أعتقد أنه بدأ طريقه الذي لا عودة منه؛ منذ أكثر من يومين و(طارق) منقطع عن العمل تماما بعد عراك مع إدوارد، ولم أحاول الاتصال به، من يومها حاله تبدل وأصبح يتحدث بثقة وقلب جاحد غير مكترث بأحد، تخيلي أنه أطاح بإدوارد في العمل وكاد يضربه.

قالت لها (ليلى): يا ويلي، أخاف أن يحوم حوله ذلك الثعلب المدعو (روماني).

- تخافين على مَن مِن مَن؟ لقد رأيت منذ يومين العجب العجاب!

- ماذا رأيت؟

- ذلك (الروماني) تشقلب حاله رأسا على عقب، ورأيت (طارق) يمسك بيديه ظرفا أصفر كبيرا به مجموعة من الصور، وعندما ظهرت أمامه أخفاها، وقال لي: إنها تحاليل ل(روماني) يقرؤها له بالإنجليزية لا أكثر، وأعتقد أن هناك أكثر من ذلك بكثير، لقد أصبح (روماني) يعاملني كابنة له، ولا أعلم ماذا فعل به (طارق) حتى يكون بذلك اللطف!

- ماذا تعتقدين في رأيك؟

خفضت (باتشي) وجهها في الأرض، وقالت:

- أخاف أن يكون (طارق) يعمل في القتل والتهريب مع (روماني) أو لصالحه، لا أعلم، لكن الوضع أصبح خارج السيطرة، و(طارق) إما سيضيع أو ضاع بالفعل.

- غدا سوف أراه وأعرف ما يخفي في جعبته، وإن لم أستطع ردعه سوف أتصل بالشرطة وأبلغ عنه بأن تأشيرته انتهت؛ على الأقل يعود لبلاده، ولا يموت هنا موتة شنيعة.

لقاء الأحبة...

حان موعد لقائي ب(ليلى)، ومرت أيام كثيرة لم أسال عن (باتشي) ولم أهاتفها، ولا تتصل بي؛ أعتقد خوفا مني، أو تعتقد أنني أتاجر في المخدرات!

في تلك اللحظة رن هاتفي النقال يعلن عن انتصار بكل المقاييس قد حققته، وأتمنى أن يكون ما في صدري قد تم.

– (روماني) كيف جرت الأمور؟

– ممتازة جدا.

– أحضرهم ووافني قرب الميدان "مربى شوتو"، أستلمهم منك هناك، الساعة التاسعة، اتفقنا؟ سلام.

اتصلت ب(ليلي) وقلت لها:

– ألو، ماذا سوف آكل اليوم؟

– ماذا تحب؟

– أكلك أنت.

- والتحلية؟

- كيك الموز الرائعة خاصتك.

- اتفقنا.

- سوف آخذك العاشرة مباشرة ونتعشى في منزلك.

- العاشرة يا (طارق)؟ لن أكون انتهيت من عملي، أنت تعلم ذلك.

- قولي: تعبت فجأة، قولي أي شيء، أقابلك العاشرة، أقابلك العاشرة.

- وهو كذلك، لكن من سيدفع راتبي.

- سوف نمر على البيوت لاحقا نستجدي اللقمة من الناس، لا تقلقي سأكون بجانبك.

- اتفقنا.

في تمام الساعة العاشرة قابلتها:

- جاهزة للمفاجأة.

- نعم.

ونظرت لي نظرة استهتار وقالت:

- ماذا تريد أن تفعل في البيت عندي؟

نظرت لها بابتسامة عريضة:

- هيا بنا، هناك سوف تعرفين حينما نصل.

وقفت سيارة أمامنا مستأجرها بالسائق لفترة، قرابة الربع ساعة في الطريق تسأل:

- هذه ليست وجه منزلي ولمن تلك السيارة؟

- مستأجرة.

- أين نذهب؟

- انتظري عدة مفاجآت وتلك أولها.

نظرت لي عند باب المطعم وأوقفتني وقالت:

- أعد النظر؛ المشروب في هذا المكان باهظ جدا.

- هل تعرفيه؟

- لا.

- كيف حددت سعره إذن؟

- لا، لن أدخل، سوف تفقد ما شقيت به لشهور لدفع فاتورة ذلك المطعم، أم أن في مخيلتك أكثر من ذلك؟ صارحني هل تبيع المخدرات كما قالت (باتشي)؟

- أهي قالت ذلك؟

- نعم، وأنا فهمت الآن، أنت تريد أن تسكرني قبل الذهاب للمنزل، أنا أوافق بدون مشروب.

ضحكت وشددت على يدها وأدخلتها عنوة، الجميع يلقي على التحية باحترام شديد وظل فم (ليلى) مفتوحا من الذهول،

التفتت لي وقالت:

- ما هذا؟

- هذا المطعم يبحث عن مدير يباشر عمله، وعلى علاقة قوية بصاحب المكان، وقد رشحتك بالفعل لهذا العمل ومبارك عليك الوظيفة الجديدة، هل تناسبك؟

- أنا لا أعرف صاحب هذا المكان، ومن هي ميرا؟

- ربما تنظرين إليه وهو يعشقك.

ذهلت وعلق الكلام في حلقها.

- من؟ هل هو لك؟ من تقصد؟ ومن هي ميرا؟ هل أنت تاجر ممنوعات كبير، وتتاجر في المخدرات؟ وغرقت عيناها في بحر من الدموع.

قالت:

- كفاك مزاحا؛ أنا لا أتحمل.

- خلفك مباشرة غرفة المدير، ممكن أن تتحققي بنفسك.

نظرت خلفها لباب زجاجي ويبرز على الزجاج اسمها بخط عريض بارز فانهارت بالبكاء، نظرت لي وقالت:

- أنت مخادع، من أنت؟

وصارت تجري خلفي في طرقات المطعم مهددة بقتلي، حتى وقفت فجأة وارتمت في أحضاني دافنة وجهها في صدري، قالت:

– ضحكت عليَّ واقترضت مني الأموال، وحتى الآن مدين لي بخمسة عشر ريالا.

ضحكت بصوت عالٍ وقلت لها:

– سوف يضاف على أول راتب لك، سعيدة؟

جففت دموعها بيدها، وقالت بابتسامة لم أرها على وجهها سابقا:

– سعيدة.

ثم أردفت: من هي ميرا؟

ضحكت بصوت مسموع عالٍ محاولا الهروب من السؤال، وقلت لها:

– غدا سوف نبتاع بعض الملابس الجديدة لمديرة مطعمنا العظيمة، جاهزة للمفاجأة الثانية؟

– اليوم غير طبيعي، لا توجد بعد ذلك مفاجآت.

قلت لها: يبقى واحدة.

ناديت السائق وركبنا السيارة اثنتي عشرة دقيقة فقط، وقد أخذنا الطريق إلى منزل جميل، تحيطه الورود بحي "النيتروي"، ليس متواضعا ولا ثريا، ترددت (ليلى) في الدخول وقالت:

- من لك هنا؟

- أحبابي.

- لم أعد أكترث لنواياك، لكني أثق بما تفعله.

دخلت معي البيت مغمضة العين، قالت لي:

-هل ميرا هنا؟

فوجئت بفتاة وطفل على أريكة أمام التلفاز، فانهارت باكية وهي تقول:

- كيف فعلت ذلك؟

جرى الطفلان نحوها بسرعة، تبكي وهي تحتضن أبناءها بحرقة وتهمهم بكلمات المباركة عليهم.

أخرجت من جيبي بعض النقود أعطيتها ل(تاليا)، المربية التي تراقب الأطفال لحين عودتنا، وقالت لي:

– تحت أمرك في أي وقت يا اميجو (طارق).

– أشكرك وسوف نحتاجك الفترة القادمة للأولاد.

– أربع ساعات من "ساو باولو" حتى "ريو"، كانوا متشوقين جدا للقائك، ولن يتعبوا اميجو، (روماني) معهم.

نظرت لي بدهشة وقالت:

– هل أنت تعمل مع روماني؟

– لا، أنا لا أعمل له؛ هو يعمل لدي، تعلمين بعض الأعمال الضرورية كإعادة الأولاد، لا تسير بشكل قانوني، و(روماني) أقدر الناس على هذا العمل.

هممت بالرحيل فأمسكت (ليلى) يدي، وحاولت تقبيلها فسحبتها بشدة وقالت:

– كيف حدث هذا؟

– قصة طويلة.

وتعود تحتضن أبناءها، وتقول لهم:

– كيف حالكم؟

يرد طفلها الصغير:

– شخص أخذنا من منزل جدتي، بعد القبض على والدي، وأحضرنا إلى هنا.

فنظرت لي وقلت لها:

– لم يكن هناك وسيلة أخرى.

– أنت ملاك أرسله الرب لي.

– لا، أنا (طارق) صديقك.

– كيف؟ ومن هي ميرا؟

– المرأة هي المرأة ولن تتغير، هيا ليأوي الأطفال للفراش.

– شقة من هذه؟

– منزلك، هل سأترك مديرة مطعمي تسكن غرفة في حي الفقراء؟

– هذا باهظ الثمن.

– تم دفع الثمن منذ زمن، لحظة إيوائي في منزلك دون مقابل.

- لن أستطيع تحمل كلفته.

- تدبرت أمر الراتب أيضا، سيجعلك لا تحتاجين شيئا آخر.

- اجلس هنا لا تذهب لمكان، أحتاج الكثير من التفسير.

- نعم سوف أنتظر.

بعد دقائق، قالت لي:

- وجدت ملابس كثيرة للنوم بالداخل ومقاسي.

- وضبت بعض الأمتعة الخاصة حتى لا تحتاجين شيئا، حتى ننقل احتياجاتك من المسكن القديم.

- وحتى هذا عرفت مقاسه؟

(وأشارت بيدها على أحد الملابس الداخلية التي تمسكها بيدها)

- هل نسيت بتناوبنا الغسيل؟

- قل لي أولا وثانيا، أولا: ماذا حدث مع طليقي؟ وثانيا: من هي ميرا؟

- سأخبرك...

مخفر ساو باولو...

انتبه الضابط (أديسون إيجور) لبلاغ من مجهول، ظرف أصفر صغير به رسالة فحواها: يتابع الرقيب (ألبرت دون) مجموعة من بائعي المخدرات في المناطق المدونة أدناه، وبالتفصيل أسماء وعناوين، يأخذ منهم راتب شهري ١٥ ألف ريال، للتغاضي عن أعمال البيع في منطقته وحمايتهم، وتلك بعض الصور الملحقة بالخطاب.

تفحص بعض الصور وأمر بإحضار (ألبرت) إلى مكتبه، تألق الرقيب (ألبرت) وهو متجه إلى مكتب الضابط وسأله: خيرا؟

– هل توجد أي مشاكل في منطقتك يا ألبرت؟

– لا، الأمور تسير بخير ما يرام، هل من مشكلة؟

– لا، فقط قلت أسألك.

– لا تهتم بها، منطقتي بخير. وأشار إليه بالانصراف.

اجتمع (أديسون) ببعض الضباط، وطلب منهم مراقبة (ألبرت) عن قرب وإعطائه المعلومات الكافية، وخاف (أديسون)

أن تكون تلك الصور مفبركة، أرسلها للأرشيف للتحقق منها جيدا، بطريقة بسيطة، تم حصار (ألبرت) بالرشوة والابتزاز للعديد من سكان المنطقة، وقد تجرد من الخدمة، وسجنه ثمان سنوات للابتزاز وتسهيل بيع المخدرات وتجريده من شرف العمل بالشرطة، وتم القبض على كل المشار إليهم في الخطاب.

- هذه أصل الحكاية سيدتي الجميلة، وجدة الأولاد عندما أرسلت لها المحامي، فورا أشارت إلى أنهم عبء عليها، وسلمت الأولاد من دون مقاومة.

قالت بلهفة أكبر من الأولى والثانية:

- من هي (ميرا)؟

- حب لم يكتمل.

نظرت في دهشة وسألت:

- من تملكك ولا تكمل قصتها معك؟ ارو لي ماذا حدث؟

قرابة الساعتين جلست أحكي لها قصتي مع طليقتي (أحلام)، وماذا كان تفكيري بأنها مظلومة وأنني قد أكون ظلمتها،

ولقائي (بأميرة) وأسفاري من بلد لبلد، سوشين وفيولا، وبعد ما مررت به كيف تسيطر عليَّ، وكيف أراها في أحلامي ومخيلتي، وأنها تكاد تقتلني دائما ذكراها، وما اكتشفته بعدها واختفائها المفاجئ الذي كان الأساس في محاولات نسياني لها بأنها قصة عابرة، لكنها احتلت ذاكرتي، وعدم بحثي عنها، على أساس أنها نزوة لا تنسى، وحب مستحيل.

نظرت لي باندهاش، وقالت:

- لماذا مستحيل؟

- أنت تعلمين عاداتنا وتقاليدنا تمنعني.

- هل منعتك عاداتك وتقاليدك بأن تحب (فيولا) رغم أنها أيضا تشبهها؟ أو منعتك عاداتك وتقاليدك بمساعدتي؟

نظرت لها ونفس السؤال يراودني منذ زمن وقلت:

- أنت وضعك مختلف، أنت صديقتي.

مالت برأسها على صدري في حنان وقالت:

- وإن كنت انتشلتني من تلك الحياة القذرة، وأنا صديقتك، فلماذا هي لا؟ وليس من الممكن أن تكون قد أحبتك مثلما أحببتها؟ أليس لها الحق في إنقاذها هي أيضا من تلك الحياة؟

صدمتني كلماتها ولم أستطع الرد، وكأن لساني تيبّس، وشعرت بأن ريقي قد جف.

ثم قالت:

- اعتقدت أن علاقتك مع (باتشي) تطورت للحب رغم معرفتك بأنها تهيم فيك غراما؟

قلت لها بإنكار:

- أنا؟

- نعم أنت، ألا تري عيونها وهي تنظر إليك بلهفة عارمة.

- ما رأيك في إهدائها وظيفة تتناسب مع مؤهلها؟

- كنت سأقول لك هذا.

- غدا نحل كل شيء، غدا بإذن الله.

تنبهت إلى أن (ليلى) ذهبت في ثبات عميق وهي مائلة على صدري، وذهبت معها في تفكير عميق بما قالته لي وما فعلت بعدم بحثي عنها مرة أخرى، ذلك لاعتقادي بأنها نزوة، لكنها نزوة لا تنسى، وحب لا يغفر القلب له سوى بندم عميق، وترددت أمامي: هل تذكرني؟ هل أحبتني؟ هل عاشرت غيري الملايين؟ هل ما قالته (ليلى) يمكن أن يكون حقيقة؟ تثاءبت، وهل...؟ وهل...؟ كثير من التساؤلات لا تنتهي، ولا يغفر قلبي لي ما سببته له من ألم، ثم ذهبت بأفكاري للإسكندرية، فقدت عزمي على القيام، فغفوت و(ليلى) على صدري، نمت على الأريكة وما تزال رأسها على صدري كطفل صغير تشبث بوالده.

طوال يومي في الطريق وفي المنزل وأيضا في المطعم، كلمات (ليلى) تتردد على مسامعي، العديد من البشر يتواجدون داخل رأسي، وتتكرر وتتكرر: "أليس من الممكن إن تكون قد أحبتك مثلما أحببتها؟ أليس لها الحق في إنقاذها هي أيضا من تلك الحياة؟".

ارتسمت على وجهي علامات الضجر والحيرة، قلت وإذا ما كانت تحبك أساسا وإذا كانت تعيش حياتها بذلك المنطلق أنت حتى لا تعرف اسمها الحقيقي، هل جننت؟

عقدت العزم على أن أحضر (باتشي) للعمل معنا، ذهبت إلى المطعم الذي كنت أعمل به، دخلت من الباب الرئيسي، اخترت طاولة وجلست إليها، جاء صاحب المطعم وقال لي:

- هل أنت مرة أخرى؟ ألا يكفي ما فعلت؟ هل أتيت لأخذ باقي مستحقاتك؟ ليس لك شيء عندي، وقم الآن قبل أن أطلب لك الشرطة.

أخرجت له هاتفي وقلت له:

- انظر، هل تعرف هذا الرقم؟

نظر لي وبدهشة قال في تلعثم:

- ماذا؟ ما هذا الرقم؟

- هذه شرطة الرقابة الغذائية وأنا سائح في البرازيل، ما رأيك في خمسة أشهر سجن وغرامة مئة ألف ريال؟

– مستر (طارق) ماذا تريد؟

– أريد (باتشي).

– تعال بعد العمل وخذها.

– بهدوء تعطيها باقي حساب الشهر، وقل لها: لقد استغنينا عن خدماتك.

– بتلك البساطة؟

– نعم بتلك البساطة، ثم تدعوها لطاولتي وتحضر لنا وجبتين بيتزا وبطاطس ومشروبا غازيا، وسلطات، ولا تقلق خذ ثمن الوجبة مقدما والباقي لزملائي هنا.

أخرجت من معطفي ألف ريال وقلت له:

– من يقل لي إنه لم يأخذ البقشيش، سوف أجعلك تدفعه أضعاف أضعاف ذلك، اتفقنا؟ هيا من هنا بسرعة.

فر هاربا من أمامي يفعل ما قلت له، تدبر راتب (باتشي)، وأحضرها أمامي بدون حرف، ظلت (باتشي) مسبهلة لثواني

وصاحب المطعم بنفسه يقوم بوضع الأطباق وفرش الخدمة بنفسه.

- ماذا فعلت يا (طارق)؟ لقد فصلني من العمل، ماذا قالت له؟

- لقد نسيت أن أقول لك، لقد اتصل بي أحد أقاربك، وقال لي إنه وجد لك عملا، وأوصاني أن آخذك من هنا لاستلام العمل الجديد.

- ما هذا التهريج يا (طارق)؟

- هل تثقين بي أم لا؟

- يا (طارق) أنا لدي ديون ولدي الكثير لأدفعه في الشهر، وبتوقفي عن العمل سوف تكون العواقب وخيمة.

- قلت لك لا تقلقي واستمتعي بدخولك المطعم كزبونة.

- لا، قل لي أولا.

نظرت لها نظرة واحدة بغضب، حيث قالت لي:

- بعد الطعام تخبرني.

أنهينا الطعام وقالت:

- ألن تحاسب عليه؟

- مدفوع مسبقا.

نظرت خلفها، حيّت الزملاء وغادرنا، توقفت السيارة أمامي وذهبنا حيث وجدت (ليلى) في زي محتشم جديد، وتتحرك هنا وهناك تباشر المطعم وأخر التطورات، قالت لي (باتشي):

- ما هذا المكان؟

- ستجلسين مع مديرة المطعم وهي سوف تقص لك الرواية منذ البداية إلى النهاية.

أشرت إلى (ليلى) وقلت لها: استلمي ها هي، أنا ذاهب للمحامي وأراكم مساء في شقتك، سوف أحضر العشاء، لا تجعلي الأطفال يناموا، قولي لهم: خالكم قادم.

وهكذا تسلمت (باتشي) حسابات المطعم، بعيدا عن السكارى وجو البارات المريب، وهي تستحق ذلك.

ما إن حلَّ الليل كنت عند (ليلى) في منزلها، نتناول الطعام، وبدورها أخذت الأطفال إلى مخادعهم، وأردت القليل من الهواء النقي، فخرجت إلى الشرفة، يد تمتد من الخلف تداعب شعري، فالتفت بقوة: (باتشي) أفزعتني.

ثم قالت بصوت هامس غير مسموع:

- يمكنك أن تبتاع لي شرابا بعد فترات العمل؟

حاولت أن أتحجج وأقول في الحقيقة، كما يحدث في الأفلام، لكنها قاطعتني وقالت:

- (طارق) لقد أحببتك حقيقية وأنت فقير مثلي، لا تملك شيئا، الآن أنت رب عملي ويجب أن أخاف عليك، لكني الآن لا أتحدث لرب عملي، أنا أتحدث ل(طارق) زميلي ورفيق كفاح، نعم إنها شهور معدودة، لكن عشنا سويا أصعب اللحظات وأجملها، رأيت (طارق) عن قرب: قلبه، عواطفه وتفكيره. احجز أول طائرة وأذهب لها، لربما تنتظرك.

- من هي؟

قالت لي بتردد وكأنها تخاف نطق الاسم:

- (ميرا).

قلت لها: ومن قا...؟؟

قاطعتني وقالت:

- (ليلى)، أنت تعلم إذا احتفظنا بسر ثلاث ليال متتالية، قد يجعل أدمغتنا تنفجر.

- ماذا عساي أن أفعل؟

- كما جمعتنا هنا، أتمنى أن تجمعنا بها أيضا.

- لا أعرف من أين أبدأ.

- من أليكس.

- فليكن من أليكس، لحظة واحدة فقط، لحظة، لماذا من أليكس؟

وأتحدث لنفسي: نعم، لقد تقابلنا في الإسكندرية، لكن ليس شرطا أن تكون من الإسكندرية، يوجد شخص واحد فقط عنده أصل الحكاية، معروف الدمنهوري عمي العزيز.

سان فرانشيسكو...

لم أخف ولم أقلق يوما على شيء بقدر ما أحسست بالقلق من ذلك اليوم، لقد ملأت الجرائد والمجلات بموعد الافتتاح، خشيت أنه بسبب قلة علاقاتنا هنا، سوف لا يحضر أحد تماما وأصاب بإحباط أكثر وأكثر، رغم كل ذلك كنت أنظر إلى اسم المطعم على الطاولات فتهدأ أعصابي كثيرا، أرسلنا دعوات بقوائم الطعام وبعض الدعوات لأصدقائنا المقربين، البعض مجاني، والبعض الآخر له خصم خمسين بالمئة من أسعار المطعم، وجدت (ليلى) تتحرك باستهتار وكأنها ترقص، قلت لها:

- ما بك؟

- المحافظ قادم، لقد لبى دعوتي، وسوف أضعه على أفخم طاولة محجوزة.

- كيف هذا حدث؟

- لقد كان أحد زبائني. (وضحكت)

- تحدثي بجدية.

– من الدعاية التي أعطيتني إياها، ذهبت إلى المحافظ ودعوته، فلبى المحافظ الدعوة، وبما أن المحافظ قد يأتي فإن الشريف سوف يحضر معه، وبما أنه قادم، من سيأتي معه؟

أشرت لها بعدم المعرفة.

– كل من له مصلحة لديه سوف يحضر، من علية القوم، الناس الذين يريدون التصوير مع المحافظ، وبعض لاعبي كرة القدم، أرسلت لهم دعوات الافتتاح، لبى منهم خمسة أفراد الدعوة، ليست "سان فرانشيسكو" ولا "كوبا كبانا" أو "ريو"، "البرازيل" كلها ستصبح هنا اليوم، صدقني لن تشهد ريو بالكامل افتتاحا كافتتاح ذلك المطعم، وهذا وعد مني أنا مديرة أحد سلسلة مطاعم ميرا كازا.

– الافتتاح الساعة التاسعة، ولا يجلس في الخارج سوى ثلاثة صحفيين من مجموع عشرين صحفيا قد دعوناهم مجانا، حتى يتم تغطية الافتتاح بهم.

جلسنا إلى الطاولات بدلا من الزبائن ننظر لبعضنا البعض، و(ليلى) و(باتشي) و(خالد) و(حسن) و(محمد) و(مصطفى) كلنا ننظر لبعض، لدرجة أن القلق بدأ يتسلل إلى (ليلى) وقالت:

– إن لم يحضر أحد سأقص أنا الشريط بنفسي، ولن أكون آسفة.

قال أحدهم: مستر(طارق)، مستر (طارق) هناك سيارات كثيرة في الخارج، لكن لا أحد يخرج منها!

ذهبنا جميعا ونظرنا من شرفة المطعم.

وقال أحدهم:

– ما هذه السيارات؟ الساعة الآن التاسعة والربع، إن يرد أحد أن يأتي فليأت.

قالت (ليلى):

– لن يستطع أحد الدخول قبل المحافظ، إن حضر أي شخص عليه الانتظار أمام باب المطعم حتى يحضر ضيف الشرف، وإن تأخر نصف ساعة عن الحضور، فإن الأبواب تفتح والجميع يمر، أيا كان من افتتح المطعم.

دارت في تلك اللحظة أبواق الشرطة معلنة قدوم المحافظ، وفي ثوان معدودة تقدم المحافظ من الباب الرئيسي، فبادرت بالخروج له، قالت (ليلى):

- انتظر هنا لتكن في استقباله.

ذهبت إليه بكل وقار، مدت يدها سلمت عليه، وأعطته المقص لقص الشريط، رحبت به فور وصوله وقالت:

- مستر (طارق) صاحب سلسلة المطاعم.

سلَّم عليَّ بحرارة وقال:

- إنه لفخر أن يكون هناك شباب في مثل اجتهادك هذا.

شكرته وأرسلته (ليلى) إلى طاولته، تقدم مجموعه من الشباب أعتقد أنهم من إحدى فرق كرة القدم، الجميع ببدل رسمية إلا مجموعة حضرت وكان رداؤها مميزا، عرفتهم فور وصولهم: أربعة أفراد بزوجاتهم، تقدموا جميعا وألقيت عليهم التحية، إنه نائب صقلية واضح جدا من الزي وذلك الخاتم في إصبعه،

قال لي وهو يرفع الهاتف من على أذنه ويناوله لي بدوره ويقول:

– تحياتي.

أخذت منه الهاتف وقلت ل(جوفاني):

– زيارة العائلة شرفتني كثيرا.

– ألست أحد أفرادها؟ معهم هدايا متواضعة لطاقم المطعم، وأعتقد أن أكبر هدية كانت لنا هذه السنة هي وجودك في حياتنا يا (طارق).

– لا أعرف ماذا أقول، هذا كثير جدا، أشكرك يا (جوفاني)، أشكرك إلى اللقاء.

أعدت الهاتف لصاحبه وشكرتهم على الحضور،

فقال لي أحدهم:

– الرجاء أن يأتي الطاقم ليستلموا هدايا العراب.

كان لكل فتى ميدالية ذهبية، ولكل فتاة خاتما من الألماس، انبهر الفريق حتى إن الضيوف نفسهم انبهروا، وقامت مجموعة العراب لترحل، فقام الفريق كله بتحيتهم وشكرهم على الهدايا القيمة.

لم ينته الافتتاح للساعة الثالثة كما توقعنا، لقد استمر للخامسة صباحا، حينها هلك الجميع، وقفت في الشرفة أنظر إلى صوت البحر و"ريو دي جانيرو" على الشاطئ الآخر، تفكيري شارد في مكان واحد وشخص واحد: "الإسكندرية" و(أميرة)، كان التفكير لا يتوقف لحظة، وكانت أحلامي لا يفارقها وجهها المبتسم، ترددت كلمات (ليلى) في مخيلتي، واتصالات عم (صلاح) الغريبة، هل من الممكن أن تكون ذهبت هناك مرة أخرى؟

في نهاية الافتتاح سلمت على الجميع وتمنيت لهم التوفيق، توجهت بكل ثقة إلى ليلى وطبعت على خدها قبلة، وضعت يدي حول خصرها وقلت لها:

– المكان تحت إدارتك؛ إنا مسافر، ثم طبعت قبلة على كفيها وقلت لها: سوف أعود.

قالت في توتر:

– متى سوف تعود؟ حسنا ابق على اتصال، ذلك اليوم الأول إلى أين ذلك المجنون ذاهب؟

لن أنتظر طائرتي الخاصة، حجزت أقرب طائرة عائدة إلى مصر، من المطار مباشرة، وقد زالت ابتسامتي وتحولت إلى تفكير عميق، من أين سأبدأ؟

أمي أولا.

لم تتوقع قدومي، ولم أقل لها إني قادم، عندما فتحت الباب ورأتني أمامها لم أتملص من ضرباتها المتتالية على كتفي وظهري. قالت:

- هانت عليك أمك يا (طارق) لهذه الدرجة؟ لقد تأخرت عليَّ كثيرا.

- تعالي يا ست الحبايب، أروي لك قصة (طارق) والبحار السبعة.

رويت لأمي ماذا رأيت وما مريت به، وكانت أشبه بقصص الأفلام السينمائية، لكن رؤية ابتسامتها أسعدتني حقا، ورحت في سبات عميق جدا؛ منزلي وسريري، متعة الراحة في بيتك لا يضاهيها شيء. استيقظت صباحا وكانت أهدافي محددة،

لقد عدت، لكني لم أكن كما كنت في السابق، ما زالت سيارتي الأودي بحالة ممتازة، كم اشتقت لك! وسيارتان أخريان قد تم تغطيتهم بعناية، لم أستطع رفع الغطاء عنهم حقيقية، لم يطاوعني قلبي، ربما بعد فترة، لكن ليس الآن، الآن لديَّ هدف ومكان محدد لا أستطيع تغييره؛ الإسكندرية.

طوال الطريق تفكير وتفكير لا يتوقف، ما إذا كانت حضرت وإن كانت قد حضرت، فلماذا؟

وعند وصولي:

– حمدا لله على السلامة يا (طارق) بيه، حمدا لله على السلامة يا (طارق) بيه.

ترجلت عن سيارتي، واختفت ابتسامة (عم صلاح) وهو يراني بملابس مختلفة وقصة شعر غريبة، لكن تابع كلامه:

– انتظرتك كثيرا يا (طارق) بيه، والوالدة حضرت هنا، ولم أكن أعلم: ما أقول لها؟

دخلت المنزل وهو خلفي كظلي تماما:

- يا عم (صلاح)، أنا معك هنا، هيا احك لي: ماذا حدث؟

- ما حدث لا يرضي الله يا أستاذ (طارق).

ونادى على زوجته، فحضرت ومعها غطاء السرير، ثم قال:

- في الليلة الأخيرة التي مكثت بها هنا، وحضرت الآنسة التي حضرت لك، وجدنا في اليوم التالي هذا خلف السرير.

نظرت إلى ملاءة السرير، إنه حقا غطاء سرير.

- لكن ما بها يا عم صلاح؟

- دقق بها جيدا يا سيدي.

لم أفهم شيئا، وأدرت رأسي اعتراضا، دليل عدم الفهم، أخذ عم (صلاح) من يدي الملاءة وفرشها على الأرض بقربي،

ظهرت بقعة دماء ملحوظة فيها، ما إن رأيتها إلا وجن جنوني، قلت له:

- متى وجدتها يا عم (صلاح)؟

– بعد مغادرتك بيوم، عندما حضرت أم سعيد لتنظيف البيت، وقد جمعت كل شيء للغسيل وتم غسل كل شيء، ولكن أبقيت البقعة على حالها، قالت لي زوجتي عنها، فتركتها لك إثباتا على الوضع، هذا لا يرضي الله يا (طارق) يا ابني.

– شكرا لك على ما فعلت يا عم (صلاح)، أنا المحق؛ لقد تأخرت جدا، لكني أعدك أن كل شيء سيكون بخير، ألا تثق بي يا عم (صلاح)؟

– قبلما تحضر المنزل وقتها؟ أم بعدما حضرت يا (طارق) بيه؟

ابتسمت ابتسامة خبيثة في وجهه وهممت بالمغادرة، قال لي:

– من كانت هذه؟

– سوف أعرف اليوم بإذن الله.

رد ببلاهة:

– سوف تعرف؟

لم أسأله عن شيء آخر، أخذت سيارتي وكأنني طائر إلى القاهرة مرة أخرى.

الحقيقة...

شارفت الشمس على الغروب، عندما وصلت "القاهرة" مرة أخرى، وأنا أفكر: هل أذهب إلى عمي وأصارحه بالحقيقة وما فعل؟ لكن الوضع سوف يكون قمة في الإحراج لي وله، ولماذا يكون لي؟ لقد فعلت ما فعلت تحت ناظره وأنا لست نادما على شيء، أعرف أنني أخطأت وأعترف أيضا، لا يوجد حل أخر سوى ذلك. كنت في حالة يرثى لها، وأهملت أمر السكرتارية وطاقم مكتبه تماما، طرقت باب مكتب عمى العزيز بعنف غير معهود، رد من الداخل: من؟ فتحت الباب وقلت له:

- أنا يا عمي.

تهللت أساريره بسماجة كعادته، ونظر لي: أخيرا عاد الفتى الطائر، أين كنت يا ولد؟ والدتك قالت: ...

قاطعته بحدة:

- عمي أرجوك، أنا قادم الآن في سؤالين أسرع من البرق، وأحتاج للحصول على إجابة مباشرة وصريحة، أنت أرسلت أحدا ما يراقبني بعد طلاقي مباشرة؟

– أراقبك لماذا يا(طارق)؟ يا بني أنت شاب متزن وأنا أثق بك منذ زمن، ما هذه التخاريف؟

– ليست تخاريف يا عمي، تعرف شخصيه تدعى (أميرة بسيوني)؟ كان سؤالي بالنسبة لي يبدو غير عقلاني، حتى أسأله سؤالا يمكن أن يحرج هو منه شخصيا، لكني بدون شعور سألته وأنهيت عناء ثقله على صدري.

نظر لي بدهشة ثم أردف قائلا في حيرة:

– (أميرة بسيوني) من؟

– عمي ليس ذلك وقتا للمراوغة، أرجوك من (أميرة بسيوني) هذه؟ يوم طلاقي من (أحلام) تحديدا، هاتفتها أكثر من خمس مرات.

نظر لي في دهشة وقال:

– يوجد (أميرة) لكن ليست (أميرة بسيوني).

قلت له: ومن تكون؟

رد قائلا:

- (أميرة محمد عبد السلام بسيوني)

- أيا كان الاسم ...

وصمت لحظة وكأنني تحممت بماء مثلج، جعل جسدي بالكامل يرتعش، وغبت في حلم قصير، طفل يجري بجانب فتاة وسنه العاشرة وسنها السابعة، ورؤية أخرى: الطفلة تبكي والطفل يمسك يدها، أنا لن أتركك منذ الآن، ولو توفي والدك، والدي أيضا والدك، أليس كذلك يا أبي؟

ينظر لوالده وهو مكفهر الوجه عابثا ويردد الرجل:

- نعم يا (طارق) نعم يا ولدي.

- (أميرة) ابنة عمي (محمد) رفيق والدي رحمه الله؟

- نعم، هو كذلك.

نظرت له باستغراب شديد وقلت له:

- وكيف عرفت اسمها بالكامل، وما علاقتها بك؟

- هل لديك متسع من الوقت لأروي لك قصة طويلة؟

- نعم.

- إن كنت تريد فتلك القصة، عمك (محمد عبد السلام) عندما اختاره الله، كان والدك مديونا له بمبلغ كبير، وكان الوضع معقدا جدا، إما أن يتراجع عن أخلاقه ومبادئه، أو يتحمل المسئولية ويعترف بدينه لزوجته المرحومة (يسرا)، ذلك بسبب التوسعات التي قام بها وما جعل اسم الدمنهوري براقا ولامعا، لقد كان والدك وعمك محمد لا يفارقان بعضهما، وبعد وفاة عمك (محمد) ظلت العلاقة متماسكة، إلا أن النفوس تغيرت، وأيضا دخلت الضغينة في صدر أحدهم.

- من؟

- وقت عزاء (محمد) -رحمه الله- والدة أميرة مدام (يسرا) كانت ما تزال في قمة شبابها، حيث كان يكبرها محمد بعشر سنوات تقريبا، ومات وهو في الخامسة والأربعين، وتدخل الشيطان في رأس أمك على هيئته البشرية في صورة زوجتي المرحومة (عفاف)، أشارت لوالدتك على (يسرا) وجمالها غير الطبيعي، فبدأت المشاكل بينها وبين والدك، ظنا منها بأنه سوف يتزوجها.

- أمي أنا؟ لكن والدي -رحمه الله- كان يعشق أمي!

- يا (طارق) يا ابني عندما يدخل الشيطان تنتهي العشرة والصداقة وأمور عديدة، حاولت بعدة طرق أن أجعل أمك تفهم بصفة أننا كنا زملاء جامعة واحدة وصف واحد، وكانت معرفتي بوالدتك قبل لقاء والدك بها.

قلت له بدهشة:

- ماذا هذا الحديث؟ أسمعه لأول مرة.

- قلت لك قصة معقدة.

- ماذا حدث بعد ذلك؟ وما دخلك أنت بتلك القصة أساسا؟

- تمهل عليَّ، حتى تفهم كل شيء للنهاية.

ذهب والدك -رحمه الله- خلسة (ليسرا)، واعترف لها بدينه لزوجها، رغم عدم وجود أوراق بينهما، أصر والدك أن يكتب كامل المبلغ دينا عليه على الورق، فاستعان بي كي أوثق ذلك الورق وأيضا لأكون شاهدا عليه، عادت مدام (يسرا) إلى مسقط رأسها "المنصورة"، حيث ممكن أن تستقر وتربي (أميرة)،

وإلى أن دفع والدك المبلغ بالكامل، كانت مدام (يسرا) قد افتتحت محل خياطة تحول بعد ذلك لبوتيك أنيق، نظرا لأنها تجيد تصميم الأزياء، وكنت أتردد عليها دائما نظرا لانشغال والدك بدفع المستحقات، ومتابعة الحسابات، وتلك لم تكن خدمة لوالدك، لكن الحقيقة أنني كنت أود زيارتها من حين لآخر، عندما انتهى دين والدك، لم يكن لي الحق في الذهاب إليها بأي وجه، حينها طلبت يدها، وتزوجت أنا (يسرا).

- ماذا تقول يا عمي؟

بانت علامات الحزن وهو يكمل القصة ويقول:

- وفُضِحَ الأمر، وعرفت زوجتي (عفاف) وكان وقتا عسيرا جدا مر بي في حياتي.

إلى أن طلقت عمتك (عفاف) بناء على رغبتها الملحة، وقتها عشت أسعد أيام عمري مع المرحومة (يسرا)، حيث عوضتني سنين لم أتخيل كيف مرت عليَّ، وأنا متزوج من (عفاف) - رحمها الله وسامحها- وبالطبع قاطعت أمك (يسرا) وقاطعتني بسبب صداقتها الشديدة لعفاف،

كبرت (أميرة) أمام عيني كابنة لي، وترعرعت على يدي، كانت الزهرة التي لم يكتبها الله عليَّ من صلبي، وإنما كانت زهرة تنبض في قلبي، حياة كنت أراها تكبر أمامي يوما بعد يوم، وأتمنى أن أراها عروسة في بيتها، في وقت تمنيتها لك يا (طارق)، لكن النصيب، ظلت تحت رعايتي، لم أحسسها يوما بأنني زوج أمها، وهي أيضا تقبلت الوضع بالكامل، لذا قلوب الأطفال نقية، توفت (يسرا) وتركت فراغا كبير في قلبي، واعتصرني الألم لفراقها، حيث كانت (أميرة) تحتاج لأب وأم وأنا لست كليهما، أنا حتى ليس والدها الحقيقي، لم أستطع التخلي عن ذكرى (يسرا) وهي الإنسانة التي وهبتني السعادة في حياتي كلها، وحتى الآن لم تمر امرأة في حياتي تشبهها.

- كيف ماتت؟

- بالقلب؛ كانت تعاني منذ زمن، حيث ذهبت للكثير من الأطباء ونصحها بعضهم بعدم الإنجاب، ولكن حب عمك محمد للأولاد دفعها لأن تخفي عليه مرضها، وأكرمها الله بأميرة، لكن مع تقدم العمر أصبح الوضع مرهقا لها، فكانت القاصمة، في إحدى النوادر زلت قدم (أميرة) في أحد حمامات السباحة،

فانزلقت في المياه وكانت لا تستطيع العوم، وما أن رأتها (يسرا) حتى توقف قلبها عن النبض، وعندما حضرت الإسعاف كانت قد توفت، توليت أمر الفتاة إلى أن التحقت بالجامعة، ووجدت تلك الزهرة تنبت في أحضان عقيم، لا أعلم حكمة الله فيما حدث، من يحافظ على تلك الزهرة بعد وفاة الجميع من حولها؟! تعجبت من تدبير الأمور، إنه سبحانه وتعالى.

ترددت وأنا أقول:

- وأين تختفي هي تلك الفترة؟

- هي من أصرت على الاختفاء رغم أنها على علاقة جميلة بكل بنات العائلة.

- كيف؟

- نسيت أنها ابنتي؟

نزلت عليَّ تلك الكلمة كالصاعقة، جعلتني أتصبب عرقا وحيرة.

- متى تقابلتم وعرفت أنها تحدثت معي؟

– بعد أذنك يا عمي: يمكنني مقابلة (أميرة) أولا وبعد ذلك أحكي لك كل شيء بالتفصيل؟

نظر لي بدهشه من ذلك الأسلوب التقليدي المبالغ فيه، وقال لي:

– حسنا، أنت تعرف المنزل عندي.

– نعم.

– مكتبها في الدور الخامس، ومنزلنا الدور السادس، يربطنا سلم داخلي، الدور السفلى مكتبها والدور العلوي شقتنا،

هي في العمل الآن، وأعتقد أنها انتهت، أو بعد قليل تنتهي بإذن الله، هي تصمم أزياء، وتصمم مجوهرات.

قلت له بتعجب:

– ما شاء الله، مجوهرات!

– نعم، بعد زواجك مباشرة، درست في جنوب أفريقيا لمدة تسعة أشهر تصميم المجوهرات، كان قلقي عليها شديدا جدا؛ حتى إنني ذهبت لزيارتها مرتين طوال التسعة أشهر، وتعتبر هواية

وتصميم الأزياء أيضا وراثه من أمها –رحمها الله– أما هي فخريجة ألسن، لغة فرنسية.

وأدار ظهره ووضع كتابا في مكتبته، ثم التفت ليجد الغرفة خالية وقد اختفيت أو تبخرت.

يبعد المكتب عن منزل عمي حسين شارعين، لم أتوقف لحظة عن العدو، بدون توقف، أحسست بأن كل لحظه تمر عليَّ أكاد أخسرها، وممكن أن تضيع مني، ماذا فعلت تلك المجنونة؟ لماذا؟ ولماذا لم تخبرني؟

ترددت كل تلك التساؤلات في ذهني وأنا أعدو، وأكاد تنقطع أنفاسي، وجدت المنزل، لي أكثر من خمسة عشر عاما لم أحضر هنا، نظرت للمصعد شذرا، وأكملت بلوغ الدور الخامس عدوا، حتى توقفت على لوحة أنيقة مكتوب عليها: (أميرة محمد) مصممة أزياء.

ارتعشت يدي وأنا أضغط على جرس الباب، وأنفاسي تكاد تنقطع، فتح الباب مع زيادة في ضربات قلبي عجوز شمطاء تقول:

- من أنت يا أستاذ؟

- من فضلك الآنسة (أميرة) هنا؟

- رحلت يا فندم، من حضرتك؟

قلت لها وأنا أعدو:

- شكرا.

الدور السادس، المستشار (حسين معروف)، دققت جرس الباب وخبطت عليه بانفعال، فتح الباب ووجدتها أمامي، تجمدت الكلمات في فمي، وهي تنظر لي بمزيج من الدهشة ونظرات العتاب. ابتسمت وقالت:

- نعم، من أنت؟

- هل لي بكوب من الماء؟

- عفوا؟

- ألن تقولي تفضل؟

- أبي ليس بالمنزل ولا أستطيع تمريرك للداخل.

- لم هذه القسوة؟ على الأقل أنا ابن عمك.

- وهو كذلك، تفضل.

دخلت وهمست لها:

- أين ذهبت؟

- هربت.

- مِن مَن؟

- منك.

- لكنني كنت أحتاجك.

- لم تتذكرني يوما رغم قربي منك، يوم تخرجك، افتتاح معظم مطاعمك، حتى زواجك، وللأسف لم أعرف أني أحبك إلا بعد ذلك اليوم، كنت أقول إن ذكريات الطفولة والصداقة التي كانت بينا، ستجعلك يوما ما تتذكرني من وازع الصداقة، ليس أكثر، بعدما تزوجت من (أحلام)، قلت في نفسي أتمنى أن تسعدك وتحافظ عليك، لكنني في زفافك تأكدت من أنها لن تسعدك، ولا أنت سوف تحس بها، كما توقفت عن الإحساس بجميع من

حولك، تحولت فقط إلى آلة حاسبة ليس إلا، كنت عندك وفي بيتك، كل يوم، كل يوم كنت هناك، كل يوم يسمع أبي خبرا عنك، كل وقت تتكلم فتيات العائلة عنك، كنت هناك دائما كما وعدتني أن تبقى جانبي ولم تف بوعدك كالعادة.

- لقد كنا أطفالا.

- هل تذكرت مثلا؟

- نعم تذكرت، وبقدر ما كانت الذكرى تقطع قلبي، وتدل على جم أنانيتي، أحتقر نفسي، لكن كيف فعلت ذلك؟ ولماذا؟

- قلت لربما يكون هذا آخر ما أستطيع أن أناله منك، بعض الدقائق الجميلة في عمري، إن لم تعد لي في النهاية، فأنت لم تكن لي منذ البداية.

نظرت لها مستعجبا وقلت لها:

- هل تضحين بعمرك كاملا لمجرد دقائق معدودة معي؟

- كنت أتمنى أن تطلب منى شيئا بدلا من مجرد السؤال عن حدث قد حدث وانتهى، هل أنت هنا لعملك أم لسبب آخر؟

- أنا هنا وسأظل هنا لأجلك، وليس لشيء آخر.

اقتربت منها، أمسكت كتفيها، تمعنت في عينيها مليا، وقلت لها:

- أنا أحبك يا (أميرة) رغم كل شيء مررت به، لم أنسك لحظة، لم تفارقني ابتسامتك، إطلاقا. كل كلمة خرجت منك تتردد في قلبي، معلنة تسليمي لعينيك.

- لماذا أتيت يا (طارق)؟

- حتى أسألك سؤالا واحدا فقط، هل توافقين على أن تصبحي زوجتي ورفيقة عمر ذلك القلب الذي يحبك وينفطر من بعدك عنه ويسكن بداخله الحب؟ حبي لك أقوى من كل شيء.

- هل تعرفني يا (طارق)؟

- من كل قلبي.

- متى أحببتني؟

- عندما وقعت عيني عليك، وكنت مغيبا، ظهرت لي في عتمة الليل وقتها، صدقيني لم أكن أعلم ما أريد، لكن جذبني لك شيء أقوى منك ومني، إنه ليس فقط النصيب، وليس فقط جمالك،

ولكن الوضع تخطى ذلك بكثير، إنه حبك، نعم حبك الذي ملأ كياني وإحساسي، نبض طفولة بالحب، وسحر شباب عينيك الدائم.

- الرحلة غيرتك تماما، ماذا حدث؟ هل أصبحت شاعرا؟

- صدقيني أنا أتحدث بإحساسي وليس بعقلي، إن لقاءنا لم يكن مرتبا منك، ولم يكن مصادفة، ولم يكن لقاء عابرا، أحسست ذلك في كل رحلة قمت بها، وكل عين رأيتها رأيتك فيها، ورأيت عينيك هنا وهناك، منذ تلك الليلة وأنا لا أنام دون صورتك وهي تداعب خيالي.

- تقصد وقتما أردت أن تنتقم من زوجتك؟

- رأيت؟ منذ البداية أنا أتحدث عن حبي لك، ثم ماذا تقولين؟

وأصدرت آهة خافتة محبوسة بأنين.

- لا تعتبري الأمر هكذا، أيا كانت حالتي النفسية، فلن تمنع من أنك لن تتركي رأسي لحظة واحدة.

- كيف عرفت طريقي؟

- أعترف لك، لقد فتشت أغراضك وأنت نائمة، ووجدت رقم عمي باسمه، بعدما قد حاول الاتصال ألف مرة مثلا، ولا أعلم لماذا لم أحاول أخذ رقم هاتفك، وأعتقد أنه النصيب الذي أرسلني لمدن بها اكتشفت نفسي، وكم كنت أنانيا مع الجميع، ليس معك فقط، لكن الصدمة عندما رأيت رقم عمي أعمت بصيرتي، واعتقدت أنك أحد ألاعيبه، رغم ألمي وقتها إلا أنني كنت ممنونا له للغاية، ولم أكن أعلم أنني أنا اللعبة في يد القدر، ولا أخفي عليك إنني ممتن أيضا للقدر، لأني رأيتك وأحببتك وتعلقت بك، كل ليلة بعد ليلة تمر عليَّ وأنا أتعلق بك أكثر، من المفترض أن تكون حالة عابرة، ولا أفكر بك مرة أخرى، لكن قلبي من أحضرني من جديد، رغم ما تركت خلفك وأنت ذاهبة.

- ماذا تركت؟

- غطاء السرير الذي رميتِه خلفه.

احمر وجهها، ثم قالت: لقد نسيته، وكنت أريد أن آخذه معي. قلت لها:

- هذا ما أثبت لي حبك الشديد لي، ولا تنكري.

– وهذا ما جعلك تبحث عني، أليس كذلك؟

– لا، أقسم لك حبي لك حتى قبل أن أراها، كم أحسدني على حبك لي، وكم من ليالٍ لم تغفل عيني سوى على صورتك، سامحي تأخيري أرجوك.

– أين تأخرت كل ذلك؟

قلت لها: سوف نبدأ من الآن.

– نعم، سوف نبدأ من الآن.

– حسنا، ذهبت لصديقة في تايلاند، وصديق في هولاندا.

– آه، مرة أخرى صديق هه.

– وافتتحت مطعما باسمك في البرازيل، وسوف نقوم بتلك الجولة مرة أخرى بعد زواجنا، هؤلاء البشر الذين قابلتهم، هم من أعادوني إليك مرة أخرى، وقد غيروا كل مفاهيم حياتي وصححوها.

– من تلك التي سوف تتزوجك؟

– أنت.

- ومن قال لك إنني وافقت؟ هل تخمن أم إنك تعطي قرارات وهمية؟

قلت لها: لن تجدي شخصا يعشق أطراف أناملك مثلي.

نظرت إلى الأرض وقالت: مطعم باسمي؟

- نعم (ميرا كازا).

- أنا (أميرة)، ابحث عن (ميرا) التي افتتحت باسمها المطعم.

- يا، حقا؟

نظرت لي بعين زائغة وقالت:

- صحيح، ماذا تشرب؟

- شربات الورد.

- الشربات عندما يحضر عمك، وتجلسان معا في الصالون،

إنما الآن قهوة.

- تمام يا فندم، تمام أنت تؤمري.

وما زالت تأمر وأنا أنفذ منذ ذلك اليوم.

إن كانت الحياة المثالية التي كنت أعتقدها سابقا بأن ألبس جلباب أبي وأعيش على خطاه، وأن الحب أكبر ضعف، تبين لي أنني أخطأت بحق نفسي، لقد كانت قوة أبي في حب أمي وعزيمته من وقوفها خلفه، لينجح أكثر فأكثر، وذلك ما استطعت أن أحصل عليه بعد كل هذه التجارب؛ فالحب ليس ضعفا وقد أصبحت إنسانا أقوى به.

آثينا...

بعد مرور أربع سنوات، المدرسة التمهيدية الداخلية.

تجلس مديرة المدرسة مع ولية الأمر، وتقول لها: صدقيني يا سيدتي، عمل زوجك المستمر وبعده عن الفتاة لا يثمر سوى العقد النفسية للطفلة، الرجاء حل ذلك الموضوع، حيث إن بكل الأحوال الطفلة في مرحلة الإعداد النفسي وهي تسأل دائما عن والدها، حتى في إجازات منتصف العام لا يكون معكم، أرجوك أن تجدي حلا لذلك، قالت الأم: أحاول جاهدة، لا تقلقي.

تنادي المعلمة: الطفلة (أميرة طارق)، لقد حضرت والدتك، أحضري حقيبتك، إنها في انتظارك.

نظرت المعلمة للأم وقالت:

- ألم يحضر والدها أيضا؟

- إنه في مصر، لديه بعض الأعمال.

وصلت الفتاة، عانقت أمها وقالت:

- ألم يستطيع أبى القدوم مرة أخرى؟

- سوف يحاول جاهدا ذلك الصيف.

- انظري يا أمي لقد رسمت له صورة من خيالي.

تنظر الأم للصورة وتقول المعلمة:

- مدام (فيولا) الفتاة تحب الرسم كثيرا، وهي متعلقة بوالدها أرجو أن ...

ثم قطع حديثهم صوت من بعيد يقول: لا أتأخر عن أميرتي الجميلة.

جرت الفتاة نحو صاحب الصوت وهي تقول في سعادة بالغة:

- أبي، أبي.

تلتفت (فيولا) للمعلمة وتقول بينما تتصنع السعادة:

- ها قد حضر دون علمنا؛ ليفاجئنا بقدومه.

- أنا سعيدة حقا بذلك.

ويحضر السائق حقيبة الطفلة خلفهم.

تمت